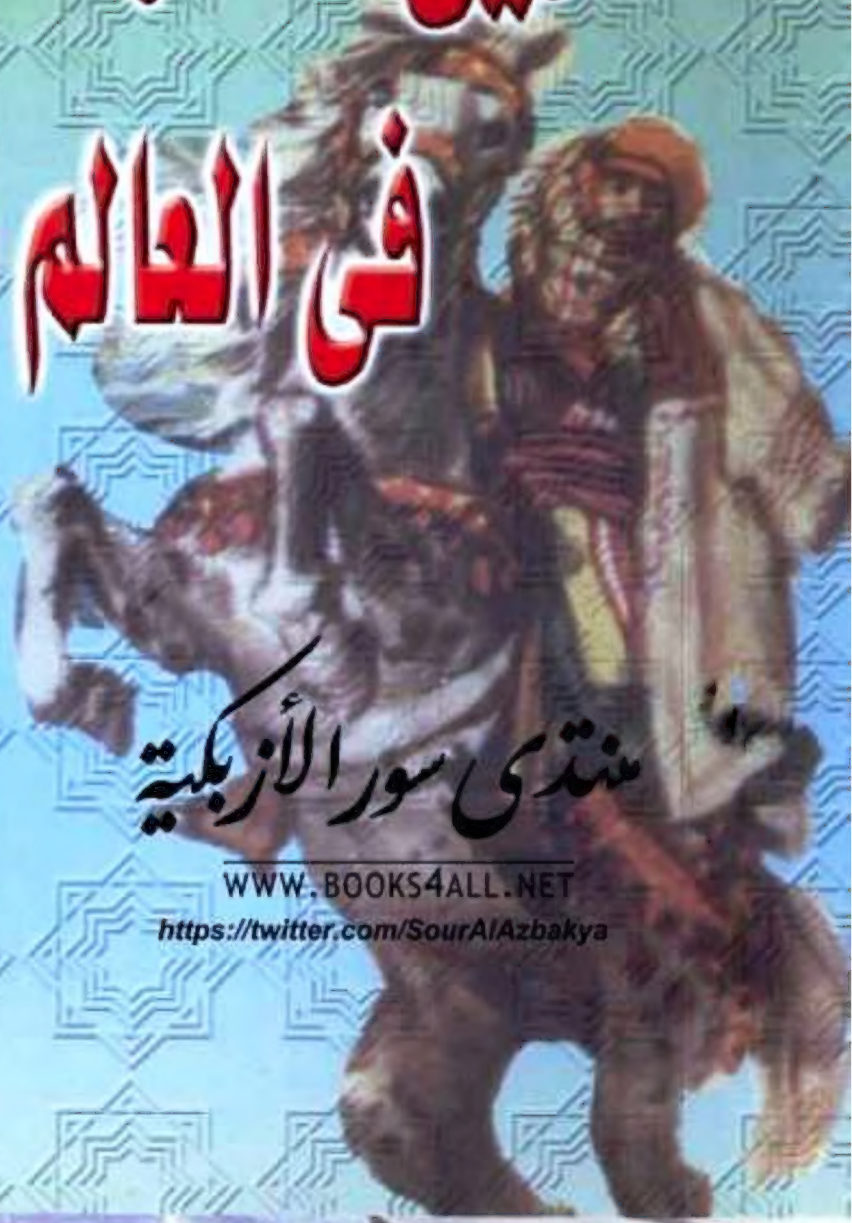


تاريخ الحركات الانتقالية

في العالم الإسلامي



الدكتور

مصطفى محمد رمضان

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

مقرر اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة
في التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)



تاريخ الحركات الانفصالية في العالم الإسلامي

د. مصطفى محمد رمضان

مقرر اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة

في التاريخ والحضارة

جامعة الأزهر

المقدمة

كانت فكرة الوحدة والجماعة هي الفكرة المسيطرة على الدولة الإسلامية طوال عصر النبوة (١-١٠هـ) وعصر الخلفاء الراشدين (١٠-٤١هـ) وعصر بني أمية (٤١-١٣٢هـ) وكانت لها قوتها في أذهان المسلمين وعزائمهم في ذلك الوقت فهي التي أوحى للحسن ابن علي رضي الله عنه أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ ، ومن ثم سمي هذا العام بعام الجماعة والوحدة لأن الوحدة هي التي تغلبت في النهاية على النزاعات والأغراض الشخصية ، وهي التي تنبعث من تعاليم الإسلام التي تحض على الوحدة وعدم الفرقة كما في قوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران ، آية ١٠٣) .

ثم ضعفت هذه الفكرة في أذهان المسلمين في أواخر العصر الأموي وبدأت الخلافات تدب بين البيت العربي ذاته وتضعف الدولة ، وفي العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ) بدأت تسيطر فكرة المصالح المذهبية والإقليمية والشعبوية بمعنى أن كل أصحاب مذهب أو اقليم أو جماعة من الناس أو قومية بالمعنى الحديث كانت تنزع إلى الانفصال عن جسم دولة الخلافة واختيار حكومة قوية تدافع عن مصالحهم .

ويذهب البعض إلى أن هذا كان بسبب انتصار المبادئ التي نادى بها الثورة العباسية ، ومن هذه المبادئ مبدأ المساواة ، ففكرة الجماعة قد ذهبت وحل محلها فكرة جديدة هي فكرة حقوق الشعوب والقوميات ففي هذا العصر ظهرت قوميات في العالم الإسلامي ، فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الإسلامية يلتمس شخصيته القومية ويحاول أن ينميها وأن يرتفع إلى مستوى

الاستقلال بحيث أن الزمن لم يمتد إلا يسيراً حتى أصبحت كل قومية تحكم نفسها بنفسها .

ولم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية لأن المعارضة الشيعية والمعارضة الخوارجية كانت تشجع هذه التركات ، وكانت الخلافة إذا قاومت لا تجني من وراء المقاومة إلا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها بنفسها عن طريق الإكراه^(١) .

ولكننا نقول إن المساواة التي نادى بها العباسيون لم يكن معناها حق الشعوب في الانفصال عن الدولة الإسلامية وعن الجماعة ، وإنما كان معناها المساواة في الحقوق والواجبات بين كل المسلمين ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى دون التخلي عن الجماعة والتمسك بها من منطلق قوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ .

وهذه المساواة هي التي أتاح لجميع الشعوب الإسلامية أن تشترك في النهضة الإسلامية الحضارية في العصر العباسي وتبدع ، وأن يحمل أفرادها لواء الإسلام في ميدان النهضة العلمية والثقافية التي شاركت فيها شتى الجنسيات الإسلامية على اختلاف أوطانها وقومياتها وهذا هو الذي جعل المسلمين يتقدمون علمياً في هذا العصر .

وعند ما تخلى المسلمون عن الوحدة كان هذا تطوراً خطيراً ينذر بضعف الخلافة وسقوطها وتفرق شمل العالم الإسلامي ومقدمة للحوادث المفجعة التي أصابت العالم الإسلامي على يد الصليبيين والمغول .

ولقد أدي ضعف الحكومة المركزية في بغداد واستبداد الأتراك بها إلى قيام حركات انفصالية في كثير من النواحي في المشرق والمغرب ، وسنتناول هذه الحركات الانفصالية مبتدئين بالجزيرة العربية وذلك لأن العناصر المعارضة في الجزيرة العربية

(١) د. حسن محمود وأحمد الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ٣٩٠ .

ساعدت هذه الطموحات الانفصالية وشجعتها على الانفصال عن الدولة الإسلامية نكاية بالعباسيين الذين أهملوا العرب ، ولذلك فإن العباسيين لم يخسروا العرب فقط وإنما أصبح العرب في صفوف المعارضة ف بجانب حركات الانفصالية في الجزيرة العربية فإنهم خرجوا إلى الأندلس والمغرب وطبرستان وأسسوا دولاً انفصالية كدولة الأمويين في الأندلس ودولة الأدارسة بالمغرب والدولة الزيدية بطبرستان .

ونستطيع أن نقول إنه عندما شاعت الحركات الانفصالية في كل مكان في الدولة العباسية إبان تغلب الأتراك (٢٣٢-٣٣٤هـ) والبويهيين (٢٣٤-٤٤٧هـ) والأتراك السلاجقة (٤٤٧-٦٥٦هـ) على الخلفاء في بغداد ، فإن الدولة العباسية تكون قد خسرت سلطتها وهيبتها قبل انقراضها بزمان طويل ، باستثناء بعض الفترات التي حاول بعض الخلفاء فيها إعادة الهيبة للدولة مثل أيام الرضا (٣٢٢-٣٢٩هـ) والمعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ) والمسترشد (٥٢٩-٥٣٠هـ) والراشد (٥٢٠-٥٥٥هـ) .

ولعل السبب الرئيسي في ذلك راجع إلى تخلي الدولة العباسية عن العنصر العربي وإبعاده نهائياً عن القيادة والصدارة ، وهو العنصر الذي حقق للإسلام النصر والعزة والكرامة والوحدة ، فهو عنصر مؤسس ومكون للدولة وبجوده تمت الفتوح الإسلامية على أيام الخلفاء الراشدين والدولة الأموية فلما تم إبعاده وجد العباسيون أنفسهم مكشوفين وحدهم منفردين أمام الأعاجم الطامحين للانفصال ، فكان من السهل على هؤلاء الأعاجم الضغط على الخلفاء لأن العصية أصبحت لهم دون العرب ، فاستبدوا بأوضاع الدولة الإسلامية وأصبح الخليفة ليس له من الأمر شيء ، وبدأت الحركات الانفصالية تنتشر في العالم الإسلامي في المشرق والمغرب .

الباب الأول

الحركات الانفصالية في الجزيرة العربية

الفصل الأول

الوضع في الجزيرة العربية

بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية

الوضع في الجزيرة العربية بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية

حدثت ردة فعل بسبب هزيمة العرب في الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون تمثل في ثورات للعرب بالشام والعراق ومصر ، ولكن الدولة العباسية استطاعت أن تحمد هذه الثورات في أيام المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) والمعتمد (٢١٨ - ٢٢٧هـ) بكثير من العنف دون محاولة منها لإرضاء جانب العرب الذين اتضح لهم وخاصة أيام المعتضم أنهم أبعدها تماماً من دائرة الضوء وعن الاشتراك في الجندية ، وكانت آخر المحاولات اليائسة هي محاولة قام بها العباس بن المأمون للإطاحة بالمعتضم وكبار الأتراك إعادة التوازن لصالح العرب ، ولكنها كانت محاولة غير محكمة وطائشة ، وكانت نهايتها الفشل وقتل العباس والقضاء على كل أنصاره .

لكن الشيء الملم الذي يرصده المؤرخ في عصر النواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) أن العرب عندما أبعدها عن الجيش الإسلامي لم يقبلوا أن يعيشوا في قهر في العراق ، فعاد بعضهم بل معظمهم إلى جزيرتهم لأنهم لم يقبلوا أن يعيشوا في ضيم وظلم ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَأَسْعَى فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء : آية ٩٧) ، وقال جل شأنه : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (النساء : آية ٧٥) ، ذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين ، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ فإذاً ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال . (الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، ص ٣٢٧) .

وقاموا بحركات ضد الدولة العباسية ظاهرها الإغارة على من جاورهم للسلب والنهب وقطع الطريق إلى الحج وفرض إرادتهم في المدينة ومكة وما جاورهما من الأماكن الحضارية بالحجاز ، لكن المدقق لهذه الأحداث يدرك أن هدفها كان مناوأة الدولة العباسية التي قدمت العجم على العرب .

وكان هذا أمراً مؤسفاً ، لأن هذه القوة العربية كانت توجه من قبل إلى ساحات الجهاد مع أعداء الإسلام ، وبفضلهم تمت الفتوح الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ، ثم ظهر الموالي في العصر العباسي وزاحموا العرب ، لأن قيام الدولة العباسية كان بجهود الموالي الأمر الذي جعل لهم شأنًا عظيمًا في أمور الدولة ، فكان القواد منهم وكان الوزراء منهم والكتاب منهم ، فزاحموا العرب وتقدموا عليهم في شتى المجالات ، وكان انتصار المأمون بسواعدهم مما دعم مركزهم في الدولة وأنتقش من شأن العرب ، حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد ، وصار معظم الجند حتى عصر المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) إنما هم من أهل خراسان والأبناء من الفرس ، وصار معظم الاعتماد عليهم ، وابتداء من عصر المعتصم ظهرت أسماء قواد الأتراك ، واستعان المعتصم بالأتراك كما رأينا على نطاق واسع .

ولا شك أن هذا الوضع مما أضعف العرب وأضعف الدولة العباسية تماماً وجعلها أسيرة في يد الموالي من الفرس أولاً ثم الأتراك بعد ذلك .

وكان هذا الوضع المتدهور لمركز العرب مجال اعتراض من عقلاء العرب في عصر المأمون ، فقد روى الطبري وابن الأثير أنه تعرض رجل عربي للمأمون بالشام مراراً وقال له : "يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، فقال له المأمون : أكثر علي يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت (قيساً) عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، فأما (اليمن) فوالله ما أحببتها قط ، وأما (قضاة) فسادتها تنتظر السفيناتي وخروجه حتى تكون من أشياعه ،

وأما (ربيعة) فساخطة على ربحا منذ بعث الله نبيه من مضر ، ولم يخرج اثبان إلا خرج أحدهما شارياً أعزب فعل الله ربك " (١) .

وهذا تصريح خطير من المأمون وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها ويخشى الخلفاء سطوتها قد ضعفت ، فاجترأ خليفة المسلمين بالجمهور بهذا القول في حقها على ملأ من الناس ، الأمر الذي يدل على عدم الثقة الكاملة في العرب ، ولما كان جيش الدولة هو الذي يُبذل على حقيقتها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة ، أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الانتهاء (٢) .

ولذلك كانت النتيجة الخطيرة هو عودة كثير من العناصر العربية إلى موطنها الأصلي بالجزيرة العربية بعد أن زاحمتها وعادتها العناصر التركية ، ونظر إليها الخلفاء العباسيون هذه النظرة من عدم الثقة ، فعادوا إلى الجزيرة العربية وانقطعت عنهم أرزاقهم التي كانت مرتبة لهم في ديوان الجند ، ولم يستبق هؤلاء شيئاً للزمن فلم تكن هناك يومئذ مجالات لتنمية أملاكهم التي سبق أن حصلوا عليها من الفتوح الإسلامية . ولم يعد لهم سوى حياتهم التي ألفوها قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، فعادوا إلى عاداتهم السيئة فيما يتعلق بالسلب والنهب والإغارة على بعضهم البعض ، وعلى الأخص الإغارة على الأماكن الحضارية في الحجاز .

والذي يتصفح ما كتبه الطبري وابن الأثير وغيرهما من الكتاب عن عصر الوائق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) يجد كثيراً من حوادث الإغارة من قبائل (بني سليم) و (بني هلال) و (بني نمير) و (فزارة) (٣) و (مُرّة) و (غطفان) و (طيء) و (بني ثعلبة)

(١) الطبري : ج ٨ ، ص ٦٥٢ ، وابن الأثير : ج ٥ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ . وهذا الكلام يعيد إلى الأذهان التعصب القبلي بأوضح صورة يوم أن قال رجل من بيعة لمسلمة الكذاب : "أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر " الطبري ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

(٢) الحضري ، الدولة العباسية ، ص ٢٠٣ .

(٣) الذي ينتمي إليهم "يزيد بن عمر بن هبيرة" الذي قتلته المنصور غدرًا بعد أن آمنه .

على بعضهم ، وعلى الأخص ما قامت به قبائل بني سليم وبني هلال من الإغارة على المدينة وعلى القرى والمناهل ^(١) ما بين مكة والمدينة مما سبب انقطاع الطريق ونشر الخوف في هذه الأماكن بعد أن أنعم الناس فيه زمناً طويلاً بالأمن والأمان منذ صدر الإسلام حتى عصر الوثائق ، ولم تكن تقع هذه الحوادث من قبل إلا في القليل النادر .

حوادث بني سليم وبني هلال :

فيذكر الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ٢٣٠هـ أن بني سليم ^(٢) تطاولت على مناطق حول المدينة بالفساد والشر ، وكانوا يدخلون الأسواق بالحجاز ويأخذون ما أرادوا ، ثم زاد شرهم عندما أوقعوا بناس من كنانة (منهم قحطانية قريباً من مكة ، ومنهم كنانة بطن من كنانة بن خزيمه من قريش) وباهلة (من قيس عيلان عدنانية) ^(٣) فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ ، وكان ينتزعهم في هذه الإغارات قائد منهم يسمى "عزيرة بن قطّاب السلمي" وكان عامل المدنية يومئذ هو "محمد بن صالح بن العباس الهاشمي" الذي طلب المعونة من الخليفة الوثائق ، فأرسل إليه "حماد بن جرير الطبري" في جماعة من الجند حوالي ٢٠٠ فارس لكي يحافظوا على المدينة من هجمات الأعراب ، وخرج حماد بمن معه من الرجال

(١) المناهل جمع منهل ، والمنهل هو المشرب والموضع الذي فيه المشرب والمرل يكون في المفازة ، وعلى ذلك فالمناهل أماكن الشرب وموارد المياه بالصحراء ، والناهلة المختلفة إلى المنهل (القاموس المحيط) .

(٢) بنو سليم ينتسبون إلى سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان من مضر من العدنانية وديارهم من وادي القرى إلى عالية نجد بالقرب من خير إلى شرقي المدينة وحرّة بني سليم وحرّة ليلي ، ونفاهم عبد الملك بن مروان مع بني هلال إلى غربي سيناء وبرزح السويس حيث عملوا خفراء للقوافل ، وكانوا يلجأون للسلب في فترات الفوضى ، ويفخر بنو سليم أنهم كانوا مع الرسول يوم (فتح مكة) ، وأنه قدم لواءهم الأحمر على الألوية ، ويفخرون أن عمر كتب إلى الكوفة والبصرة والشام ومصر أن ابعثوا لي من كل بلد بأفضله رجلاً ، فبعث أهل البصرة بـ "مجاهد بن مسعود السلمي" ، وبعث أهل الكوفة بـ "عتبة بن فرقد السلمي" ، وبعث أهل الشام بـ "أبي الأعور السلمي" ، وبعث أهل مصر بـ "معن بن يزيد بن الأخنس السلمي" . (انظر : ألفائف للزمخشري ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، وتاج العروس للزبيدي ، ج ٧ ، ص ١٥٩ ، وعمر رضا كحالة : قبائل العرب ، وياقوت في معجم البلدان ، وموريس لومبارد في الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ص ٣٠) .

(٣) نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ، القلقشندي .

ومن تطوع للخروج من القوات إلى الرويثة ^(١) ، وتقابلت بطلانع بني سليم عندها وهي على ثلاث مراحل من المدينة على الطريق بينها وبين مكة ^(٢) .

ومن بني سليم الخنساء الشاعرة ، وأخوها صخر بن عمرو بن الحرث ، ومنهم نصر بن حجاج الذي نفاه الفاروق عمر بن الخطاب عن المدينة لجماله خوفاً عليه من فتنة أهل المدينة به ، وخاصة بعد أن قالت (فريعة) أم الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت زوجة للمغيرة بن شعبة ، قالت في نصر شعراً تمنناه لنفسها :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ولذلك كتب عبد الملك بن مروان للحجاج في بعض كتبه الغاضبة يقول له

:"يا ابن التمنيّة ! " ^(٣)

وكانت بنو سليم يومئذ جاءوا من البادية في ستمائة وخمسين مع بعض الإعياداد التي أتتهم من أعلى الرويثة فاجتاحت بنو سليم هذه القوات وقتل حماد بن رعاة أصحابه ، وانهمزم الباقون ورجعوا واستولت بنو سليم على الغنائم التي كانت معهم ، واستباحوا القرى ما بين مكة والمدينة واشتد خطرهم على طرفي مكة والمدينة وأصبح هذا الطريق غير مأمون وانتشر شرهم إلى من يليهم من العرب .

فوجه إليهم الواصل قائد الكبير "بغا الكبير التركي" بقوات أكثر عدداً في شعبان ، واتجه إلى حرة بني سليم وأوقع بهم عند قرية لهم تسمى السوارقية ^(٤) كانوا يأوون إليها ، وقتل منهم نحواً من خمسين وأسر مثلهم ، ودعاهم بعد هزيمتهم إلى

(١) الرويثة : ماء لبني عجل بين طريق الكوفة والبصرة إلى مكة (ياقوت وبني عجل من بكر بن وائل عدنانية من ربيعة) (كحالة ، معجم قبائل العرب)

(٢) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٢٩ ، ويذكر ياقوت أن الرويثة على ليلة من المدينة ، ج ٩ ، ص ١٠٥ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٦١-٢٦٣

(٤) السوارقية : قرية لبني سليم نجدية بما سوق لبني سليم يأتيه التجار من الأقطار ، وفي مائها بعض الملوحة ، وأهلها بادية حولها ويمرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحج وبعضهم ثابتون وهم من ولدوا بها . (ياقوت: معجم البلدان) .

الأمان على حكم أمير المؤمنين الواثق ، وأخذ منهم جماعة ممن وصفوا بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل ، وسار بهم إلى المدينة فحبسهم بها .

وكان منهم بنو هلال من مضر ، كانوا يقطنون قحاة الحجاز ومناطق من نجد وحول مكة وفي بسائط الطائف ، وأجلاهم عبد الملك بن مروان إلى غرب سيناء وكانوا يعملون هم وبنو سليم في حماية القوافل ، وعندما غزا القرامطة الشام كانوا معهم واستقرت بعض بلوهم بالشام وأقاموا إلى أن غزا الفاطميون الشام وقدموا خدماهم للفاطمين وتعاونوا معهم فانتقل بعضهم إلى مصر ، ثم خرجوا من مصر إلى أفريقيا للقضاء على المعز بن باديس الصنهاجي مع بني هلال أيام المستنصر الفاطمي (٤٣٣هـ) .

وديارهم بالحجاز بين قحاة ونجد .

منهم : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية .

ومنهم : أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بنت الحارث بن عبد الله الهلالية .
في حياة الرسول .

ومنهم : لبانة الصغرى أم عبد الله بن العباس ، ولبانة الكبرى أم خالد بن الوليد .
توجه بغا التركي إلى "بني هلال" بعد عودته من الحج ، فأخذ من أشقيائهم نحو ٣٠٠ رجل عند مكان يسمى "ذات عرق"^(١) وحبسهم في المدينة مع من حبس من بني سليم ثم قتل أهل المدينة المحبوسين من بني سليم وبني هلال لأنهم حاولوا الفرار ف وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة ، فقتلهم عن آخرهم وفيهم زعيمهم "عزيرة بن قطاب السلمي" ، وكان (بغا) غائبا عن المدينة لمحاربة جماعة من (فزارة) و (مُرة) كانت قد هجمت بدورها على (فدك) ، لما عاد علم بقتلهم فشق ذلك عليه .

وتابع (بغا) هجومه على (فزارة) و (مُرة) ، فتوجه إليهم فهربوا من وجهه وظفر ببعضهم واستأمن البعض الآخر ، وهرب الباقون مع رئيسهم (الركاض) إلى

(١) ذات عرق في طريق العراق بين قحاة ونجد ، وعرق جبل مشرف على ذات شرق في طريق العراقيين إلى مكة . (بافزرت معجم البلدان) ، وذات عرق ميقات أهل العراق والمشرق .

البلقاء من أعمال دمشق عند أطراف البادية ، وظل (بغا) يتابع أعماله في بطون غطفان وفزارة وطيء وبني ثعلبة وبني غنم وبني كلاب ، وأخذ من هؤلاء وهؤلاء كثيراً من الأسرى الذين يشيعون الفساد في الأماكن الحضرية بالحجاز .

وظل (بغا) يجمع أهل الجزيرة حتى وفاة الواصل سنة ٢٣٢هـ ، وكانت أشد حروبه مع "بني غنم" الذين زاد عبثهم وفسادهم في الأرض وإغارتهم على الناس وخاصة أهل "اليمامة" وما قرب منها ، حيث توجه إليه بغا فلقى جماعة منهم بموضع يقال له "الشريف" ^(١) ، فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسر منهم أربعين رجلاً ، ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى "مرأة" ^(٢) وأقام بها ودعاهم إلى السمع والطاعة وعرض عليهم الأمان ، وهم يمتنعون ويشتمون رسله ، فتقدم إليهم فحملوا على (بغا) وجنده ، وكاد يهزم لولا مجيء مدد أنقذه فهزموا وولوا هاربين وأسر منهم عدداً كبيراً وقتل البعض الآخر وهرب فرسانهم وتركوا مشاقمهم يلاقون حتفهم ^(٣) .

وكان مجموع ما أسره (بغا) من القبائل وعاد بهم إلى سامرا سوى من قتل وهرب ٢٢٠٠ رجل ^(٤) .

ومع إهمال العرب في شئون الدولة العباسية فإنها (أي الدولة) أهملت أيضاً الطرق المؤدية إلى الحرمين الشريفين على أيام الأمين والمأمون والمعتصم والواصل ، لدرجة أن الواصل أراد أن يحج في عام ٢٣١هـ فلم يستطع ، لأن بعض عماله (عمر بن فرج) أخبره بقلة الماء في طريق الحج ، فأعرض عن الحج ^(٥) ، وفي سنة ٢٣٢هـ

(١) الشريف : تصغير شرف ، وهو الموضع العالي ، والشريف ماء لبني كُمَيْر ، وتنسب إليه العقبان ، ويقال إنه سرقة بنجد وهو أمراً نجد موضعاً ، وأرض بني غير الشريف دارها كلها بالشريف إلا بطناً واحداً باليمامة يقال لهم بنو ظالم بن ربيعة بن عبد الله ، وقال آخر : الشريف : واد بنجد لما كان عن يمينه هو الشرف ، وما كان عن يساره فهو الشريف ، فما كان مشرقاً فهو الشريف وما كان مغرباً فهو الشرف . (ياقوت)

(٢) امرأة بلفظ المرأة من النساء : قرية بني امرئ القيس بن زيد مائة بن تميم باليمامة بينها وبين ذات غسل مرحلة

(٣) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٤٦-١٥٠ ، وابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ .

(٥) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٤٠ .

أصاب الجحاج عطش شديد لدى رجوعهم من الحج ، فبلغت الشربة الواحدة عدة دنائير ، ومات من العطش كثير من العائدين من الجحاج ^(١) .

وتكررت حوادث العطش هذا في السنوات التالية بعد ذلك ، ويذكر ابن الأثير أن الأمر بلغ إلى غاية من السوء لدرجة أن الجحاج في حج عام ٢٩٥هـ في عودتهم مات منهم خلق كثير ، وحكى أن أحدهم كان يبول في كفه ثم يشربه ^(٢) . وكان يجب على الدولة الاهتمام بالآبار وأحواض المياه التي أنشأها الخلفاء المنصور والمهدي والرشيد لاستمرار نفعها ، ولكنها أهملت وأهملت الطرق تماماً مع إهمال الدولة العرب فأصبحت الطرق غير آمنة .

قهر شخصية العرب :

ومن ناحية أخرى فقد كان لهذه الحوادث أثرها السيئ في نفسية العرب حيث أضعف نفسية العرب أمام الأتراك ، ذلك لأن أخذ العرب بالآلاف أسرى في يد الأتراك إلى سامرا من المشاهد المؤلمة التي أثرت في نفسية العرب ، ويغلب على الظن أن الأتراك كان هدفهم منها قهر شخصية العرب ، لأنهم بالغوا في الانتقام منهم في هذه الهجمة التي لم تحدث منذ صدر الإسلام ، وعلى الرغم من أن الطبري يذكر أنها كانت بسبب اعتداءات الأعراب على غيرهم في المدينة وعلى الطريق بين المدينة ومكة وعلى غيرهم من القبائل ، إلا أن هذه الأخبار ربما بولغ فيها ، وخاصة أن الطبري ليس شاهد عيان لها ، وإنما نقلت إليه وسجلها عن رواية غيره .

ويغلب على الظن أيضاً أن هذه الحركات التي حدثت من بعض القبائل كانت للإعراب عن غضبتهم من هيمنة الأتراك على الخلافة ، فلما واجهتهم الدولة العباسية بالأتراك زادوا من حركاتهم وغضبوا وأعلنوا عن تمردهم ، وسوف نرى أنهم سيضعرون أنفسهم في خدمة أي حركة أو قوة معادية للدولة العباسية وعلى سبيل

المثال اشتركت بنو سليم وبنو هلال مع القرامطة في غزو الشام واستقرت بعض بطونهم في الشام ، وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هلال وبنو سليم بالفاطمين وتعاونوا معهم وقدموا إليهم خدماتهم فنقلهم الفاطميون إلى مصر ، وعندما قطع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطمين في أفريقيا قرر الفاطميون توجيه قوة بنو سليم وبنو هلال إليه في سنة ٤٤٣ هـ وكتب الوزير السيازوري وزير المستنصر الفاطمي إلى ابن باديس يقول : "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا إليكم رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً" (١) .

المسئولية :

وعلى العرب يقع جانب من المسئولية في إنهاء سلطتهم ومشاركتهم في شئون الدولة العباسية ، والمسئولية تشمل الراعي والرعية ، وأعني بالراعي الخليفة العباسي الذي فرط في جمع شتات هذه القوة التي سبق أن حققت بتماسكها العزة والمنعة وبسلام على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، والخليفة العباسي راعي وهو مسئول عن رعيته ، وبقدر ما أتاح الفرصة للعناصر الأخرى للمشاركة في أوضاع الدولة لتحقيق المساواة التي كانوا يطلبونها كان عليه أن يحافظ على الكيان العربي والقوة العربية التي هي الأصل وما عداها هي الفرع ، وكان عليه أن يوجه هذه القوة إلى ساحات الجهاد مع أعداء الإسلام .

وأما الرعية فهم العرب جميعاً الذين تنازعوا واختلّفوا إلى عرب شمال وعرب جنوب وشامية ومضرية ، وعرب الشمال إلى مضرية وربيعية ، والمضرية إلى قرشيين وغير قرشيين ، والقرشيين إلى أمويين وهاشميين ، والهاشميون إلى علويين وعباسيين ، والعلويون إلى فرق لا تحصى من الشيعة الزيدية الاثني عشرية والإسماعيلية وهلم جرا، إلى غير ذلك من الخلافات التي قضى عليها الإسلام ، ونبه على خطورة العودة إليها والتي تؤدي إلى الفشل ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم... (الأنفال :

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٥١٦ ، وابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٦٢ ، والمقريزي : إيعاظ الخفاء ج ٢ ، ص ٢١٦ .

آية ٤٦) ، ومن منطلق قوله تعالى : ﴿ ذلِكَ بِأَن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الأنفال: آية ٥٣) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد : آية ١١) .

عمان

عمان من الأقاليم الإسلامية الهامة التي لعبت دوراً في تاريخ الإسلام ، فيما يتعلق بنشره فيما وراء البحار سواء في شرقي أفريقيا أو في الهند أو في جنوب شرقي آسيا ، ودولة عمان كانت في الماضي تشمل ما يعرف اليوم بدولة الإمارات العربية المتحدة التي شغلت جزءاً هاماً منها الآن وهو الساحل العماني على الخليج العربي ، وانفصل عنها هذا الجزء بالأعيب الاستعمار الإنجليزي في الخليج العربي وأطلقوا على هذا الساحل الذي فصلوه من عمان (الساحل المهادن) أو (ساحل الصلح) ، فعمان قبل أن تفقد هذا الجزء كانت تقع على الخليج العربي أيام أن كانت تشمل دولة الإمارات وتكونت من هذا الجزء المنفصل مؤخراً دولة الإمارات المتحدة وهي مكونة من عدة إمارات هي: ١- أبو ظبي ٢- دبي ٣- الشارقة ٤- أم القيوين ٥- عجمان ٦- رأس الخيمة ٧- الفجيرة .

ويدخل فيها أيضاً إقليم "ظفار" على البحر العربي في الجنوب وعاصمتها في الداخل (نزوى) وانتقلت الآن إلى مسقط على البحر العربي .

وتقع عمان في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية وتمتد شمال بحر العرب إلى أن تصل إلى قطر هذه هي حدودها في الماضي قبل اقتطاع دولة الإمارات العربية المتحدة منها ، ويحدها اليمن في الغرب والسعودية من الشمال والغرب . وسكانها خليط من عرب الشمال الزارية ويطلق عليهم في عمان (الغافرية) ، ومن عرب الجنوب التحطانيين الذين يسمون بالأزد ويطلق عليهم في عمان (الهناوية) ، وبها خليط وافد من الأفارقة والهنود والفرس .

وينقسم السكان إلى طائفتين متميزتين: هما الحضرة والبدو.

فأما الحضرة: فهم الذين يسكنون الساحل وبخاصة "مسقط" و"صحار" و"قريات" و"صور" وغيرها من مدن الساحل وهؤلاء هم الذين يجمعون خليط السكان الوافد من أفريقيا وإيران والهند.

أما البدو: فيعيشون في المناطق الداخلية وهم أكثر فطرة وبساطة وهم شديدو المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم^(١).

وتنقسم عمان إلى عدة مقاطعات : منها مقاطعة الباطنة: التي تطل على خليج عمان الى الشمال من مسقط وهي سهل خصيب ، ومقاطعة عمان: وهي المقاطعة الداخلية وتضم الجبل الأخضر كما تضم المناطق المحيطة بهذا الجبل والتي توجد بها العواصم القديمة والمدن الشهيرة مثل (نزوى) و (الرساق) و (سمائل) والمقاطعة الشرقية: وأهم نواحيها المضبي ووادي بنى خالد ومقاطعة جعلان: واسمها مشتق من اسم سكانها القدامى وأهمها بلاد بنى بوحسن وبوعلي وصور ومقاطعة ظفار الجنوبية: وتتألف من سهل ساحلي منبسط تحاذيه الجبال وتتبعها عدة جزر مواجهة للساحل في البحر العربي وهي جزر (كورياموريا) و (مصيهره) و (جزيرة الغنم) وتقع عند مدخل مضيق هرمز^(٢).

وعمان تقلب اسمها على مر الزمن بين (مسقط) و (عمان) وكان اسم عمان هو الغالب في الماضي ، ولما انتقلت عاصمة البلاد من الداخل إلى الساحل واختيرت مسقط لتكون العاصمة سميت البلاد سلطنة عمان ومسقط وكانت الإمامة في الداخل ومقرها نزوى والسلطنة على الساحل ومقرها مسقط وهذا هو الذي عرض البلاد للتقسيم في فترة من الفترات ، الإمامة في الداخل والسلطنة على الساحل ، وأخيرا قام السلطان قابوس بتوحيد البلاد فجعل لها سلطنة عمان وجعل العاصمة مسقط وهذا هو الوضع الذي استقر مؤخراً.

(١) عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص ٤٤٣ ، د . أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، ج ٧ ، ص ٢٧٤ .

(٢) د . أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج ٧ ص ٢٧٤ ، عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص ٤٤٣

وتعد مسقط الآن أعظم الموانئ على خليج عمان ، ونشاطها التجارى واسع مع الهند وأفريقيا وجنوب شرقى آسيا وبلاد فارس وغيرها من بلاد العالم ومن الموانئ المهمة أيضا (صحار).

وكانت "صحار" في الماضى هى العاصمة وتقع على البحر في خليج عمان كما ذكر ذلك "الاصطخرى" و"ابن حوقل" ، كما كانت "الريستاق" في الداخل عاصمة لعُمان في يوم من الايام في الفترة من (١١١٢-١١٩٧هـ) هذا بالإضافة الى (نزوى) كما سبق أن ذكرنا التي كانت عاصمة لعُمان نحو ألف عام .

عمان في صدر الاسلام :

كان الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعى أهل عمان الى الاسلام فاستجابوا فأقر أبناء الجلندى من الأزدي على عمان (جيفر وعبد) وهم كانوا حكاماً فظا آل الجلندى في ناحيتهم على الطاعة والسكون طوال العصور. الاشداء والاموى وعقب النزاع الذي دار بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان نشأت فرقة الخوارج واتجه أكثر الخوارج الى المناطق النائية في العالم الاسلامى في اليمن وشمال أفريقيا وعمان وسجستان وكرمان ومنذ ذلك التاريخ أصبحت عمان مركزاً للخوارج فلما آل أمر الخلافة الى بنى أمية أعلن الخوارج عداوتهم لمعاوية وأصبحت عمان أهم مركز لهم ووجد أهل عمان في ذلك فرصة لإعلان استقلالهم وساعدتهم على ذلك أن بلادهم في الطرف الجنوبي من الجزيرة العربية .

وعلى ايام الحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق حاول الحجاج بسط سلطانه على عمان وقام صراع طويل بين جيوش الحجاج وأهل عمان وانتصر الحجاج في نهاية الامر وفر زعماء أسرة الجلندي من وجه الحجاج الى بلاد الزنج (زنجبار) واضعين أساسا لدولة في أفريقيا .

ولاشك أن سكان عمان اتخذوا مذهب الخوارج وسيلة لإعلان استقلالهم عن الدولة الاسلامية في دمشق ، وكان يقودهم في البداية (نافع بن الأزرق) و (قطرى بن

الفجاءة) و (عبد الله بن إباح) لكن أكثرهم اتباعا هو عبد الله بن إباح ولذلك نسب إليه مذهب العمانيين فقالوا عنهم (الإباحية) ، وأهل عمان يكرهون أن يطلق عليهم خوارج لأنهم لا يريدون أن يرتبطوا بجماعة خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه ويفضلون أن يرتبطوا بعبد الله بن إباح الذي خرج على عبد الملك بن مروان ، وهم معتدلون في المذهب ، ولذلك يقول الدكتور أحمد شلبي بأن المذهب الإباحي في طبيعته أقرب مذاهب الخوارج إلى أهل السنة ، وهم يعتبرون أنفسهم ورثة للفكر الاسلامي الأصيل الذي جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد شرح مذهبهم هذا بتوسع المؤرخ العماني (عبد الله السالمى) في كتابه (تحفة الأعيان) ج ١ ، ص ٦٠-٦٦ .

والعمانيون يختارون الامام ممن تتوفر فيه شروط القوة والعلم والعدالة والفضل والورع ولا يشترط أن يكون من قريش ولا من العرب ، وهذا الرأي في البداية هو رأى الانصار عندما تناقشوا في ثقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخذ بهذا الرأي بعد ذلك الخوارج مثل (قطرى بن الفجاءة التميمي) ويستندون في رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن الكريم وبينتها السنة الشريفة وهى أن التقوى أساس التفاضل بين الناس قال تعالى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : " ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى " ، لكن القرشيين وعلى رأسهم المهاجرين تمسكوا بقول أبي بكر الصديق : " الأئمة من قريش " وشاع بين المسلمين أن هذا حديث شريف وإن كان كثير من المؤرخين يرفض هذا الحديث ويجعله قولاً من أقوال أبي بكر يقصد به الأئمة من قريش يعنى لأن قريش أقوى القبائل ، وخاصة أن هناك فريق ثالث يرى تخصيص الخلافة بترابرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم شيعة على بن أبي طالب ويتمسكون أن الخلافة يجب أن تكون في آل البيت أى تنحصر في اسرة معينة ولا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة

ويرون أن تكون الخلافة لعلی ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة ويدعون أن رسول الله أوصى لعلی بالخلافة وهو أمر لم يثبت^(١).

عمان في العصر العباسي :

واستعاد أهل عمان سلطتهم كاملاً على أيام الدولة العباسية ، فقد انتهز خوارج عمان الثورة العباسية وانقلابها على الأمويين وخرج (الجلندي بن مسعود الأزدي على طاعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٤هـ فأرسل إليهم العباسيون جيشاً يقوده (خازم بن خزيمه) فهزمهم ودخل (نزوى) عاصمة آل الجلندی وقتل الجلندی بن مسعود الأزدي .

وبعد عودة الجيش العباسي انتهز خوارج عمان الفرصة وفرضوا سلطتهم على عمان بزعامه (محمد بن عبد الله بن أبي عفان الأزدي) حوالي سنة ١٤٥هـ واستمرت إمامتهم في هذه النواحي أربعة قرون ، ولم يبذل العباسيون أى جهد يذكر للقضاء عليها.

وحاول القرامطة إقتحام عمان سنة ٢٨٦هـ ولكن الامامة الإباضية صمدت أمامهم واستمرت كما حاول البويهيون التدخل في شئونهم ولكنهم فشلوا أيضاً^(٢) . وينقسم تاريخ عمان الى خمس فترات تاريخية :

١- فترة حكم الولاة من الدولة المركزية الإسلامية على أيام الراشدين والأمويين، وامتدت حتى سنة ١٣٥هـ .

٢- فترة الأئمة الإباضية ١٤٥-٩١٣هـ (٧٥٢-١٥٠٧ م) .

٣- عصر الاحتلال البرتغالي من ٩١٣هـ-١٠٣٤هـ (١٥٠٧-١٦٢٤م) .

٤- فترة الأئمة من بني يعرب من سنة ١٠٣٤-١١٥٤هـ (١٦٢٤-١٧٤١م) .

٥- فترة سلاطين البوسعيد من ١١٥٤هـ (١٧٤١م) إلى الوقت الحاضر .

(١) د . حسن ابراهيم وأخيه على ، النظم الإسلامية ، ص ٩ .

(٢) د . حسين مؤنس ، الأطلس الإسلامي ، ص ٢٠٦ .

وقد تميزت الفترة الثانية وهي فترة الأئمة الاباضية بكثرة الصراع على الامامة وظهرت فيها أسرة (آل نبهان) الذين كونوا لهم ملكاً عدة قرون ولكن سلسلتهم لم تكن منتظمة وأحياناً تعددت الأئمة في وقت واحد وأحياناً خلت البلاد من وجود الأئمة تماماً ، وكان أول إمام لهم هو (الحواري بن مطرف) سنة ٢٩٢هـ .

وأهم ملوك بني نبهان هم : (أبو عبد الله محمد بن عمر بن نبهان) و (الفلاح بن المحسن النبھاني) و (عرار بن الفلاح) وظلت حركة بني نبهان حتى القرن التاسع الهجري ، وبعد ذلك ظهر الأئمة من اليعاربة .

الاحتلال الأجنبي :

في نهاية فترة حكم آل نبهان سادت الفوضى وكثر الأئمة من (آل نبهان) ومن غيرهم ، فضعفت بلاد عمان فأصبحت تغرى الأعداء بالهجوم عليها فحدث هجوم عليها سنة ٦٧٤هـ من بلاد فارس ، فقد هاجم أهل شيراز عمان واحتلوا (نزوى) لكنهم لم يستطيعوا الاستقرار في البلاد ، وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي أتى الاستعمار البرتغالي الى عمان ، وفي البداية حاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز لهم للتموين فأتجهوا الى مواني عمان التي كانت مراكز تجارية نشطة فأحتلوا (صور) و (قريات) و (مسقط) و (صحار) سنة ١٥٠٧م وكانت القوات البرتغالية بقيادة (البوكيرك) الذي دمر سفن مسقط ومبانيها وبدأوا في إقامة القواعد والقلاع لتدعيم مركزهم وسيطرتهم على هذه المواني الاستراتيجية ذات الموقع الملاحى الممتاز ، واستولى البرتغاليون كذلك على (خليج عمان) وعلى جزيرة (هرمز) في مدخل الخليج العربي سنة ١٥٠٧م ، وبدأ الصراع الطويل بين العمانيين والبرتغاليين الذي قادته الأئمة اليعاربة الذين حكموا من سنة ١٠٣٤هـ الى سنة ١١٥١هـ (١٦٢٤ - ١٧٣٨م) .

فترة اليعاربة :

أصل اليعاربة من العرب الشماليين المعروفين بالترارية المعروفين في عمان باسم : (الغافرية) وكانت قبيلتهم قبل ظهور الزعيم (ناصر بن مرشد) قبيلة عادية من قبائل عمان فلما حدثت النزاعات الداخلية والاستعمار الخارجي ظهر (ناصر بن مرشد) وقاد قبيلته للدفاع عن البلاد وتم تعيينه إماماً في سنة ١٠٣٤هـ (١٦٢٤م) ، وبدأ في توحيد البلاد تحت قيادته والقضاء على حكام المناطق الخارجة عن طاعته وأتجه بعد ذلك لمحاربة البرتغاليين الذين دامت سيطرتهم أكثر من مائة عام ، وساعدته ظروف خارجية وهي أن دولة البرتغال سقطت تحت سلطان أسبانيا فيما بين سنة ١٥٨٠م و ١٦٤٠م وحاولت أسبانيا أن ترث الاستعمار البرتغالي في الشرق ومن هنا ضعف حماس البرتغاليين تحت الحكم الأسباني مما ساعد الحركات التحررية في المستعمرات البرتغالية على أن تنجح في وقت ظهرت فيه (هولندا) و (بريطانيا) كمنافس علمي الاستعمار ، وقام صراع طويل بين الدول الاستعمارية أضعف البرتغاليين فساعد ذلك العمانيين على التخلص من البرتغاليين وساعد عمان كل من (الإنجليز) و (الفرس) ضد البرتغاليين .

وبعد هزيمة البرتغاليين في هرمز بدأ (ناصر بن مرشد) يطرد البرتغاليين من بلاده في (مسقط) و (صحار) و (مطرح) ، وبعد وفاة ناصر تولى الإمامة بعده ابن عمه سلطان بن سيف ، وكان سلطان عوناً لابن عمه في أثناء حكمه ولهذا استمر النضال في عهده ضد البرتغاليين ، فتم طردهم من (مسقط) و (مطرح) سنة ١٦٥٨م ، وبدأ يتبعهم في المراكز الاستعمارية الأخرى التي أنشأوها في شرقي أفريقيا وعلى الأخص في (زنجبار) و (الصومال) على الرغم من أنه لم يكن له مطامع في الصومال ، واتجه بعد ذلك الى تعمير بلاده وتجديد القلاع والحصون للحفاظ على استقلال البلاد واهتم بالتجارة ، وكانت عمان قوة موحدة خلال هذا الصراع .

وبعد موت سلطان سنة ١٠٧٩هـ دب الخلاف بين أبنيه (بلعرب) و (سيف) وكان (بلعرب) أكبر سنًا فأخذ مكانة أبيه لكن نازعه أخوه سيف وقام صراع كبير بينهما لكن مات (بلعرب) فخلا الجو لسيف بن سلطان ، وهكذا كلما حقق العرب بعض الانتصارات وهدأت أجوالهم . على الجبهة الخارجية بدأوا في النزاعات الداخلية التي تضعفهم وتنال من قوتهم أكثر مما يناله أعداؤهم منهم ولهذا يعلق الدكتور أحمد شلبي على هذه الظاهرة التي تتكرر في التاريخ العربي فيقول :

" وهذه الحادثة تكررت في التاريخ العربي في مختلف العصور ، فإن العرب تجتمع كلمتهم عند الشدائد ، فإذا حققوا نصراً بسبب وحدتهم أسرعوا إلى الفرقة والخلاف ، وكان جديراً بهم أن يجنوا ثمار تعاوهم في تعاطف وابتهاج ، ولم ينل الإعداء من العرب أكثر مما نالوا هم من أنفسهم " (١) .

وأثناء الصراع بين سيف وأخيه تمكن البرتغاليون من احتلال الجزر المواجهة لساحل الصومال . صام سيف بن سلطان باسترداد هذه الجزر واستولى سنة ١٦٩٨م على (منباسا) في شرق أفريقيا التي كانت تعد عاصمة المستعمرات البرتغالية في شرق أفريقيا بعد حصار دام ٣٣ شهراً ، وبعد سقوطها انتهى تفوق البرتغاليين في شرق أفريقيا .

ولما أصبحت هناك أملاك للعمانيين في آسيا وأفريقيا كان من الواجب إنشاء أسطول كبير لحماية مستعمراتهم الجديدة في شرق أفريقيا لكي يستطيعوا بهذا الأسطول أن يناوئوا الأساطيل الأخرى الإنجليزية والفرنسية والهولندية في البحار الشرقية ، ومن ثم بلغ عدد سفن الأسطول ثمانية وعشرين سفينة كبيرة يحمل بعضها ثمانين مدفعاً مما يدل على تقدم عمان في فن الملاحة وتسليح السفن (٢) .

(١) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، ج٧ ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

كما أنشأ اليعاربة جيشاً جراراً ضم حوالى (٩٠ ألف مقاتل) وشيدوا القلاع والحصون واهتموا بالزراعة وشقوا مجارى المياه المسماة بالأفلاج .

وهناك عدة عوامل ساعدت العمانيين في هذه الفترة ، ونجحوا بفضلها في إجلاء البرتغاليين عن سواحل عمان وشرق أفريقيا وهى : قوة عرب عمان وتفوقهم في الملاحة البحرية ، وضعف البرتغاليين في هذه الفترة ، بالإضافة الى أن البرتغاليين في هذه الفترة كانت لهم مراكز تجارية فقط ولم يتوسعوا إستعمارياً في هذه المناطق ، وإنما كان إنشاء قواعد تجارية لهم لضمان سلامة الطريق البحرى بين لشبونة والهند ، فضلاً عما أنتهجه البرتغاليون في حكمهم من أساليب عنيفة أتصفت بالاستبداد والجور فأثارت الناس عليهم .^(١)

ولا شك أن العمانيين أستفادوا من تجربة البرتغاليين في الربط بين شرق أفريقيا وساحل عمان ، ونشأت لديهم فكرة إنشاء دولة في شرق أفريقيا وسواحل عمان مركزها في زنجبار وهذا المشروع هو المشروع الذى سينفذه فيما بعد (آل بوسعيد) الذين تولوا الحكم في عمان بعد اليعاربة .

البوسعيد (١١٥٤هـ = ١٧٤١م) :

يرجع أصل البوسعيد الى القحطانيين المعروفين في عمان (بالهناوية) فقبيلتهم هاجرت من اليمن الى عمان ، وأول حاكم لهم كان هو (أحمد بن سعيد) الذى كان في البداية مستشاراً لآخر حكام اليعاربة (سيف بن سلطان) وكان خبيراً بالتجارة والاقتصاد، وبذلك بدأ (أحمد بن سعيد) طريقه الى المجد والشهرة وعهد إليه (سيف بن سلطان) بإدارة ميناء (صحار) وهو الميناء الهام من الناحية التجارية ، وفي غضون ذلك تصارع (سيف بن سلطان) و(سلطان بن مرشد) على الحكم ومات الرجلان أثناء الصراع فأتاحت الفرصة لأحمد بن سعيد لكى يرث حكم اليعاربة وتصدى لأطماع الفرس في بلاده وقضى عليهم وبايعه العمانيون بالإمامة سنة ١١٥٤هـ (١٧٤١م) .

(١) د . جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، ص ٢٢ .

غير أن لقب الإمامة لم يطل بقاءه في بيته وإن أكثر قادة هذه الأسرة قنعوا بلقب (السيد) بدلاً من الامام وذلك لأن العمانيين كانوا غير مقتنعين به إماماً عليهم لأنه تغلب على الأمر بعد فتنة ولم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة^(١) ، وأيما كان الأمر فإن (أحمد بن سعيد) أسس أسرة حاكمة في عمان هي (أسرة البوسعيد) في سنة ١٧٤١م .

وتعرضت دولة البوسعيد للأخطار من الداخل والخارج :

فمن الداخل : كان الزعماء الإباضية غير معترفين بإمامة أحمد بن سعيد ، وقام هؤلاء الزعماء يعارضون سلطة حكام الدولة داعين الى إحياء الامامة الإباضية . فبعد الله السالمى صاحب كتاب "تحفة الأعيان بسيرة آل عمان " يقول : " إن أهل العلم لم يروا صحة بيعته لأنها كانت على غير مشورة من المسلمين ، وأن اسم الامامة قد ثبت له عند الخاص والعام إسمًا دون حكم فأولاده يقال لهم أولاد الامام " كما يطعن السالمى أيضاً في عقد البيعة بقوله : " إنه كان عقداً بعد فتنة وتغلب على الأمر " ، وعلى ذلك لم يتوافر في ذلك العقد الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة^(٢) .

وحاول (أحمد بن سعيد) تقوية مركزه عن طريق زواجه من ابنة الامام (سيف بن سلطان) اليعربي الامام السابق له لكي يوجد صلة نسب بين الأسرة السابقة وبين أسرته التي ينحدر أغلبها من التجار الذين لم يمارسوا أى نوع من أنواع الحكم والنفوذ ، ومع ذلك ثار اليعاربة عليه ، وكان منهم (بلعرب بن حمير اليعربي) الذى أبده الغافرية (عرب الشمال) .

(١) المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٣٣٥ .

(٢) السالمى : تحفة الأعيان ، ج ٢ ص ١٦٢-١٦٣ والسالمى من أهم المراجع العربية في تاريخ عمان من وجهة نظر الامامة الإباضية طبع القاهرة سنة ١٣٣٠هـ في جزئين ، جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد ، ص ٤٧ .

لكن أحمد بن سعيد استطاع أن يتخلص من منافسة بلعرب كما تخلص من منافسة أحد أبناء سلطان بن مرشد الذي حاول أن يعقد الامامة لنفسه بعد وفاة أبيه^(١).

ومع ذلك فإن (أحمد بن سعيد) ترك لليعاربة شيئا من النفوذ في داخل عمان ، فظلوا يمارسون سلطاتهم المحلية الاقطاعية ، في الجبل الأخضر . وفي مطلع القرن التاسع عشر زاد اهتمام البوسعيد بالخارج وتركوا الداخل ، وركزوا سلطاتهم في (مسقط) وفي شرق أفريقيا ، ولم يهتموا بالتأييد الديني لسلطتهم ، وإنما اعتمدوا على التأييد من حلفائهم الانجليز ، وشغلوا أنفسهم بالشئون التجارية ، وتلقبوا بلقب سلطان ، الى جانب الامامة التي كانت في (الرستاق) في الداخل .

ومن هنا بدأ الصراع بين الامامة والسلطنة ، وفي عهد حامد بن سعيد (١٧٧٩ - ١٧٩٣م) تم نقل العاصمة الى (مسقط) واصبح لدولة عمان علاقاتها مع الاجنبية فيما وراء البحار . واصبح لهم دخل كبير من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية .

وفي عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦م) زادت علاقة الدولة بالانجليز ، واصبح سعيد في تحالف معهم ويستمد منهم القوة للبقاء في الحكم ، ولا يهتم بلقب امام ، وأغدق على نفسه لقب سلطان ، ولما كان التأييد له من الداخل ضعيفا بدأ يعتمد على الجنود المرتزقة في جيشه من عناصر (البلوش) و (الزيجلوس) من السند وسواحل مكران ، وقد عرفت هذه العناصر بشجاعتها في القتال وولائها للحكام بشرط أن تجد ما يكفيها من رواتب ، واسلاب ولا يزال الجيش الرسمي للسلطنة يعتمد عليهم حتى الآن .

(١) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

وكان البوسعيد يفرضون رسوما جمركية على البضائع التي تأتي من الخارج مقدارها ٥% من قيمة البضائع الأجنبية وكانوا يجنون ٥ ، ١% على تجارة المرور (الترانزيت) وهى التجارة العابرة من الخليج وإليه . بالإضافة الى دخلهم من ممتلكاتهم في شرق أفريقيا ، ودخلهم الخاص من أملاكهم الخاصة في عمان . وكان لهم دخل أيضا من صيد اللؤلؤ واستخراجه .^(١)

وتعرضت دولة عمان في نهاية القرن الثامن عشر للغزو الوهابي ، فقد حاول الوهابيون نشر دعوتهم السلفية في عمان وكان عرب الشمال من (الغافرية) أكثر استجابة لها من عرب الجنوب القحطانيين (الهناوية) الذين هم أكثر تمسكا بالمذهب الإباضى ، ولعبت النزعة القبلية دورا كبيرا في انقسام البلاد ، فأصبح الغافرية في الغالب من أهل السنة ، والهناوية إباضية^(٢) .

لذلك عاش الزعماء الدينيون في الداخل من عمان غير معترفين بسلطة حكام البوسعيد. رددت حقل تاريخ الدولة بصراع عنيف بين حكامها من ناحية وبين المتمسكين بالإمامة الإباضية من ناحية أخرى ، وكانت بريطانيا تتدخل بطريق غير مباشر، وأحيانا بطريق مباشر لمساندة حلفائها من سلاطين البوسعيد^(٣) الذين تحالفوا مع سلاطين الدولة .

أما في الخارج : فقد عاصرت دولة البوسعيد في سنواتها الأولى الصراع الإنجليزي الفرنسي الذي كان قد وصل إلى أقصى مدى له في البحار الشرقية بصفة عامة والبحار العربية بصفة خاصة ، ولذلك حرص حكام البوسعيد محافظة منهم على استقلالهم ، على استغلال التنافس القائم بين الدولتين تأييدا لمركزهم وضمانا لإبقاء نفوذهم .

(١) د . جمال زكريا ، ص ٥٧ - ٥٩ .

(٢) د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ٥٠ .

(٣) د . جمال زكريا لاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٧م ص المقدمة .

وظل سلاطين البوسعيد خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ،
والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر يتأرجحون بين صداقتهم لفرنسا من ناحية
وصداقتهم لبريطانيا من ناحية أخرى ، ومحالفة إحداهما أحيانا أخرى إلى أن حدد
سقوط المستعمرة الفرنسية في جزيرة موريس في عام ١٨١٠م مستقبل دولة البوسعيد
في علاقتهما بالإنجليز الذين انفردوا منذ ذلك التاريخ بالسيطرة على بحار الشرق ،
وبالتالي السيطرة على حكام البوسعيد^(١) .

وساعدهم على ذلك انشغال فرنسا بالحروب النابليونية في أوروبا ، فتمكنوا من
تحطيم النفوذ الفرنسي في تجارة الشرق وانتزعوا من فرنسا معظم مستعمراتها في الهند
وبعض المراكز التي كانت لها في بحار الشرق^(٢) .

بداية اتصال العرب بشرق أفريقيا :

ترجع صلة العرب بشرق أفريقيا الى النصف الثاني من القرن الأول للميلاد
كما يذكر ذلك المؤرخ بطليموس (اليوناني) ومنذ هذا التاريخ كانوا بدأوا يتاجرون
مع شرق أفريقيا بالعاج والعبيد ووصلوا الى حدود (موزمبيق) وبعد ظهور الاسلام
ازدادت هذه التجارة في شرق إفريقيا إزدياداً عظيماً حتى إنقلبت في نحو القرن الثامن
الى إستعمار حقيقى ، وتأسست في أوائل القرن العاشر (مقديشيو) - (باراكا) .

وساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة بين منطقة الجزيرة
العربية وبين ساحل إفريقيا الشرقي ، لأن الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط
الهندي تمكن السفن الشراعية من القيام برحلتين منتظمين في السنة بأقل مجهود ، ففي
فصل الخريف تدفع الرياح الموسمية السفن في إتجاه شمالي شرقي تمكنها من العودة الى
قواعدها في شبه الجزيرة العربية^(٣) .

(١) المرجع السابق ، المقدمة .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٣) د . جمال زكريا قاسم ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

ومن الملا- أن العرب لم يقتصر نشاطهم على شرق إفريقيا وحدها وإنما اندفعوا بفضل حركة الرياح الموسمية إلى الشرق الأقصى حيث ثبت وجود عدة مستعمرات عربية في سواحل الهند والصين وجنوب شرقي آسيا ، وكان لأولئك العرب الفضل الكبير في نشر الإسلام في تلك البقاع .

وكما استفاد العرب من الرياح الموسمية كذلك استفاد الهنود منها الذين كانوا يفدون إلى هذه البلاد ، وكان لهم شأن في التجارة أيضاً مثل العرب وظلت أسرار الرياح الموسمية مع العرب والهنود الذين احتفظوا بها لأنفسهم إلى أن عرفها الإغريق ، وأشيع خطأ فضل اكتشافها لهم .

ولما جاء البرتغاليون إلى شرق أفريقيا كان العرب هم الذين أعطوهم أسرار هذه الرياح للوصول إلى الهند وكان الملاح العربي (أحمد بن ماجد) هو الذي قاد سفينة فاسكوداجاما إلى الهند سنة ١٤٩٨ م ، وكانت هذه بداية الاستعمار الأوربي للبحار الشرقية في العصر الحديث كما كان من نتائج ذلك تحول تجارة الشرق من طريق الخليج العربي والبحر الأحمر وغيرها من الطرق البرية والبحرية القديمة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنه إلى أوروبا .^(١)

وشارك الفرس أيضاً في التوغل في أفريقيا ففي سنة ٩٧٥ م جاء الفرس من (شيراز) وأسسوا مركزاً لهم هناك يُسمى (كليفا) وتوغلوا في السواحل إلى (روديسيا) طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقي ووصلوا إلى (مقديشيو) و (باراكا) و (ماليندى) و (مونباسه) و (زنجبار) و (مجا) عند (دار السلام) الحالية وغيرها من الموانئ والمدن وأصبحت هناك إمارات فارسية صغيرة بين الإمارات العربية.

ولما جاء الاستعمار إلى تلك البلاد وجدوا فيها المدنية الإسلامية مؤسسة ولها مراكز حضارية ، ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك بل

(١) المرجع السابق ، ص ١٦-١٧ .

اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار الجزيرة العربية وفارس مثل المانجو والرمان والأترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسّم الهندي والبهارات الهندية والأرز ، وجلبوا كثيراً من حيوانات بلدانهم .

وبقيت المدينة الإسلامية قروناً طويلة في هذه السواحل ، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل وعندما جاء البرتغاليون وضعوا حداً للدور الأول من مدينة العرب عندما احتلوا (زنجبار) سنة ١٥٠٣م (وباراكا) سنة ١٥٠٤م و(كليفا) سنة ١٥٠٥م و (مونباسا) سنة ١٥٠٥م وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التي تأتي من الهند ووضع اليد على معادن الذهب في (سفالا) ، وأصبح البرتغاليون هم السادة في تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر .

وفي سنة ١٧٥٠م بدأ عرب سواحل عمان بقتال البرتغاليين وإجلائهم من ساحل عمان أولاً، كما ذكرنا ذلك من قبل عندما تحدثنا عن دولة اليعاربة ، فلما أجلوهم من سواحلهم في عمان هاجوهم في مستعمراتهم بالهند وفي شرق أفريقيا وأعادوا فتح مراكزهم التي أسسوها في شرق إفريقيا من جديد وهي (زنجبار) و (مجا) و (مونباسه) وغيرها في آواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

ثم إن حروباً داخلية في عمان حملت السلطان (سعيد) على تحويل مركزه وعاصمته الى (زنجبار) ثم صار (ماجد) ابنه سلطاناً لشرقي إفريقيا وابنه الآخر (تويني) سلطاناً في مسقط وهذا في نحو سنة ١٨٥٦م ثم توفي (ماجد) وخلفه أخوه (برغش) ، وفي أيام هذا السلطان بدأت الحوادث التي إنتهت الى تقسيم هذه السلطنة العربية وبالجملّة فالسلطنة العمانية العربية التي استمرت الى آخر القرن التاسع عشر قد تمكنت من التوغل في داخل إفريقيا أكثر من جميع الدول التي قبلها .

ولم تكن التجارة هي الدافع للعرب على هذا النشاط بل الزراعة أيضاً التي كان العرب يستجلّبون لها العمالة من داخل البلاد ، وازدادت تجارة الرقيق بزيادة

النشاط الزراعى وشو الزراعة في السواحل وأسس العرب في الداخل مدينة (طابورة) وغيرها ووصلوا الى الكونجو الأعلى وأسسوا فيها مدناً وقرى وكانت لهم هناك قوات عسكرية مسلحة لحماية قوافلهم ولا شك أن العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الافريقية .

وانتشر الاسلام مع المدنية العربية في تلك الأصقاع أينما ذهب العرب ، في الصومال وكينيا وأوغندا وموزمبيق والكونجو .^(١) وأصبح سكان هذه الديار هم خليط من العرب والعجم والهنود والأفارقة .

ولما بدأت ألمانيا تكوين بعض الشركات الاستعمارية في شرق افريقيا كان ذلك على حساب سلطنة عمان ، ففي ٨ من أبريل سنة ١٨٨٨م استأجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان (زنجبار) مكوس السواحل ، فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب ومعهم الأفارقة ثورة عظيمة لكراهيتهم للجنس الأوروبي وكان قائد هذه الثورة الشيخ (أبو شيرى) نحن الألمان أخذوا هذه الثورة في سنة ١٨٩٠م ، وتمكن الجيش الألماني بمساعدة الأسطول من غزو هذه البلاد والتمكن منها وإستعمارها^(٢).

عهد سعيد بن سلطان بن أحمد ١٨٠٦-١٨٥٦م:

سعيد بن سلطان هو أبرز شخصيات أسرة البوسعيد ، ويعتبره البعض^(٣) من الشخصيات الهامة في تاريخ العرب الحديث ، وأهم ما قام به هو أنه قام بتجربة فريدة من نوعها ، وهى إنشاء أول دولة عربية إفريقية في شرق إفريقيا ، ولم يحظ باهتمام كاف من المؤرخين العرب ، وربما كان ذلك راجعاً الى بعد بلاده والمناطق التى زاول فيها نشاطه ، أو لأن الكتاب المعاصرين الآن قد يفتلون من تقديره باعتباره أنه استسلم للسياسة البريطانية ، وكان في بعض الأحيان أداة لتقوية نفوذها ، هذا على

(١) لوثرروب ، حاضر العالم الاسلامى ، من مقال للأمير شكيب أسلان بعنوان شرقى إفريقيا ، ج ٣ ص ٦٩-٧٧

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٤-٧٥ .

(٣) د . صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٣ .

الرغم من اهتمام المؤرخين الغربيين بحياة السيد سعيد لمجزاته في شرق أفريقيا ولأن الأوروبيين استفادوا من تمهيد العرب لتلك المنطقة وفتحها للتجارة العالمية .

ولم تكن مشكلات السيد سعيد في عمان قاصرة على ثورات القبائل ، ووطاة الوهابيين من جهة واحات البوريمي وإقليم الظاهرة فحسب ، إنما تعرض حكمه لعصيان الحكام من أقاربه ، وأشهر حوادث العصيان هي تلك التي تزعمها (حمود بن عزان) في الثلاثينات ، وكان يحكم ميناء (صحار) الميناء الثاني في السلطنة بعد (مسقط) وهو يقع على مائة ميل شمال العاصمة ، وكان الانجليز قد قدموا تعهدا بمساعدة السيد سعيد على الاحتفاظ بممتلكاته الساحلية ، فتدخل الانجليز لمنع سقوط مسقط لكنهم لم يذهبوا الى حد اسقاط حكومة (صحار) وقد استندت هذه الحكومة الى المعارضة الإباضية المعادية للنفوذ الأجنبي .

وبدأت سياسة بريطانيا تتغير بالنسبة للتدخل في داخل الجزيرة وذلك عندما جاء توسع المصرى الى بلاد العرب ، فاتصل الانجليز مباشرة برؤساء قبائل النسيم والظواهر للتحالف ضد المصريين ، واجتمع مع رؤسائهم المقيم الإنجليزى في (العجمان) سنة ١٨٤٠م ووعدهم بالدفاع عنهم وزودهم بالأسلحة .

وفي سنة ١٨٤٤م عهد سعيد لابنه ثوينى بإدارة مسقط واصبح في معظم الوقت في (زنجبار) وعين ابنه ماجد لإدارة (زنجبار) وحاول سعيد ضم البحرية الى ممتلكاته ولكن بريطانيا رفضت .

وشهد سعيد في نهاية حياته تقلص ممتلكاته الآسيوية وبدأت تتفكك الدولة العربية الكبرى التي أنشأها أسرة البوسعيد فقد بدأت إيران في استعادة ميناء (بندر عباس) منذ ١٨٤٦م ، والتزمت بريطانيا الحياد في هذا النزاع ، وشددت إيران الحصار عليه في سنة ١٨٥٥م . وبعد وفاة السيد سعيد سنة ١٨٥٦م أصبح مركز العمانيين ضعيف به ، واحتل الإيرانيون الميناء سنة ١٨٦٨م .

الامتيازات الأجنبية في عمان :

في ٣١ من مايو سنة ١٨٣٩م عقدت بريطانيا مع السيد سعيد لتنظيم التجارة والملاحة وتحديد الرسوم الجمركية ، وتقديم المساعدات الى السفن البريطانية التي تمر بموانئ السلطنة ، وترتب على تلك المعاهدة امتيازات قضائية في عمان، للإنجليز ، فنصت المعاهدة على أن يتولى القنصل البريطاني الفصل في المنازعات التي تحدث بين الرعايا البريطانيين المقيمين في السلطنة ويؤخذ رأيه في القضايا التي تنشأ بين البريطانيين وبين العرب ، وكان هذا يسرى على الهنود رعايا إنجلترا ، وكان عددهم يصل الى خمسة آلاف في عام ١٨٣٩م في موانئ السلطنة ، وكانوا يسيطرون على التجارة الخارجية للبلاد .^(١)

وبذلك دخلت الامتيازات القضائية في سلطنة عمان التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية ، وظفرت فرنسا بمعاهدة مع السيد سعيد سنة ١٨٤٤م تمنحها نفس الامتيازات التجارية والقضائية التي نصت عليها معاهدة سنة ١٨٣٩م مع إنجلترا .

تقسيم السلطنة :

في سنة ١٨٥٩م حاول (ثويني بن سعيد) الاستيلاء على زنجبار ، وتوحيد السلطنة ولكن اعترض الانجليز ، وتوسطوا في الأمر في سنة ١٨٦١م بـ لجنة تحكيم حكمت باستقلال زنجبار عن السلطنة .

وذكرت اللجنة في تقريرها : أن الطريقة التي يتولى بها الحكم أعضاء الأسرة الحاكمة وهي أسرة بوسعيد إنما تقوم على أساس الانتخاب ، وإنه عقب وفاة سعيد بن المان انتخب أهالي (زنجبار) وملحقاها ابنه السيد ماجد حاكما عليهم ، وعلى ذلك فليس هناك مبرر لمطالبة السيد ثويني بالسيطرة على ممتلكات أخيه وينبغي إذن أن يبقى كل منهما سلطانا مكانه^(٢) ، على أن يدفع حاكم زنجبار إعانة سنوية لحاكم

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) د . جمال زكريا قاسم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٦ .

مسقط لتعويض الفرق بين موارد (زنجبار) الكبيرة وموارد (مسقط) ، وهذه الإعانة لا تعنى التبعية ونص التحكيم على ألا يتدخل عرب عمان في شئون شرق أفريقيا ^(١) . وهذا التحكيم هو الذي مهد لفرض الوصاية الانجليزية على كلتا الدولتين . ويمكن الرجوع إلى كتابنا عن اليقظة الإسلامية في العالم الإسلامي لمعرفة نهاية سلطنة زنجبار العربية المسلمة التي ضمتها تنجانيقا إليها سنة ١٩٦٣ م ، بعد مذبحة مروعة قضت على العرب في زنجبار بقتل بعضهم وإجلاء البعض الآخر إلى مسقط وعمان .

السواحليون :

لما اختلط العرب والفرس والهنود والأفارقة في شرق أفريقيا كونوا عنصرا جديدا يسمى (السواحليون) وأصبحت لهم لغة جديدة هي خليط من العربي واللغات الإفريقية والأردية الهندية والفارسية وهذه اللغة الجديدة تسمى (اللغة السواحلية) ونتج عن اختلاط العرب مع السود والفرس والهنود جنس جديد سمى الوجوه تقاطيعهم لطيفة وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتسلون دائما ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج ويختنون لأنهم مسلمون ومن عادتهم لبس البياض ويجعلون على رؤوسهم غطاء أبيض وقد يلبسون الطربوش الأحمر ونساؤهم لا يتنقبن ولكنهن يأتزن بشيء اسمه (الشقة) يغطي الجسم ويجعلون على الإحراق شيء اسمه (كسونو) وهم إجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى لا يشبهون في شيء سكان الداخل من الزنوج وعندهم أدب وكياسة ومن صفاتهم حسن المعاشرة وقرب الألفة وسرعة العاطفة والبر بالأهل والحنو على الأولاد ويحبون السكن بعضهم بقرب بعض ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التي بين بيوتهم نظيفة وينون بيوتهم صفوفا ويفرسون أمامها صفوفا من الأشجار الكبيرة وأينما وجد السواحلي اعتنى بغرس الشجر .

(١) د . صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٢ .

أكثر أعمال الحقول تقوم به نساؤهم فأما الرجال فيصطادون السمك ويتاجرون بالبضائع أو يحملون الأثقال وبالإجمال تعد هذه الأمة من الأمم الموصوفة بالوداعة وعندهم ميل إلى الطرب يحبون الغناء ويعزفون بالطبول .

اللغة السواحلية :

ومن آثار التواجد العربي اللغة السواحلية التي كان أهل ساحل شرق أفريقيا يكتبونها بالحروف العربية ، وأما الآن فتكتب بالحروف اللاتينية ، والسواحلية مزيج من العربية وعدة لهجات من لغة البانتو الأفريقية .

ومع ذلك فإن المفردات العربية تصل نسبتها في اللغة السواحلية حوالي ٢٢% بينما المفردات البرتغالية والإنجليزية أو الألمانية والإيطالية بالإضافة إلى الفارسية والهندية مجتمعة لا تتعدى نسبتها في السواحلية ٦% .

ولم يكن هذا الأثر للغة العربية الذي يعادل أضعاف الأثر الذي تركته اللغات الأجنبية الأخرى إلا وليد اتصال السلمي الهادئ للعرب بإخوانهم الأفارقة على الساحل الشرقي الإفريقي .

وقد حاولت الدوائر الاستعمارية الألمانية والبريطانية وغيرها تحريم استعمال اللغة السواحلية في دواوين الحكومات في شرق أفريقيا .

ومع ذلك أوضح إحصاء أجراه (مسترولسن) ونشرته جريدة (الفلق) الصادرة في زنجبار في عدد ٣ من رجب ١٣٥٨هـ الموافق ١٩ من أغسطس ١٩٣٩م أن ٥٥ شخصا من بين ١٠٠ في جزيرة زنجبار يكتبون بالحروف العربية ، وشخصا واحدا يكتب بالحروف اللاتينية ، وسبعة أشخاص يكتبون بكل من الحروف العربية واللاتينية وسبعة وثلاثون شخصا أميا .

ولكن جهود المنصرين الآن تتجه إلى التربص بالمفردات العربية في تلك اللغة ، وهم بصدد إسقاط الأصول العربية بحجة الوصول إلى لغة سواحلية بانتوية خالصة ^(١) .

(١) عادل خفاجة ، الأثر العربي في اللغة السواحلية ، مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٥هـ يناير ١٩٩٥م .

مفردات من العربية في السواحلية :

في مجال شئون المنزل : سقف . غرفة . صحن .

في مجال الأسرة : عم . بنت . صديق . أهل .

في مجال التجارة : بيع . فائدة . خسارة . رهن . رخيص . غال .

الأعداد : ستة . سبعة . عشرون . ثلاثون . أربعون . خمسون . ستون .

سبعون . ثمانون . تسعون . مائة .

في مجال الدين : الزكاة . التوبة . الرحمة . الفجر . الصبح . الظهر ^(١) .

والعربي العماني بدأ يقل وجوده هناك وكانت له هيئة جميلة جداً في زنجبار وتلك السواحل وكانت على العربي سيماء الشرف حتى إلى ما بعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسي والتجاري ، فلم يزل الباكون منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم ولا يعملون ، وهم يناظرون الهنود في التجارة وكانت منهم بيوتا غنية لكنها هوت في الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب في تلك البلاد هم أشرف البلاد لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا ويرتدون ملابس بهية منها ما يسمونه (القفطان) وهو من الجوخ الأسود المطرز مفتوح من الأمام تحته قميص أبيض طويل يسمى (كانزو) ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرا محلى بالفضة وهم طوال القامات رشاق القدود سمر الألوان ظاهروا الرصانة تجدد حركاتهم كلهم موزونة بدون تملق بل بشئ من الإنقباض .

ويوجد صنف آخر من العرب اسمه (شحري) نسبة الى الشحر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتاجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرّون على مزاحمة الهنود في التجارة ^(٢) .

(١) المرجع السابق ، ذات المقال .

(٢) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ج ٣ ص ٧٦ .

وقد تعرض الحكم العربي الاسلامى في المنطقة للضعف إثر وفاة (ماجد بن سعيد) عام ١٨٧٠م فخلفه أخوه الصغير (برغش بن سعيد) وأخذت السياسة الاستعمارية تنفذ الى المنطقة وتعمل على تقسيمها بين الدول الاستعمارية الكبرى ، فأخذت ألمانيا تنجانيقا بينما كان الإنجليز أصحاب النفوذ الأكبر في (زنجبار) وكانت سلطتها ضعفت إثر وفاة (برغش بن سعيد) عام ١٨٨٨م الذى شهد تقسيم بلاده في حياته وخلفه (سيد خليفه) ولما هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وقسمت مستعمراتها على الحلفاء والمنتصرين وكانت تنجانيقا من نصيب إنجلترا بعد أن وضعت تحت وصاية عصبة الأمم .

وقد استقلت تنجانيقا عام ١٩٦١م وأصبحت ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الأنجلو فونية) أما سلطنة زنجبار فقد استقلت عام ١٩٦٣ ، وكان سلطانها سيد خليفة قد توفى سنة ١٩٦٠م وخلفه ابنه (جمشيد ابن عبد الله خليفة) وما أن تم الإستقلال حتى حدث انقلاب عسكري برئاسة (عبيد كرومى) الذى نصب نفسه رئيسا لجمهورية زنجبار وخلع (سيد جمشيد) ونكبت الأسرة العربية التى كانت تحكم زنجبار وقتل أكثر من ١٦ ألف من العرب لأن الإنقلابيين عدو الأسرة الحاكمة أسرة دخيلة مستعمرة وقتل معهم ٥٤ ألف من المسلمين .

ولم تنته دسائس الاستعمار عند هذا الحد وإنما ضمت تنجانيقا اليها زنجبار في سنة ١٩٦٤م في اتحاد عرف بإسم (تانزانيا) تحت رئاسة (يوليوس نيريرى) الشيوعى رئيسا للجمهورية الاتحادية وعين (عبيد كرومى) نائبا للرئيس وأعلنت الحكومة أنها كشفت محاولة لفصل زنجبار عن تنجانيقا وادعت أن بعض المتآمرين كانوا من زنجبار وبعضهم الآخر من عرب كينيا ونفذت أحكام الإعدام فيمن أرادت التخلص منهم ممن وقعوا تحت قبضتها وبعد ذلك بقليل تم اغتيال (عبيد كرومى) نفسه ^(١) .

(١) د . محمد السيد غلاب وآخرون . بلدان إسلامية والاقليات المسلمة في العالم المعاصر ص ٥٤٢ - ٥٤٥ .

البحرين

البحرين مصطلح تاريخي كان يشمل في صدر الإسلام كل المناطق في شرقي الجزيرة العربية والتي تقع بين البصرة وعمان بما فيها هجر المعروفة الآن بالإحساء ولهذا يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان عن البحرين : " البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند (الخليج) بين البصرة وعمان " (١) ، وعندما انتشر الإسلام في الحجاز والجهات المجاورة لها تقدم الإسلام إلى البحرين وكان يحكم البحرين (المنذر بن ساوى العبدى التميمي) الذي كان يحكم البحرين من قبل الفرس آنذاك بعد انقضاء اللخمين وكان المنذر على النصرانية ومعه قليل من عرب البحرين وكانت غالبية الشعب من الوثنيين مع قليل من الجوس واليهود .

وقد أرسل النبي عليه الصلاة والسلام رسالة إلى المنذر بحملها العلاء بن الحضرمي يدعوهُ إلى الإسلام هو وقومه ، وقد استجاب المنذر للإسلام وتبعه معظم جماعته ، وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أرتد أهل البحرين ما عدا "قبيلة عبد القيس" فأرسل أبو بكر خليفة رسول الله إلى أهل البحرين لواء عليه "العلاء بن الحضرمي" لردهم إلى الإسلام ، وقد قبض الله لعبد القيس رجلا صالحا منهم هو "الجارود بن بشر العبدى" ، فقد محضهم النصح بقوله :

" إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتم ولا تجيبوني إن لم تعلموا "

قالوا : سل عما بدا لك .

قال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟

قالوا : نعم .

قال : فما فعلوا ؟

قالوا : ماتوا .

(١) معجم البلدان ، مادة " بحرین " .

قال : فإن محمداً صلوات الله عليه مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

فقالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنت سيدنا وأفضلنا .

وثبتوا على إسلامهم أما المرتدون هناك من بنى بكر وغيرهم فقد أنفقت كلمتهم على قتلِكَ (المنذر بن النعمان) ، ثم قاموا لاستباحة حمى المسلمين من "عبد القيس" ، ونزل المرتدون بالقطيف وهجر ، واشتد الأمر على المسلمين حتى جاءهم العلاء بن الحضرمي في جيش من المسلمين كما سبق أن أشرنا ، ولحق به جماعة ممن عادوا إلى الإسلام من بنى حنيفة وبنى تميم.

ودارت الحرب بين الفريقين ، وخندق كل منهما على نفسه واستمرت المناوشات شهراً كاملاً دون أن يتمكن أحد من الفريقين من التغلب على الآخر.

وفي ليلة شرب المرتدون فيها الخمر حتى سكروا وسمع جيش المسلمين لهم جلبة في معسكرهم فأرسل العلاء إليهم من يستطلع الخبر فعلموا أنهم شربوا الخمر وأن شجرة السكر هي التي دفعتهم إلى ذلك الصباح ، وانتهز العلاء الفرصة وأصدر أمره لرجاله باقتحام خطوط الأعداء ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم الكثيرين ، وفر الباقون إلى جزيرة في الخليج تسمى (دارين) وهي جزيرة البحرين الآن ، فخاض المسلمون الماء وراءهم يقتلون ويأسرون ، وأمتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، وكان المنذر بن النعمان ملك القوم وقائدهم من جملة الأسرى ، وكتب العلاء بن الحضرمي إلى الخليفة أبي بكر الصديق يخبره بذلك النصر العظيم^(١) .

وبذلك عادت البحرين إلى الإسلام ولكن ظلت منطقة البحرين وبمعنى آخر شرقي الجزيرة العربية الإحساء وساحل الخليج والقطيف وقاعدته (هجر) والتي كانت تسمى قديماً (الخط) وهو ما بين عمان والبصرة ظلت مكاناً للخارجين على الدولة

(١) د . أحمد مجاهد مصباح ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ص ٥٦ - ٥٧ .

الاسلامية وموطنا للزنادقة والتراعين الى الفرقة الخارجين عن الجماعة وكان يسكنها جماعات من عرب ربيعة موتورين من الدولة الاسلامية ، ومعهم جماعات مهاجرة من السند منهم " الزط " وغيرهم خرجت من موطنها الاصلى إثر جماعات أصابتها وذكرها الطبرى في معرض حديثه عن الردة في عهد الخليفة أبى بكر الصديق (١) .

الخوارج في البحرين :

عندما ظهر الخوارج في الدولة الاسلامية على أيام الخليفة الرابع على بن أبى طالب كانت منطقة شرقى الجزيرة العربية ، البحرين مكانا ملائما لنشاطهم لبعدها عن مركز الدولة في العراق وفي الشام في العصر الأموى (٤١ - ١٣٢هـ) ، وفي بغداد في العصر العباسى ، ما بعد سنة ١٣٢هـ ولعدم أهميتها البشرية والاقتصادية ، ومن ثم أصبحت تموج بالفتن والاضطرابات ويلجأ إليها كل خارج عن الدولة .

ولهذا جذبت هذه المنطقة فرقة عاتية من فرق الخوارج وهى فرقة "نجدات" نسبة الى زعيمهم (نجدة بن عامر الحنفى) وقد نزل نجدة البحرين قادما من البصرة سنة ٦٧هـ فسالته الأزد ، وحاربه قبائل عبد القيس فهزمهم وأقام نجدة بالقطيف ثم انتقل الى البحرين (الجزيرة) بعد أن دانت له المنطقة بأسرها .

وعندما أراد (عبد الله بن الزبير) أن يناوئ الدولة الأموية ويتنزع الخلافة منها أرسل جيشا الى البحرين لإخضاع نجدة وأتباعه من الخوارج لكن نجدة هزم هذا الجيش سنة ٦٩هـ واستطاع نجدة أن يفرض نفوذه على مناطق الخليج بأسرها ، وعلى عمان وأخذ من أهلها الصدقة وكذلك على اليمامة والقطيف وصنعاء وحضرموت وغيرها .

واستطاع (نجدة) أن يصالح (عبد الله بن الزبير) سنة ٦٩هـ على أن يحج (نجدة) وأصحابه الى بيت الله الحرام في نفس السنة وأن يصلى كل واحد منهما بأصحابه ، لكن عندما عاد نجدة الى البحرين قطع الميرة عن أهل الحجاز.

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

وعندما سيطر (عبد الملك بن مروان) على الدولة الإسلامية وقضى على عبد الله بن الزبير اتصل بنجدة ومن معه من الخوارج وطلب منهم عبد الملك بن مروان أن يدعنوا بالطاعة للدولة الأموية ويوليّه عبد الملك في مقابل ذلك على الإمامة ، ويهدر له ما سنك من دماء المسلمين ، لكن عارض أصحاب نجدة هذه العروض من ^(١) الملك وتمردوا على نجدة وولوا أمرهم (أبافديك) وقتلوا نجدة سنة ٧٢هـ وكان هذا الزعيم الجديد للخوارج من "بنى قيس بن ثعلبة" فسيطر على البحرين ^(١) واحتل مكانة نجدة الى أن تغلب عليه جيش لعبد الملك بن مروان بعد أن تغلب عبد الملك على عبد الله بن الزبير سنة ٧٢هـ .

وكان قتل (أبي فديك الخارجي) سنة ٧٣هـ في معركة حامية قتل فيها معه أعداد كبيرة من أنصاره يذكر ابن الأثير أنهم ٦٠٠٠ مقاتل وتم أسر عدد كبير يذكر بن الأثير أيضا أنهم ٨٠٠ ^(٢) مقاتل .

ومع ذلك فإن أمر الخوارج لم ينته بالبحرين ، فقد خرج بها (المسعود بن أبي زينب العبدى) من زعماء الخوارج الأقوياء سنة ١٠٥هـ فغلب على المنطقة ، وظل له النصر بضع عشرة سنة وسار مسعود الى الإمامة فتصدى له (سفيان بن عمر العقيلى) ، فقتل سفيان مسعودا ومعه كثير من أصحابه ، واضطرب أمر الخوارج من بعده .

وفي العصر العباسى حاول العباسيون الهيمنة على البحرين فأرسلوا الولاة من طرفهم إليها ، ففي عهد المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) ثار في البحرين (سليمان بن حكيم العبدى) فوجه إليه المنصور جيشا بقيادة (عقبة بن مسلم) من البصرة فانتصر عقبة على ثورة سليمان بن حكيم وقتله هو وجماعته ، لكن ظل الخوارج

(١) انظر: الطبري ، مرجع سبق ذكره ج ٦ ، ص ١٧٤ ، وانظر : أحمد شلبي ، ج ٧ ، ص ٥٥١ - ٥٥٤ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

يخرجون في البحرين في عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) والمعتمد (٢١٨ - ٢٢٧هـ) .

وفي نهاية العصر العباسي الأول ضعفت قوة الخلفاء العباسيين وانتقلت السلطة الى الأتراك الذين استجلبهم المعتمد لمساندة الدولة العباسية ضد نفوذ الفرس ، وقويت حركات التمرد والثورات العنيفة ، وجذبت منطقة البحرين كثيرا من الحركات الارهابية العنيفة وأهم هذه الحركات حركة صاحب الزنج ، وحركة القرامطة .

حركة صاحب الزنج :

من الأحداث الخطيرة التي هددت الدولة العباسية على أيام (المعتمد) ثورة الزنج فقد ظهر في البحرين قبل عصر المعتمد سنة ٢٤٩هـ رجل مغامر يقال له (علي بن محمد) واستقر في هجر^(١) قاعدة البحرين .

وكان هذا الجزء يسمى قديما الحَظّ وهو ما بين عمان والبصرة ، وكان يسكنه من العرب جماعات هاجرت من السند منهم الزط والسيابجية خرجت من موطنها أثر جماعات أصابتها وذكرها الطبري في معرض حديثه عن الردة في عصر أبي بكر ، (ج ٣ ، ص ٣٠٣) ، واختلف في أصل صاحب الزنج ، فهو يدعى أنه ينتسب إلى علي بن أبي طالب ، ويذكر بعض المؤرخين أنه من أصل فارسي^(٢) ، وأكثر المؤرخين يرون أنه من (قبيلة عبد القيس) التي تنتمي إلى ربيعة^(٣) ومن (لعجيب أن الطبري وابن

(١) هَجْرٌ : تستعمل في خروج البدوي من باديته إلى المدن وهي من الهجران كأنهم يهجعرون ديارهم وينتقلون عنها إلى قرى جديدة ، وهجر بلغة حمير والعرب العاربة القرية فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان ، وهجر هنا كانت قاعدة البحرين ، وربما قيل هجر في البحرين كلها (ياقوت ، معجم البلدان) وفي القاموس المحيط اسم لجميع أرض البحرين ، وعندما بنى الملك عبد العزيز آل سعود قرى القبائل العربية للاستقرار بها أطلق عليها " هَجْرٌ " .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

(٣) الطبري ، ج ٩ ، ص ٤١٠ ، وابن الأثير .

الاثير يقولان أن أهل البحرين أحلوا هذا الدعى من أنفسهم محل النبی وجمعوا له الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا الدولة بسببه .

ولكن بعد فترة اختلف أهل البحرين بشأنه وتقاتلوا فانتقل عنهم الى الأحساء ، وولى قيادة رجاله رجل من البحرين يقال له (سليمان بن جامع) وهو رجل أسود كان مولى لبنى حنظلة جعله قائداً لرجالہ ، وفي البداية كان يجهر بانتماثه الى البيت العلوى ثم تحلى بعد فترة عن انتماثه الى العلويين ، ويظهر أنه لم يكن على علم بعقائد المذهب الشيعى ، وبدأ يجهر بعقائد مذهب الخوارج وتظاهر به لأنه يتلاءم مع ميول أتباعه الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة الذى يقوم على التوريث والحق المقدس .

وعندما ذهب الى البصرة دارت في ذهنه فكرة خطيرة وهى أن يستغل العبيد السود في منطقة (البصرة) و(واسط) فقد كانت هذه المنطقة تعج بآلاف الزنوج الأفارقة الأرقاء والأجراء لدى كبار الملاك ، وكانوا يعملون في إصلاح الأراضى التى تحن الى اصلاح وفي نقل السباخ وفي مزارع القصب ^(١) في خوزستان وبصن . عامة يعملون في الأعمال الشاقة ، فلوح لهم بالحرية وأنه سوف يخلصهم من آلامهم ويتولاهم بالرعاية ، وادعى أنه رسول العناية الإلهية لتحرير العبيد السود .

واتصل بعد توسم فيه الذكاء يسمى (ربحان بن صالح) وعده بالقيادة ليجمع له كثيراً من الأرقاء ممن يتوسم فيهم القوة والاستجابة لدعوته ونجحت فكرته في تجميع آلاف من الأرقاء الآبقين حوله وصل عددهم ١٥٠٠٠ من الرقيق السود الذين حررهم من أسيادهم وخطب فيهم ووعدهم بالحصول على المال والجاه ، وأقسم لهم ألا يغدر بهم أبداً وذكر أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت ، وأمر بكتابة الآية الآتية على رايه :

(١) كانت خوزستان منتجة لقصب السكر ، وقد أتى هؤلاء الزنوج من سكان الساحل الشرقى الأفريقى الذين قدموا الى خوزستان وجنوب العراق عن طريق جنوب جزيرة العرب وعمان ومكران وكرمان على الساحل الفارسى (موريس ولومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى ، ص ٤٠ - ٤٢) .

﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة : ١١١) .
وأول هذه الآية بأنهم المؤمنون ، وأنهم قد اشتروا أنفسهم ولن يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية .

وقد استغل الزنوج الناثرون منطقة البطائح أو المستنقعات في العراق الأدنى قرب البصرة وهي ظاهرة تكثر في العراق في عصور الفوضى وإهمال مشاريع الري وحفر الأنهار الصغيرة فتسيل المياه وتكثر المستنقعات التي تسمى البطائح بلغة أهل العراق ، وتنمو فيها غابات صغيرة من نبات البوص والغاب أو ما يسمى أحياناً بالقصب ، ويطلق على هذه الغابات الصغيرة المغطاة بالمياه الكثيرة " الأهوار" (١) وهي عبارة عن بحيرات صغيرة بها ممرات صالحة لملاحة القوارب الصغيرة الخفيفة الحاملة للأفراد .

وقد استغل الزنوج الناثرون هذه الأهوار والتجأوا إليها أثناء ثورتهم وتمردهم ، وحاربوا من فوق قواربهم المسطحة ومن أكواخهم المسترة بين دغيلات الغاب وبنى لهم عاصمة بداخلها تسمى " المختارة " على نهر أبي الخصيب (٢) ومن العجيب أنهم كانوا إذا أسروا بعض الأشخاص كانوا يسترقونهم ويوزعونهم على بعضهم ، ولم يتحرر هؤلاء من أيديهم إلى بعد انتهاء حركتهم ، ولم تستطع قوات الدولة أن تنال منهم في البداية بسبب استطاعتهم في المناورة وقدرتهم على المراوغة في هذه المستنقعات .

وقد أرسلت الدولة إليهم بعض قواتها فهزموها واتجهوا نحو (البصرة) في سنة ٢٥٥هـ فاقتحموها ونهبوها ثم خربوها واتجهوا إلى (الأبله) المقابلة لها فاحرقوها

(١) الأهوار جمع هور ، والهوز : بحيرة يفيض فيها ماء غياض فتسع ويكثر ماؤها . (ياقوت معجم البلدان).

(٢) سمي بذلك نسبة إلى مولى من موالى الخليفة المنصور يسمى أبو الخصيب . انظر بلدان الخلافة ، ص ٦٩

واستولوا على (عبّادان)^(١) والأهوار سنة ٢٥٦هـ ، ثم أوقعوا بأهل البصرة مرة أخرى سنة ٢٥٨هـ فأرسل إليه الخليفة جيشاً آخر بقيادة " موسى بن بغا " سنة ٢٥٩هـ فلم يستطع أن يفعل شيئاً أيضاً .

ولم تغلب عليهم الدولة إلا في عام ٢٧٠هـ بعد أن قاد " الموفق " جيوش الدولة عدة مرات ، وذلك بعد أن نشروا الخراب في كثير من النواحي بالبحرين والإحساء وجنوب العراق واستمرت ثورة الزنج ما يقرب من خمسة عشر عاماً (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) وسقط فيها من الضحايا مليونان ونصف في رواية ابن طباطبا في الفخري ومليون ونصف في رواية السيوطي في تاريخ الخلفاء^(٢) .

وصفوة القول أن الدولة تخلصت من شر هذه الجماعة المدمرة التي استغلت سيطرة الأتراك على الدولة وعشت بالأمن وقطعت الطرق وأحرقت الأخضر واليابس في البحرين وجنوب العراق ، فنجح الموفق في القضاء عليهم وقتل زعماءهم .

لكن لابد من كلمة حق تقال بشأن هذه الثورة ، وهي تفشى الظلم للعبيد السود في هذه الفترة واستغلالهم دون الرقيق الأبيض في أخس الأعمال وهي نقل السباخ إلى مزارع القصب وإصلاح الأراضي وكانوا يلاقون من الإرهاق والتعب ما يقضى على إنسانيتهم ولا ينالون في المقابل إلا القوت الضروري أي أنها كانت أعمال سخرة لحساب أسيادهم .

وبمجرد أن لوح لهم (على بن محمد) بالتححرر استجابوا لدعوته لشدة ما يعانون من ظلم ، وظهرت عليهم علامات الانتقام من أسيادهم فكانوا كلما أسروا أحداً من الجيوش التي قهاجهم كانوا يسترقونهم انتقاماً منهم ، ولذلك فإن ظلم أسيادهم هو الذي دفع الزنوج العبيد إلى الثورة ولو أعطى الأسياد الأرقاء حقوقهم التي فرضها الإسلام لهم لما وقع مثل هذه الثورة .

(١) عبّادان : تنسب إلى رجل أيام الحجاج يسمى عبّاد ، وعلى طريقة أهل البصرة يزداد ألف ونون عند النسب إلى شخص فيقال : زيادان في زياد وبلاان في بلال (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) انظر أخبار الانتصار عليهم في : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٩ ، ص ٦٥٤ - ٦٦٧ .

حركة القرامطة :

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن حركة القرامطة بالبحرين وشرقي الجزيرة العربية أن نشير في عجلة سريعة إلى أصول الحركة الباطنية لأن حركة القرامطة جزء من الحركة الباطنية .

أصول الباطنية :

يعد تاريخ الحركة الباطنية من الموضوعات الشائكة في التاريخ الإسلامي بسبب قيام الدعوة الباطنية على السرية التامة بسبب خوفهم على أنفسهم من رجال الدولة العباسية ، وهذا ما اضطرهم أيضاً إلى تغيير أسمائهم عدة مرات خوفاً من انكشاف أمرهم ، ومن ثم نجد اختلافاً كبيراً في أسمائهم في شتى المصادر، وبصفة عامة فإنهم لجأوا إلى التخفي في أعمالهم كلها بسبب ما نالهم من مطاردة وحاربوا أعداءهم سراً في غالب الأحيان ولا يحاربون جهراً إلا إذا كانوا قادرين .

وهم بذلك يختلفون عن الخوارج فقد كانوا ظاهرين في حروبهم ، وغلبت على الخوارج الطبيعة البدوية في الصراحة ، ومن ثم كان أكثرهم لا يقول بالتقية أما الباطنية فقد قالوا بالتقية وكانت أساساً في عقيدتهم وعقيدة غيرهم من الشيعة، والتقية هي النفاق السياسي والمدارة للأعداء وقت قوتهم ، وهي أن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، وقال الخوارج إن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب العقيدة .

أما أهل السنة فقالوا : من خاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده ، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه ^(١) - مستندياً إلى قوله تعالى : ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ .

(١) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٤ .

ومن السهل البارزة للحركة الباطنية في مرحلة الستر أن كل إمام كان يحمل اسمين : اسماً حقيقياً وآخر سرياً أو حركياً^(١) .

ونظم الدعوة الباطنية في البداية جماعة من الخارجين القرس على الدولة العباسية الذين آذاهم ما حدث من الدولة العباسية لزعمائهم مثل أبي سلمة وأبي مسلم ، وفشلت حركاتهم العلنية في النيل منها ، ومن ثم فكروا في الاتصال بالعرب الشيعة الغاضبين على العباسيين وقاموا بتعزيز حركاتهم سرّاً للنيل من الدولة العباسية وكان ذلك أيام أبي جعفر المنصور ، ووجد الشيعة في الموالي الفرس المتذمرين والحاquدين على الدولة مفكرين أقوياء قادرين على التنظيمات السرية بنفس الدرجة التي كانت عليها سرية الدعوة العباسية عندما واجهت الدولة الأموية ، ودخل كثير من الفرس الحاقدين على العباسيين الى هذه الحركة السرية الشيعة التي أطلق عليها فيما بعد الحركة الباطنية لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سرّاً ، ولأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أى المستور ، ولقوهم فيما بعد إن لكل ظاهر باطناً ولكل تزييل تأويل " كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعائهم بإمامة (إسماعيل بن جعفر الصادق) وهو الإمام السابع في نظرهم وليس هو (موسى الكاظم) كما يرى الاثنى عشرية . وقام بالدعوة الباطنية في البداية (أبو الخطاب الأسدي) بالولاء واسمه محمد بن أبي زينب وكنيته أبو الخطاب فارسي الأصل ، وكان نشاطه بالكوفة فقتله عيسى بن موسى والى الكوفة سنة ١٤٣ هـ وقال عنه أنه ادعى أن جعفر الصادق إله .

وكان معه في الدعوة منذ قامت رجل فارسي آخر هو (ميمون القداح) المكنى بأبي شاكراً ، وكان متفنناً في درس الأساطير الدينية والبحوث الكلامية والجدل فلسفي ومتآمراً جريئاً ، وكان ميمون في الأصل من سبي الاز^(٢) أظهر إسلامه وبدأ حياته الإسلامية مولى (لجعفر الصادق) ، وكان داعياً لآل البيت ، ثم

(١) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٣٥٣ .

(٢) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٩٣ .

قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة في أواخر عهد المنصور ، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبهم الشهير بمذهب الباطنية أو الإسماعيلية ، وخرج ميمون من السجن وانتشرت دعوته في جنوب فارس وجنوب العراق وتوفي ميمون سنة ١٧٠هـ وترجع المصادر الإسماعيلية نسبة إلى سلمان الفارسي^(١) والواقع أن تاريخ نشأته يكتنفها الغموض والإبهام .

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده (عبد الله) الذي كان على غرار أبيه في الذكاء والبراعة فنظم الدعوة ويقال إن هذه الجماعة اتخذت من بلدة (ساباط)^(٢) من أعمال المدائن القديمة مركزاً لدعوتها حيناً من الدهر ، وعلمت به الدولة العباسية فطاردهم فانتقلوا إلى (البصرة) .

وكانت (البصرة) مركزاً لالتقاء الفكر الاسلامي بهذه الأفكار لأفها أدنى مدينة عربية إلى فارس وتقع على باب الصحراء التي يفر إليها ويتخذها حى له كل خارج مدافع للخليفة . فقد كانت البصرة يحكم موقعها الجغرافي ملتقى رجال الشرق الواسع من فرس وسنود وديلم بمفكرى الاسلام ، فيها التقت المانوية والزرادشتية والمزدكية والبرهمية وغيرها من تلك النحل القديمة التي جاء الاسلام يغزوها بدينه الفطري السهل^(٣) .

كانت البصرة مأوى لكل من يكد للإسلام والخلافة لقرها من بلاد الفرس ، فتجمعت فيها أخلاط من الفرس والديلم والعرب وغيرهم ولم ينس الفرس والديلم ما كان لهم من ديانات فتآمروا على الإسلام ووجدوا الأنصار قريبا منهم في الأهواز وفارس ، وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية أو البحر الخليج حتى تناح لهم فرصة أخرى.

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص ١٣٩ .

(٢) قيل إنه أتى ميمون جاء أولا من مكة وانتقل إلى الأهواز ، وقيل إنه جاء من محل الأهواز يدعى قورج العباس ونزل مسكن مكرم ثم ذهب إلى ساباط أبي نوح . المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) عن المصنف . أخبار المصنف ، ص ٨٩ .

في هذه السيرة التي تتصارع فيها الأجناس والأفكار والعقائد ظهرت قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية :

أحدهما : قوة الفاطميين التي انتقلت فيما بعد إلى مقر سري بالشام هو قرية (سَلْمِيَّة) من أعمال حمص التي أضحت موئل الإسماعيلية ومجمع أسرارهم في فترة الدعوة السرية حتى ظهورهم باليمن والمغرب .

الأخرى : قوة القرامطة ، وهي منظمة عاتية من قطاع الطرق ظلت بالبصرة ، وانتقل رجالها إلى شرقي الجزيرة العربية بالبحرين والأحساء واليمامة عندما أصبحت لهم قوة تقف معهم من القبائل العربية ، وكان لهم فرع بالشام .

فبعد وفاة (عبد الله ميمون القداح^(١)) قام ابنه أحمد بترتيب الدعوة ، فبعث بالحسين الأهوازي داعية له بالعراق فالتقى (بمحمدان بن الأشعث) المعروف (بقرمط) في سواد الكوفة فدعاه إلى مذهبه فأجابته وقام حمدان بأمر الدعوة بالكوفة وإليه تنسب القرامطة^(٢) .

ويذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق : " أن الذين راجت عليهم أفكار الباطنية أصناف ثلاث :

أحدهما : العامة الذين قلت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والأكراد وأولاد الجوس .

(١) توفي عبد الله بن ميمون القداح بعد سنة ١٨٠ هـ وكان مولى لحمد الباقر كما كان والده مولى لجعفر الصادق وتقول المصادر الشيعية بأن معنى القداح - الذي ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . وهناك تناقض في السنين فبعض المصادر تجعل ميمون وابنه معاصرين لجعفر الصادق وإسماعيل ، وبعضها تقول إن عبد الله عاش في آواخر القرن الثالث الهجري (الفهرست طبعة طهران ، ص ٢٣٨) فيذكر الفهرست أن عبد الله كان حياً سنة ٢٦١ هـ .

(٢) حمدان قرمط أصله من خوزستان ، واختلف في اسمه قيل : حمدان وقيل الفرج بن عثمان وقيل الفرج بن يحيى ، أما (قرمط) فهو لقبه لجمرة في عينه ، أو لقرمطة في شكله أو مشيته توفي سنة ٢٩٣ هـ (الزركلي الأعلام) وانظر : احسان المظهير ، الإسماعيلية ، ص ٩٧ . ومصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص ٢٨ - ٢٩ .

ثانيهما : الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عودة الملك إلى العجم .

ثالثهما : إغتام بنى ربيعة من أجل غيظهم على مضر لخروج النبي منهم ، ومن أجل حسد ربيعة لمضر بايعة بنو حنيفة (مسيلمة الكذاب) طمعاً في أن يكون في بنى ربيعة نبي كما في بنى مضر نبي ^(١) ولهذا قال قائلهم لمسيلمة : والله إني أعلم أنك لكاذب ومحمد الصادق ولكن كاذب ربيعة أفضل عندنا من صادق مضر) .

وكان دعاة الباطنية يدخلون إلى المدعويين من مدخل سهل تبع ميولهم وعلى العموم فقد كان مدخل "حبة آل البيت" والأخذ بيدهم لأنهم ظلموا هو المدخل السهل ، ويذكر البعض ^(٢) أن التشيع لآل البيت أصبح مأوى يلجأ إليه من أراد هدم الإسلام لعداوة وحقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون سحب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم . ويُروى أن أبا طاهر بعد سفكه الدماء بمكة وعودته إلى البحرين " جمع الناس بالبحرين ، وقال : يا معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم ، مرة بمحمد ، ومرة بعلي ، ومرة بإسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد بن إسماعيل ، وبالمهدى " ثم أشار إلى الداعي زكريا الطامى وقال " وهذا إلهنا وإلهكم ، وربنا وربكم " ^(٣) ومع ذلك فإن أبا طاهر لم يلبث أن قتل إلهه هذا (زكريا الطامى) عندما حاول زكريا الأفراد بالأمر .

(١) البغدادى الفرق بين الفرق ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٧٦ .

(٣) أخبار الفرامطة ، لمسهيل زكار . ص ١٥٣ ، طبعة دار الكوثر الرياض ١٩٨٩ .

انتقال الحركة الباطنية الى سلمية :

ليس معروفاً باليقين متى انتقلت الحركة الباطنية الى سلمية ، وإن كانت المصادر الإسماعيلية تنص على أن الانتقال تم في سنة ١٩٤ هـ^(١) ، وعلى كل حال فعندما انتقل نشاط الباطنية الى سلمية بالشام بدأ نشاط مكثف للدعوة الباطنية في دور الستر الذي استمر حتى سنة ٢٩٦ هـ . فيما يتعلق بإعداد الدعاة وتوجيههم وإرسالهم الى شتى النواحي .

وسلمية تقع على حافة بادية الشام تلتقى عندها الطرق الآتية من البادية ومن العراق وهي تابعة لحمص بينها وبين حمص ٣٥ ميلاً ، وينطقها أهل الشام " سلمية " ويضبطها ياقوت في معجم البلدان " سلمية " ^(٢) .

وأنشأت الحركة في سلمية مدرسة سرية لتخريج الدعاة الذين تفرسوا في فنون المناظرة والجدل ، وتذكر المصادر الإسماعيلية التي ظهرت مؤخراً بأن الأموال والذخائر كانت تنقل إلى سلمية بواسطة الدعاة ، وتم حفر سرداب في الصحراء حتى داخل بيت الإمام طوله خمسة عشر ميلاً ، وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل وتزل فيه بأحمالها عليها حتى تحط في داخ 'الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد وقيل إن الأموال التي كانت تصل إليها عظيمة جداً ، وهكذا أصبحت (سلمية) مركزاً رئيسياً للدعوة الباطنية بما ساعد على انتشارها بسرعة في الشام والجزيرة العربية والعراق والمغرب نظراً لسرعة وسهولة تحرك الدعاة منها إلى هذه الأماكن ، وكان المخطط الكبير لهذه الدعوة هو (عبد الله بن ميمون القداح) وأبناؤه من بعده .

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص ١٤٩ .

(٢) معجم البلدان ، مادة سلمية .

حركة القرامطة بالبحرين :

كانت حركة القرامطة هي التي ظهرت أولاً في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على يد ثلاثة رجال هم :

١. الرجل الأول : هو حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط وأصله من خوزستان واختلف في اسمه ، ف قيل (حمدان) ، وقيل (الفرج بن عثمان) وقيل (الفرج بن يحيى) وقرمط لقبه لقرمطة في شكله أو دقة في مشيته أو لحمرة في عينيه ، وكان مركز نشاط حمدان في (بلاد السواد الكوفة) وما حولها ، وهو الذي نسبت إليه حركة القرامطة كلها بشق فصائلها في شرقي الجزيرة العربية وبادية الشام .

٢. الرجل الثاني : هو (أبو سعيد الجنابي) داعي (البحرين) في شرقي الجزيرة العربية ، وهو منسوب الى (جنابة) على الشاطئ الفارسي للخليج^(١) ، وهو مؤسس دولة القرامطة في البحرين وسميت دولته بالقرامطة لأنه أخذ الدعوة الباطنية من حمدان قرمط .

٣. الرجل الثالث : هو (زكرويه بن مهرويه) الذي تولى الدعوة في بادية الشام وبعض بلاد الشام ، وهو بذلك مؤسس حركة القرامطة في هذه الجهات وأخذت لقب القرمطي لأنه هو الذي اختاره للدعوة الباطنية .

وصادفت حركة القرامطة نجاحاً كبيراً بين القبائل العربية وعلى الأخص في شرقي الجزيرة العربية وبادية الشام ، وذلك لأن القبائل العربية كانت نائمة على الدولة العباسية بسبب موقفها من العرب فلم تشركهم في جيوش الدولة وشؤونها فقلت هجرتهم الى خارج^(٢) في القرن الثالث الهجري بالإضافة الى قلة الخيرات في الصحراء ، كل هذه الظروف ساعدت حركة القرامطة والنفوذ الفاطمي في التغلغل بين القبائل العربية التي قلت بصائرهم بمرامي الحركة الباطنية وخطورتها على الاسلام.

(١) جنابة : بلدة صغيرة على سواحل فارس بينها وبين سيراك أربعة وعشرون فرسخاً أنظر ياقوت معجم البلدان مادة جنابة .

ولم يلبث أن اختفى (حمدان قرهط) في تاريخ مجهول ، وقد اشتدت حركة القرامطة عنفاً بعده ولا سيما عندما نجحت في استمالة بعض القبائل القوية والعنيفة مثل (بنى هلال) و (بنى سليم) و (طئي) و (بنى عقيل) ، وتمكن الجنابيون من أن يهجروا معهم بنى هلال و بنى سليم الى البحرين ، وكانت الخلافة العباسية هي المركز الذى تنصب عليه نقمة القرامطة ، فقد وصفوها بأنها مصدراً لكل شر ومنبعاً للظلم ورمزاً للطغيان والفساد ولذلك تعاون الجميع على إسقاطها وتدميرها وتحطيم كل ما قام بها وارتبط بها وتفرع منها ودعمها وساندها^(١) وهذا الموقف النفسى هو الذى يفسر لنا موجة العنف العارمة التى بدأ بها القرامطة مسيرة الإرهاب أو الثورة ضد الدولة العباسية وتطابير شرهم فتال الآمنين في الأراضى المقدسة في مكة والمدينة وطريق الحجاج ، وعلى الأخص في عصر المقتدر (٥٩٢-٣٢٠هـ) .

فقد شهدت سنوات حكم المقتدر هجمات قادها (أبو طاهر الجنابي) خليفة (أبى سعيد الجنابي) حيث وجه ضرباته الى أماكن حساسة بالنسبة للسلطة في بغداد ، ففي سنة ٣١٧هـ دخلوا مكة بزعامه (أبى طاهر الجنابي) وقتلوا من الحجاج وأهل مكة أعداداً لا يتناولها الحصر قيل في بعض الروايات أنها بلغت ثلاثين ألفاً ، وأخذوا الحجر الأسود وفروا به الى مركزهم في البحرين وتوسط الفاطميون لديهم فردوا الحجر الأسود الى مكة سنة ٣٣٩هـ .

وحدث انشقاق بين القرامطة وإمام الإسماعيلية حتى قبل قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ وتمرد جماعة زكرويه بن مهرويه ببادية الشام على أوامر الخليفة الفاطمى ، وبدأوا يعملون لحسابهم في بلاد الشام وتصادموا مع الفاطميين والجنابيين .

وبعد وفاة أبى طاهر القرمطى (٣٣٢هـ) خلفه ابن أخيه (الحسن الأعصم) وفي عهده حدثت حروب بين القرامطة والفاطميين للترافع على الشام سنة ٣٥٨هـ

(١) انظر : مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٨٧ ، مقال بعنوان القرامطة .

وهاجم الحسن الأعصم دمشق سنة ٣٦٠هـ واستولى عليها وهاجم مصر واقترب من القاهرة ومعهم جماعة من (طئي) على رأسهم (حسان بن الجراح) ، وجماعة من (بنى عقيل) على رأسهم (ظالم بن موهوب) العقيلي سنة ٣٦٣هـ ^(١) لكن المعز فرق جموعهم بعد أن استمال زعماء بنى طئي والعقيليين بالمال والمناصب في دولته .

عقائدهم :

ويحدثنا ناصر خسرو الذى زارهم في مركزهم بالأحساء عن عقائدهم فيقول :
 "وسلطانهم أبو سعيد ردهم عن الاسلام وقال : إني أعفيتكم من الصلاة والصوم ودعاهم الى مرجعهم لا يكون إلا إليه ، ... وهم لا يصلون ولا يصومون ولكنهم يقرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته ، ... وليس في مدينة الأحسا مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة أو خطبة ، وإذا صلى أحد فإنه لا يُسمع ، ولكنهم أنفسهم لا يصلون ، ويجب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع ولا يشربون (يعنى الخمر) مطلقا "

" وفي الأحسا تباع لحوم الحيوانات كلها : من قطط وكلاب ، وحمير وبقر وخراف وغيرها " ويقول: ناصر خسرو عن البدو :

" وعندى أن كل البدو يشبهون أهل الأحسا ، فلا دين لهم ومنهم أناس لم يمسه الماء أيديهم مدة سنة ، أقول هذا عن بصيرة ، لا شئ فيه من المغالاة ، فقد عشت في وسطهم تسعة أشهر دفعة واحدة لا انقطاع بينهما ^(٢) " .

ولقد ظهرت في الآونة الأخيرة دراسات تحاول أن تتناول تاريخ القرامطة من جديد وإلقاء الضوء عليهم بطريقة محايدة وخاصة أن الذين كتبوا تاريخهم هم أعداء القرامطة ونقلت الكتب ما قاله أعداؤهم .

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ من أحيار القرامطة لسهيل زكار .

ويذكر هؤلاء أن القرامطة كانت لهم نظم سياسية واقتصادية وعسكرية و اجتماعية لا بأس بها وجديرة بالدراسة ، وأن ما قاموا به من حب للتدمير وسفك للدماء كان جديرا بأن يقضى على دولتهم في وقت قصير كما حدث لحركة الزنج لولا هذه النظم التي حمت الدولة وأطالت عمرها إلى حوالي القرنين^(١) .

ويتحدث الدكتور أحمد شلبي عن نظمهم فيقول :

" ففي مجال النظام السياسي كان هناك مجلس شورى هو الذى يدرس أمور الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويتخذ فيها القرارات التى يراها ن وكان هذا المجلس يسمى مجلس " القعدانية " ويتكون من أبرز الشخصيات في النواحي السياسية والعسكرية والإدارية ، وكان عدد أعضائه اثني عشر عضوا . أو ستة في بعض الروايات .

ومن الناحية الاقتصادية وضع القرامطة نظاما أقرب الى ما يسمى الآن بالنظام الاشتراكي ، أو حتى النظام الشيوعي . : جعلوا الدولة تملك كل شئ ، وتنفق على ترحيل حسب حاجتهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة جمعوا أموال كل قرية في موضع واحد منها ، وأقاموا على الأموال رجلا من الثقات ، يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم ، حتى لم يبق في البلاد فقير ولا محتاج .

ويذكر عارف تامر أن القرامطة لم يكن عندهم ضرائب ولا أعشار ، وإذا احتاج أحدهم أعانة الآخرون ، وكل غريب يتزل أرض القرامطة وله صناعة كان يعطى ما يكفيه من المال ليشتري ما يلزم لإنفاض صناعته من مال وآلات ، وكانت عندهم بيوت لسكنى الغرباء على حساب المجموع .

(١) أحمد شلبي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٦١١ .

وفي الناحية العسكرية أدرك القرامطة أن إخلاص الجند يرتبط بمدى إغداق الأموال عليهم ، ومن هنا كان سخاؤهم الواسع على رجال جيشهم ، وعلى البدو الذين كانوا يساعدونهم في الحروب .

أما الجيش القرمطي ، فقد عفى أبو سعيد بوضع الأسس التي توفر له جيشا يجمع بين الإخلاص والولاء وحسن التدريب ، وعلى هذا كان يختار من سن الرابعة من تبدو عليه الصحة والعافية ، ويجمعهم في دور مخصصة لذلك ، ويعين لهم المشرفين والمعلمين ، وكان يسمّ هؤلاء الأطفال بسمة على الحدود حتى لا يختلطوا بغيرهم ، فإذا شبوا قدم لهم دراسات في ركوب الخيل والطعان ، فكان هذا النظام أشبه بما أسماه الأتراك فيما بعد بالجيش الانكشاري ، ولم يكن جيش القرامطة على هذا النمط يعرف إلا الولاء الكامل للدولة وللزعيم .

وفي الناحية الاجتماعية عرف المجتمع القرمطي نظام الطبقات ، وكان يتكون من طبقة الحكام ، ولهم السيطرة على النظم الإدارية وقيادته السياسية ، " وطبقة العرب " وكانوا يكونون العنصر العسكري في الدولة ، وطبقة العمال والفلاحين ، وهؤلاء يزاولون التجارة وبعض الحرف ، ومن أهمها الزراعة .^(١)

ولا شك أن انحراف القرامطة الديني جعل كثيرا من الكتاب يتناول تاريخهم من الناحية الدينية ولا يتناول تاريخهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري وما الى ذلك من أوضاع داخلية لهم ، ومن الكتاب الذين بدأوا يلغون الضوء على هذه الجوانب المؤرخ السوري المعاصر (سهيل زكار) في كتابه " أخبار القرامطة " .

ثم لم تلبث أن فقدت حركة القرامطة قوتها ، فقد هاجمهم البويهيون في عقر دارهم في أحساء بمعاونة زعيم من بني المنتفق الذين كانوا يتزلون جنوب العراق

(١) أحمد شلبي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٦١٢ - ٦١٣ .

يعرف بالأصفر سنة ٣٧٨هـ ونهبوا القطيف وبذلك انتهت حركتهم عملياً في أواخر القرن الرابع الهجري^(١).

ويعدّها البعض في عداد الدول لأنها سيطرت على المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية نحو قرنين من الزمان ، إلا أننا نعتبرها منظمة إرهابية أشاعت الخراب والفوضى والدمار في شتى أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ، وما فعلته بالأراضي المقدسة لا يقوم به مسلم ينتمى الى الاسلام ، فهم جماعة من قطاع الطرق تحللوا من جميع الحدود والقيود الإسلامية .

نهاية القرامطة :

عندما ضعفت حركة القرامطة قضى عليها بعض الزعماء العرب في منطقة البحرين ، أمثال (عبد الله بن علي العيوني) الذي ينسب الى منطقة العيون بالأحساء وهو من بني عبد القيس ، فثار على القرامطة في الأحساء واستطاع أن يقضى عليهم فيها سنة ٤٦٩هـ .

وفي جزر البحرين ظهر (البهلول محمد بن يوسف) وكان في بدايته عاملاً للقرامطة في جزر البحرين يؤدي إليهم المكوس ، فلما ضعف أمر القرامطة بسبب صراعهم مع الأحساء تمكن البهلول من الاستقلال بهذه الجزر .

وخرج على القرامطة في القطيف (يحيى بن عباس) ، وطرد منها عمال القرامطة واستولى عليها ، ولم يعد للقرامطة بها نفوذ ، وكون كل واحد من هؤلاء لنفسه إمارة بعيداً عن نفوذ الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وانتهت بذلك دولة القرامطة في ٤٦٩هـ بعد حوالي قرنين من الزمان^(٢).

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٣٧٨هـ .

(٢) أحمد شلبي ، ج ٧ ، ص ٦١٠ - ٦١١ .

ثم حدث تنافس شديد بين هؤلاء الزعماء انتهى بسيطرة العيونيين على المناطق الثلاث الجزر والأحساء والقطيف وكونوا دولة العيونيين وهي إمارة وراثية دامت أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان (٤٧٠ - ٦٣٠هـ) .

النفوذ الفارسي :

عندما ضعف أمر العيونيون تدخل ملوك الفرس في أمر البحرين واستولوا على البحرين والأحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج وكان ملوك الفرس يولون أمراء من العرب .

النفوذ المصري :

وبدأت منطقة البحرين الواسعة في التفكك والانقسام بعد عصر العيونيين وفي غضون ذلك كان الزحف المغولي المدمر لشرقي العالم الاسلامي ودخولهم بغداد سنة ٦٥٦هـ وخضعت منطقة البحرين للمغول ، عهد هولاكو ، ولكن مصر أنقذت العالم العربي من شر المغول وتمت هزيمتهم في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٩هـ على يد القائد سيف الدين قطز والقائد الظاهر بيبرس المملوكين .

وبدأ حكام منطقة البحرين يعترفون بالولاء لحكومة مصر طيلة عهد المماليك حتى جاء القرن العاشر الهجري (١٦م) ومعه الزحف العثماني والزحف الاوربي .

النفوذ العثماني والأوربي :

عندما نجح البرتغاليون في الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح بدأوا في دخول الخليج العربي في سنة ٩١٣هـ لإحكام السيطرة عليه وغزو المراكز التجارية وأهمها من الجنوب الى الشمال (قلعات) وقريات ، ومسقط ، وصحار ، زرفكان ، وهرمز ، والبحرين ، والقطيف ، والبصرة ، وقضوا على مملكة هرمز الاسلامية التي كانت تتحكم في مدخل الخليج طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالي . وتخضع لها غالب الإمارات الممتدة من البحرين والقطيف حتى الساحل العماني ^(١) وحول

(١) العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ٩-١٠ .

البرتغاليون التجارة عن مجراها التقليدى ، فحرنت منطقة الخليج من مصدر أساسي من مصادر ثروتها .

وفي نفس الفترة زحف العثمانيون على العالم فاحتلوا الشام في ٩٢٢هـ (١٥١٦م) واحتلوا مصر في سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وضموا الحرمين والحجاز واليمن إليهم في سنة ٩٢٣هـ واحتلوا العراق سنة ٩٤١هـ واتصلوا بالخليج عن طريق (البصرة) وأصبح وجود البرتغاليين يهدد سلامتهم . وتقدمت الدولة العثمانية فاحتلت الإحساء قبل وصول البرتغاليين إليها في سنة ٩٤٣هـ .

وبدأ العثمانيون يهتمون بمنطقة الخليج بعد أن كان البرتغاليون قد أكدوا سيطرتهم عليها ، وحاولت الدولة العثمانية الدفاع عن العالم الاسلامى في هذه المنطقة، وذلك مثل الدور الذى لعبته الدولة العثمانية في وجه الغزو الأسباني لحوض المتوسط . غير أن الشاطئ العربى كان خلوا من الكيانات القوية أو أى تنظيم سياسى يشبه الدولة حتى تعتمد الدولة العثمانية عليه في حماية المنطقة من التدخل الأجنبى وذلك مثلما فعلت في شمال أفريقيا .

وكان هدف البرتغاليون في الخليج الهيمنة العسكرية في كلا الشاطئين الفارسي والعربي ، وعندما أتى الانجليز والهولنديون كانوا يبغون أصلا التوسع في الأعمال التجارية مع فارس والعراق وهى الأقطار التى ينتشر فيها العمران ، أما الشاطئ العربى من عمان الى العراق فكان يخضع لحياة قلية وكانت هذه الحياة لا تحقق شيئا من مصالح الشركات الاحتكارية ، وفي القرنين ١٨، ١٧ بدأت تظهر قوى وطنية هامة في الساحل العربى كالسعوديين في الأحساء وآل الصباح في الكويت وآل خليفة في قطر والبحرين واليعاربة والقواسم في ساحل عمان .

ويرجع أصل هذه الأسر الى قبائل العتوب التى خرجت من نجد الى ساحل الخليج فاستقر فرع من العتوب في ميناء الكويت تحت زعامة (أسرة الصباح) ،

وفرع آخر في الزبارة المواجهة للبحرين تحت زعامة (آل خليفة) بينما فرع ثالث هو (الجلاهية) سكن قطر .^(١)

وكانت أسرة اليعاربة في عمان هي القوة التي ظهرت أولا في الخليج لمقاومة البرتغاليين في مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، وارتبط قيام أسرة اليعاربة بإحياء نظام الامامة الإباضية ، وتمت البيعة للامام (ناصر بن مرشد اليعربي) سنة ١٦٢٤م فوحد عمان وبدأ مقاومة الوجود البرتغالي حتى تم لليعاربة إجلاء البرتغاليين من الخليج وفي سنة ١٦٥٠م أخرجوهم من (مسقط) وتبعوهم في الهند وشرق أفريقيا ، وتمكنوا من إقامة دولة لهم في شرق أفريقيا وقد تناولنا ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن عمان .

(١) صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص ٥٦-٥٧ .

اليمن

نقصد باليمن هنا اليمن بمعناه الواسع قبل أن يتم تقسيمه إلى شمالي وجنوبي بعد دخول الاستعمار البريطاني إلى عدن سنة ١٨٣٩ م . وهذا المعنى يحتل اليمن الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ويقع بين خطى عرض ١٢-١٨ شمالاً وتحيط به المسطحات المائية العريضة فيحده من الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب البحر العربي وخليج عدن . ويغلب على تضاريس اليمن الطابع الجبلي وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام تمتد موازية للبحر الأحمر تقريباً^(١).

١ - إقليم تهامة اليمن :

وهو امتداد لتهامة الحجاز وهى منطقة سهلة ساحلية منخفضة يتراوح ارتفاعها فوق سطح البحر من ١٥٠-٢٠٠ م ويتمتد من حدود المملكة العربية السعودية شمالاً إلى باب المندب جنوباً بين ساحل البحر الأحمر والمرتفعات الجبلية ، ويتراوح عرضها بين ٤٠-٦٠ كم وتحتوى على تربة خصبة صالحة للزراعة وتوفر فيها المياه الجوفية إلى جانب مياه الأودية المنحدرة من الجبال نحو البحر الأحمر ، ويتميز مناخ هذا الإقليم بارتفاع درجة الحرارة لقربه من خط الاستواء كما ترتفع في نفس الوقت درجة الرطوبة، وتتراوح معدلات الحرارة صيفاً بين ٤٠-٤٥ م° وشتاءً بين ٢٥-٣٠ م° أما الأمطار فهي قليلة .

وتعتبر تهامة أهم منطقة زراعية متصلة في اليمن ، حيث تجود بها زراعة التبغ والقطن ، ولذلك اشتهرت مدينة زبيد أهم مدن تهامة بصناعة المنسوجات ، وأحياناً يكثر النخيل ببعض أجزائها .

(١) ويذكر أحمد حسين شرف الدين أن اليمن من الناحية الطبيعية تشمل أيضاً : عُمان والعُروصر واليمناما والبحرين وعُسير وعُمران وادخلات المليندان . أنظر : اليمن عبر التاريخ ، ص ١٤ .

٢- المرتفعات الجبلية :

وهي تلي هامة شرقاً وهي امتداد لجبال السراة التي تبدأ في فلسطين وتنتهي في اليمن موازية لهامة والبحر الأحمر ، وتنقسم من حيث الارتفاع الى قسمين : القسم الجنوبي : ويبلغ ارتفاعه من ٦٠٠-١٥٠٠م فوق سطح البحر ، والقسم الشمالي : ويبلغ ارتفاعه من ١٥٠٠-٣٥٠٠م وتكثر المرتفعات بهذا القسم كما توجد به أعلى جبال شبة الجزيرة العربية على الإطلاق وهي قمة جبل النبي شعيب (٣٧٦٠م) وتقع غربي صنعاء والمرتفعات الجنوبية طقسها معتدل ولا يوجد بها فرق كبير بين النهايتين الصغرى والكبرى لدرجة الحرارة ، وتغزر الأمطار بهذه المنطقة مما يترتب عليه وفرة في النباتات ويزرع بها البن والقات وغيرهما من المزروعات وخاصة في الأراضي التي ترتفع فوق ٨٠٠م ، حيث تبدأ زراعة المدرجات التي اشتهر اليمنيون بزراعتها طوال التاريخ.

أما القسم الشدائي . فتشدد به البرودة وتنخفض درجة حرارته أحيانا تحت الصفر وخاصة في الليل مثلما يحدث في صنعاء وتغزر الأمطار في هذه المنطقة فتصل الى ١٠٠٠مم في السنة في بعض الجهات ، ومنطقة المرتفعات ليست جبلية وعرة بوجه عام بل هي هضبة عالية يتخلل جبالها كثير من الوديان والسهول التي تجود بها الزراعة مثل : الحبوب والفواكه والخضر .

٣- المنطقة الشرقية:

وهي تمتد بشكل مواز لمنطقة هامة وتبدأ الى الشرق من صنعاء بحوالي ١٠كم ويقل ارتفاعها عن سطح البحر كلما اتجهنا شرقاً حتى تنتهي الى صحراء الربع الخالي ، ومناخ هذه المنطقة معتدل بوجه عام وتقل المياه والنباتات بها كلما اتجهنا شرقاً ، ويمكن زراعة كثير من الأراضي بهذه المنطقة إذا توفرت المياه اللازمة فهذه المنطقة هي التي أقيم بها سد مأرب المعروف في تاريخ اليمن القديم وتسمية منطقة الجوف .^(١)

(١) الجوف وتعني الداخل .

واليمن عفى نباتاته وبالحياة الزراعية ، فهو أكثر جهات شبه الجزيرة العربية اخضراراً ولذلك أطلق عليه اليونانيون القدماء (العربية السعيدة) أو اليمن السعيد^(١) ، ويرجع ذلك الى وفرة أمطاره ووفرة مياهه الجوفية ثم خصوبة تربته البركانية ، ويضاف الى ذلك نشاط شعبه واتقانه زراعة المدرجات الجبلية .

وينقسم أهالي اليمن الى :

سهلين وجبليين ، وقد أدى هذا الانقسام إلى وجود اختلافات طبيعية وسلوكية بين السكان هناك ، فقد عرف الجبلى بالتحافة وكثرة الحركة و شدة الحيوية ، كما اتصف بالذكاء والحذر من الغرباء والشك فيهم ، وذلك على عكس السهلى الذي يميل إلى البدانة والاسترخاء والركون والراحة والمسألة ولين العريكة . ولا يقتصر وجود السهليين على مناطق قحاة أو أكثر مناطق الشرق أو الجوف بل يمكن أن نعتبر أن أغلب أهالي جهات جنوب الهضبة من السهليين أيضا ففي هذه الجهات لا ترتفع الجبال كثيرا ، كما أنها مناطق تشتهر باعتدال مناخها ووفرة أمطارها ونباتاتها .

وقد كانت الجبال الشمالية المرتفعة ملجأ حصيناً يلجأ إليه العصبيات السياسية والدينية ، كما هو الحال بالنسبة للمناطق الجبلية دائما في الجهات المختلفة من العالم ، ولذلك لم يكن غريباً أن يبدأ ظهور المذهب الزيدى في اليمن في مدينة (صعدة) في أقصى الشمال ثم ينتشر بعد ذلك فوق المناطق الجبلية الشمالية فقط ، كما ظهر الصليحيون^(٢) وهم كذلك من الشيعة من غير الزيديين في جبال (حراز) الشامخة الارتفاع إلى الغرب من صنعاء .

وكان يوقوع اليمن على الطريق التجاري القديم أثر في تاريخه ، فقد كان البحر الأحمر منذ القدم هو طريق الاتصال بين الشرق والغرب تجاريا وثقافيا وحضاريا ،

(١) وقد اشتق اسمها من (اليمن) وهو الرخاء والبركة . المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٢) تمكن هؤلاء من إقامة دولة قوية لهم في أغلب جهات اليمن في القرن الخامس الهجري واتصلوا بالفاطميين في مصر ودانوا لهم بالطاعة والتبعية .

الأمر الذي جعل أبناء اليمن يتفوقون في مجال التجارة البحرية ، وكان اليمنيون القدماء يترحون باستمرار وراء التجارة في جماعات- صغيرة لتكوين الجاليات أو المستعمرات على طول طريق القوافل القديم إلى شمال الجزيرة ، و إلى شرقي أفريقيا و إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، ولم يحد من نشاطهم البحري خارج الجزيرة العربية سوى الهجمة الأوربية حول العالم الإسلامي التي بدأها البرتغاليون وغزوهم للبحار الشرقية عندما نجحوا في اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول أفريقيا في مطلع القرن العاشر الهجري (١٦ م) . كما ارتبط نتيجة موقعه أيضا بمصر والحبشة والحجاز سواء عن طريق العلاقات التجارية الودية أو عن طريق الخضوع والولاء .

والشعب في أغلبه عربي قحطاني مسلم مع وجود بعض العناصر الزنجية والصومالية في إقليم تهامة ، ويبلغ الزيديون في اليمن ما يقرب من نصف السكان يتركزون في المنطقة الشمالية والجبالية ومنهم كان أئمة اليمن قبل قيام الحكم الجمهوري . ويتركز السنئون الشافعية في الجنوب والغرب ، وقد أدى تركز السنة في الجنوب والزيديون في الشمال إلى ازدياد التقسيم في البلاد والذي أصبح واضحا بعد احتلال البريطانيين لعدن سنة ١٨٣٩م . ويعتبر القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي بداية لتاريخ اليمن الحديث بسبب تحول التجارة العالمية الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين وما ترتب على ذلك من صراع بين القوى الأوربية الذين جاسوا خلال الديار وبين القوى الإسلامية وتصدع البناء الاقتصادي في اليمن والذي كان يعتمد على اشتغال أهالي اليمن بالتجارة العالمية بين الشرق والغرب ^(١) .

اليمن في صدر الإسلام :

كانت بلاد اليمن في مقدمة بلاد الجزيرة العربية استجابة للإسلام ، فما كاد صوت الدعوة الإسلامية يبلغ إلى اليمن حتى توافدت وفود اليمن على رسول الله

(١) د . السد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، ص ٩ .

صلى الله عليه وسلم ودخل أهل اليمن في دين الله أفواجا حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام في حقهم: " الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة ، الايمان يمان والحكمة يمانية " .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى اليمن (على بن أبي طالب) كرم الله وجهه الى صنعاء وبعث (معاذ بن جبل) إلى الجند للدعوة إلى الإسلام وقد استجاب لهما أهل اليمن ودخلوا الاسلام جميعا .

وقد قسم اليمن اداريا في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد الأمويين والعباسيين حتى القرن الثالث الهجري إلى ثلاثة أقسام أو محاليف حسب تعبير ذلك العصر ، والمخلاف : مثل المحافظة في مصر وهي :

مخلاف صنعاء : ويشمل المناطق اليمنية الجبلية الشمالية .

مخلاف الجند : ويشمل المناطق الجنوبية بما في ذلك قحاة وعدن .

مخلاف حضرموت : ويشمل منطقة حضرموت في الجنوب الشرقي من اليمن .

وفي عهد الخلفاء الراشدين استمرت مسيرة أهل اليمن في الاسلام وحين دغاهم أبو بكر الصديق الى الجهاد فعضوا معه وأشتركوا في طلائع المجاهدين الذين فتحوا الاصقاع الاسلامية في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا ووصل عدد هؤلاء المجاهدين على أيام أبي بكر ما يزيد على العشرين ألفا بكامل سلاحهم وعتادهم^(١) .

وفي عهد الدولة الأموية كان لهم جهاد واضح على أيام (عبد الملك بن مروان) وبنه حيث ذهب المجاهدون من اليمن إلى إسبانيا وجنوب فرنسا وإلى تخوم الصين شرقا ، وكانوا أهم أنصار الدولة الأموية ومن قادتهم المشهورين (عبد الرحمن الغافقي) بطل الفتح الإسلامي في إسبانيا سنة ١١٢هـ وأمير الأندلس (السمح بن مالك الخولاني) فاتح قرطبة ومؤسس الإمارة فيها سنة ٩٨هـ .

(١) أحمد حسين بن عبد الله الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ١٧١ - ١٧٢ .

وكان لليمنيين دور كبير في تدعيم ملك (عبد الرحمن الداخل) الأموي في الأندلس سنة ١٣٨هـ الذي فر عقب قيام الدولة العباسية إلى الأندلس فأنشأ فيها دولة مستقلة وأخذ قرطبة مركزاً لخلافته التي استمرت حتى سنة ١٧٢هـ^(١).

وظلت اليمن تابعة للدولة الأموية وكان الأمويون يرسلون الحكام إليها منذ عام أربعين هجرية حتى سنة ١٣٢هـ حينما سقطت الدولة الأموية وعندما قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ ظلت اليمن تابعة للدولة الإسلامية في العصر العباسي ، وبلغ عمال العباسيين الذين تعاقبوا على اليمن من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢٠٢هـ ما يزيد على أربعين عاملاً وكان آخر هؤلاء العمال على قهامة (محمد بن عبد الله بن زياد) الذي بعثه المأمون إلى اليمن سنة ٢٠٢هـ على إثر تمرد قبيلة الأشاعرة فتمكن من القضاء على تمردهم وإرجاع الأمور إلى مجراها الأصلي وقد استقر بتهمته وأسس مدينة (زبيد) وجعلها عاصمة له وأسس دولة مستقلة باليمن تسمى دولة بني زياد التي استمرت تحكم في اليمن من ٢٠٥هـ إلى ٤٠٢هـ ، ومحمد بن عبد الله بن زياد من نسل زياد بن أبيه الذي خدم الأمويين من قبل .

وقد ظهرت الدول المستقلة في اليمن نتيجة ضعف الخلافة العباسية وتفككها في القرن الثالث الهجري وذلك كما حدث في باقي جهات العالم الإسلامي وأولى هذه الدول في الظهور هي دولة بني زياد الذي أسسها (محمد بن عبد الله بن زياد) سالف الذكر .

دولة بني زياد :

وعلى ذلك تعتبر أول دولة انفصالية نشأت في اليمن هي (دولة بني زياد) خلال حكم الخليفة المأمون ، وحاول (محمد بن عبد الله بن زياد) أن يحكم اليمن كله سواء في منطقة الجبال أو في قهامة ، وقد استطاع بن زياد أن يمد نفوذه في قهامة إلى ما يلي جيزان شمالاً كما استولى على عدن وحضرموت إلى الشحر شرقاً ، ثم أجه إلى

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

الجبـال فاستولى على " الجند " و " صنعاء " و " صعده " و " نجران " شمالا ، ولم يستمر نفوذ بن زياد في المنطقة الجبلية إلا حوالي عشرين عاما فقط ، إذ تمكن (بنو يعفر) من إقامة دولة لهم في هذه المنطقة في سنة ٢٢٥هـ .

دولة بنى يعفر :

وكانت الدولة الثانية هي دولة (بنى يعفر) وهي ثاني دولة نشأت في اليمن خلال حكم الدولة العباسية ، وبنو يعفر ينسبون أنفسهم إلى التبابعة من ملوك حمير الذين أنشأوا دولة في حضاب اليمن ، وقد استولى بنو يعفر على صنعاء سنة ٢٢٥ هـ بزعامه (ابراهيم بن يعفر) واتخذوا صنعاء عاصمة لهم ، وقد استمر حكم إبراهيم بن يعفر حتى سنة ٢٦٠هـ ، وكان أطول سلاطين بنى يعفر مدة في الحكم هو (أسعد بن أبى يعفر) الذى استمر حكمه من ٢٨٢هـ إلى ٣٣١هـ ، واستمر حكم بنى يعفر حتى سنة ٣٩٣هـ وكان آخرهم (أسعد بن عبد الله بن محمد بن قحطان) ، وقد مد بنو يعفر نفوذهم إلى (الجند) جنوبا وإلى (صعده) و(نجران) شمالا وتحاربوا مع الولاة العباسيين مدة طويلة حتى اضطرت الخلفاء العباسيون إلى الاعتراف بنفوذهم في اليمن فجعلوا لهم الولاية في صنعاء وقد امتد حكم هذه الدولة أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان .

دولة بنى نجاح من (٤٠٣ - ٥٥٥هـ) :

كان بنو نجاح ينتمون إلى الأحباش فقد كان نجاح جدّهم مولى لبنى زياد وبعد موت آخر حكام بنى زياد وهو (الحسن بن سلامه) قام بأمر الدولة الأمير نجاح وأعلن نفسه سلطانا على قهامة وراسل الخليفة العباسى ببغداد معلنا ولاءه وطاعته للدولة العباسية فأجازه والياً على قهامة باليمن .

دولة بنى صليح الشيعية باليمن :

تنتمى هذه الدولة إلى مؤسسها (على بن محمد الصليحي) وكانت هذه الدولة همها إرساء قواعد مذهب الباطنية الذى أرساها بن قبل في اليمن (على بن الفضل

القرمطي) و (منصور بن فرج بن حوشب) الذي جاء الى اليمن للدعوة لعبد الله المهدي وبعث معه علي بن الفضل فخرجوا معا الى مكة ثم افترقا فقصده منصور (عدن لاعه) في جهة (حجه) باليمن .

وسبب توجه الباطنية الى اليمن التضيق عليهم في الشام والعراق وصعوبة محاربة الدولة العباسية في عقر دارها فأروا في اليمن أماكن مناسبة لانتشار الدعوة الباطنية وذلك لمناعة جبالها من ناحية ومن ناحية أخرى لبعدها عن مركز الدولة العباسية ومراقبتها:

ويرجع الفضل في قيام هذه الدولة الشيعية في اليمن إلى رجلين : الأول: هو (بن حوشب) وهو الحسين بن فرج بن حوشب وهو المشهور في تاريخ الحركة الفاطمية بلقب (منصور اليمن) ويرجع إليه الفضل في النجاح الذي حققته الدعوة الفاطمية في اليمن فقد قام بمهمته في سنة ٢٦١هـ وكان يقود الحركة الفاطمية في إقليم اليمن ويشرف على تنظيمها في أقاليم أخرى ، فهو الذي أشرف على إرسال الداعي المشهور (أبو عبد الله الشيعي) إلى المغرب وأرسل بعض أتباعه إلى السند وذلك بعد أن شك الإمام في سلوك القرامطة من بني الجنابي وذكره بالشام^(١) .

وكان أول نزول ابن حوشب في (عدن لاعه) وهي قرية من أعمال صنعاء بجبل يسمى جبل صبر ، وحقق نجاحاً في هذه المناطق الجبلية التي كانت تابعة لبني يعفر سادة هذه المناطق والذين كانوا يعلنون ولاءهم للعباسيين ، وكلف بن حوشب من طرفه داعياً يمينياً هو (علي بن الفضل) لكي يقوم بالدعاية الفاطمية في تمامة اليمن واستطاع الرجلان تحقيق إعلان دولة فاطمية باليمن سنة ٢٩٤هـ قبل إعلانها بالمغرب^(٢) .

(١) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٣٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٧-٣١٠ .

والرجل الثاني: الذي يرجع إليه الفضل الأوفر في انتشار المذهب الفاطمي باليمن والمغرب هو رجل يسمى (الحسن بن أحمد بن محمد بن ذكرويه الشيعي) ويعرف بأبي عبد الله الشيعي الصنعائي ^(١) ، كان في بداية حياته يعلم الناس المذهب الاسماعيلي بالبصرة فطلبه إمامه (عبيد الله المهدي) الموجود في محبته في سلمية بالشام ، لكي يذهب الى الداعية بن حوشب باليمن ليدرس عليه ويساعده في حركته ثم يذهب بعد فراغه من الدراسة الى المغرب ، وبعد أن أتم (أبو عبد الله الشيعي) مهمته باليمن ألتقى في موسم حج سنة ٢٨٨هـ ببعض الحجاج من البربر من قبيلة "كتامة" فصاحبهم الى المغرب ومن هنا أنتقل جناح من الحركة الفاطمية من اليمن الى المغرب ، لكن يعتبر نشاط (ابن حوشب) باليمن أقوى نشاط باليمن .

وكان نشاط (علي بن الفضل) قويا أيضا في أرض اليمن حيث قصد أرض يافع فاشتدت وطأته باليمن واستولى على أكثر مخاليفه ولا شك أنه أرسى قواعد المذهب الفاطمي باليمن وكان يطلق عليه أهل اليمن عبارة الزندقة ، ولا يزال باليمن بقايا الاسماعيلية ولا سيما في (حراز) وهم الذين صدروا هذا المذهب الى الهند ومن اتباعهم جماعة (البهرة) الذين هاجروا الى الهند .

وقد حكمت دولة بنى صليح باسم الفاطميين من سنة ٤٣٩هـ حتى سنة ٥٣٢هـ وكان آخر حكامهم الملكة (أروى بنت أحمد بن جعفر الصليحي) والتي كان يقال لها (بلقيس الصغرى) لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك وحكمت من سنة ٤٩٢هـ حتى سنة ٥٣٢هـ وانتقلت من صنعاء الى مدينة (ذى جبله) التي تبعد عن (تعز) ٨٠ كم في جهة الشمال الشرقي وجعلت جبلة مقرا لها ويمكن القول أن السيادة الملكة أروى حكمت معظم البلاد اليمنية وقبضت على ازمة الأمور بيد من حديد منذ سنة ٤٨٤هـ حتى سنة ٥٣٢هـ والفترة التي تقع بين ٤٨٤هـ حتى سنة ٤٩٢هـ كانت تشارك فيها زوجها (المكرم الصليحي) أي أنها

(١) يذکر ابن خلکان عنه أنه من أهل صنعاء وكان من الدهاة .

حكمت ما يقرب من نصف قرن ضربت فيها أروع الأمثال من الخزم والثبات والحكمة والعدل وسداد الرأي . *

وللملكة أروى أعمال كثيرة في اليمن منها بناء جامع (ذى جبله) وعمارة الجناح الشرقي للجامع الكبير بصنعاء وتبليط مدينة ذى جبله بالأحجار ، وغير ذلك من المساجد ومعاهد العلم وحبت عليها الأوقاف الكبيرة التي أوقفتها على هذا المساجد والمعاهد وكذلك على الخيرات والصدقات ورواتب العلماء والمرشدين والمدرسين ^(١) .

دول أخرى باليمن :

ومن الدويلات التي انتشرت باليمن في هذه الفترة العباسية دولة (بنى زريع) التي حكمت في عدن وما حولها في الفترة من ٤٧٠ إلى ٥٦٩ هـ ، ودولة (بنى حاتم) التي أنشأها (حاتم بن علي الهمداني) في صنعاء وما جاورها ، وحكمت هذه الدولة في الفترة من ٤٩٤ - ٥٦٩ هـ ، ودولة (بنى مهدي) التي تنسب إلى مؤسسها (علي بن مهدي الحميري) واستمرت هذه الدولة التي حكمت في " زبيد " وما حولها في الفترة من ٥٥٣ حتى ٥٩٦ هـ .

ودولة بنى أيوب :

في الفترة من ٥٩٦ إلى ٦٢٦ هـ وكان صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ قد انتشر نفوذه في الحجاز واليمن وحاول إحلال المذهب السني بدلا من المذهب الإسماعيلي وإدخال مصر تحت حكم الدولة العباسية ، وكان صلاح الدين قد أرسل أخاه (توران شاه) الملقب بشمس الدين إلى اليمن ومعه قوة كبيرة ووصل إلى (زبيد) في سنة ٥٦٩ هـ وقضى على دولة بنى زريع في عدن وأبقى حكم من تبقى من الصليحيين في جبلة وقضى على دولة بنى حاتم وهكذا أنتهت بالأيوبيين كل دولة في اليمن .

(١) أحمد شرف الدين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

ولم يلبث توران شاه في اليمن أكثر من عام حتى كتب الى أخيه السلطان صلاح الدين يزيد العودة الى مصر فعاد إليها سنة ٥٧٠هـ بعد أن أناب مكانه نواب في "زبيد" و"تعز" و"الجند" و"عدن" .

ولم يرسل صلاح الدين بعد ذلك أحدا الى اليمن لمدة تسع سنوات فكان ذلك سبباً في خروج الكثير من النواب عن الطاعة للسلطان صلاح الدين فلما علم بذلك أرسل أخاه (طفطكين ابن أيوب) سنة ٥٧٩هـ فاستعاد كثيراً من المقاطعات في جنوب اليمن وشماله وكان طفطكين عالماً يحب العلماء والفضلاء ويحترمهم ويبالغ في إكرامهم وهو الذي أنشأ مدينة المنصورة التي تبعد ١٢ كم عن مدينة الجند شمالاً وتوفي سنة ٥٩٠هـ وتولى بعده ابنه (المعز آسماعيل) الذي استمر في الحكم حتى سنة ٥٩٩هـ ثم تولى من بعده أخاه (الناصر بن طفطكين) من سنة ٥٩٩هـ الى ٦١١هـ ، وكان آخرهم (المسعود يوسف بن الكامل) الذي حكم حتى سنة ٥٢٦هـ ، وقد استعانت الدولة الأيوبية بالعنصر الكردي في حكم اليمن نظراً لأصل الأيوبيين الكردي .

دولة بنى رسول :

وهي الدولة التي ملكت في اليمن من سنة ٦٢٦هـ حتى سنة ٨٥٨هـ ، وأول سلطان للدولة الرسولية باليمن هو (المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول) مؤسس الدولة الرسولية بتعز وكان جدهم الأعلى (محمد بن هارون) أحد وزراء الأيوبيين بمصر وكانت له حظوة عند الخليفة العباسي وكان يرسله الى مصر والشام في مهام ومناسبات وبهذا أطلق عليه اسم رسول ، وكان (المسعود الأيوبي) آخر حكام الأيوبيين في اليمن قد أناب (المنصور نور الدين بن رسول) على اليمن مكانه سنة ٦١٥هـ عندما توجه الى مصر وعمل المنصور على تمهيد الملك لنفسه فعين في الحصون والأماكن الحساسة في البلاد أفراداً يثق بهم تمهيداً لنشر نفوذه ولما بلغه خبر وفاة المسعود بمصر سنة ٦٢٦هـ استقل بالأمر لنفسه وخرّب السكة بأسمه وأمر

الخطباء بذكره على المنابر وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد وأرسل يستمد النياية من الخليفة الظاهر العباسي فثبته في الحكم وبدأ يحارب الامام (المهدي أحمد بن الحسين الزيدي) في المناطق الشمالية التي انتشر بها المذهب الزيدي وقد استمرت الحروب بين سلاطين بني رسول وبين أئمة الشمال من بداية الدولة الرسولية الى نهايتها ، وقد انتشر نفوذ الدولة الرسولية في عهد (المظفر يوسف بن عمر بن رسول) (٦٤٧-٦٩٤هـ) إلى (مكة) وقام بضبط الحرمين الشريفين ، وقد تحارب المظفر أيضاً مع (الإمام المهدي أحمد بن الحسين) ثم مع الإمام (يحيى بن محمد السراجي) ^(١) . ثم واصل الفتح حتى بلغت جيوشه الظفار بحضرموت .

اليمن في مطلع القرن العاشر الهجري :

في مطلع القرن العاشر الهجري (١٦م) كان اليمن يتوزع بين قوى عديدة ، فمنطقة الشمال الجبلي كانت موزعة بين عدد من الأئمة الزيديين حول (صعدة) و (صنعاء) و (ذمار) وبعض الأشراف في منطقة الجوف الشرقية . وفي الجنوب كانت هناك سيادة سنية شافعية تركز نفوذها في مناطق (عدن) و(حضرموت وزبيد) ، ونتيجة لذلك وُجد في اليمن نظامان : نظام الإمامة الزيدية في الشمال ، ونظام الملك السني في الجنوب . وكان هذان النظامان في عراك مستمر منذ أن ظهر المذهب الزيدي باليمن ، وكاد السنيون ينتصرون في مطلع القرن العاشر الهجري على يد السلطان (عامر بن عبد الوهاب الطاهري) لولا ما حدث من انقلاب في موازين القوى العالمية نتج عن ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية واستيلاء العثمانيين على العالم العربي .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٥-٢٢٧ .

ويجب علينا بادئ ذي بدء أن نتناول بشيء من التفصيل العوامل التي ساعدت على ظهور المذهب الزيدي في اليمن لكي نستعين بها على فهم أوضاع اليمن في العصر الحديث .

بدأ ظهور المذهب الزيدي^(١) في اليمن في أواخر القرن الثالث الهجري ، ففي سنة ٢٨٠هـ ظهر الإمام الهادي^(٢) الرسي^(٣) في (صعدة) في شمال اليمن ووضع بذلك الأسس لقيام الامامة الزيدية في اليمن ، وبدأ الزيديون منذ ذلك الحين يشاركون مشاركة فعالة في تاريخ اليمن طوال العصور الوسطى ، وكان لظهور الامام الهادي في صعدة في أقصى الشمال الجبلي عاملاً حاسماً في حماية هذا المذهب بعيداً عن متناول أيدي الدول القوية التي ظهرت في اليمن طوال العصور الوسطى ، فقد كان أئمة هذا المذهب ورجالاته يفرون هاربين إلى قمم الجبال ، وشعابها مؤقتاً للتحصن بها . وكانت ظروف اليمن البشرية من العوامل الهامة التي ساعدت على نمو المذهب الزيدي هناك وذلك لانقسام الأهالي إلى قبائل تخضع لرؤسائها خضوعاً كبيراً ، وكان الأئمة يتقربون إلى رؤساء القبائل ويستميلونهم إليهم لنشر الدعوة بين قبائلهم ، وقد ساعدت ظروف المنطقة الجبلية الشمانية على انتشار هذا المذهب هناك فكانت بعض القبائل تشترك في حروب الأئمة من أجل الحصول على الأسلاب والغنائم وكانت قبائل أخرى تدخل في طاعة الإمام حتى يشتد ساعدها في حروبها مع جيرانها ، وفي

(١) يتنسب المذهب الزيدي الى الامام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، والامام زيد لا يشترط ان يكون الامام من ذرية الحسين كما يقول بذلك الشيعة الامامية بل يشترط فقط أن يكون من ذرية فاطمة (أبو زهرة ، الامام زيد ، ص ٤٩٥) .

(٢) الامام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن ابي طالب فهو حسني وليس بالحسيني وهو بهذا إمام على مذهب الامام زيد وليس بامام على مذهب الامامية . ذهب الى اليمن أولاً سنة ٢٨٠ في رحلة ثم سنة ٢٨٤ للإقامة الدائمة ثم ببيع سنة ٢٨٨هـ .

(٣) لقسب بالرسي لأنه ولد سنة ٢٤٥هـ بجبل الرس من جبال منطقة الرس بالحجاز شرقي المدينة قرب ذي الحليفة .

بعض الأحيان كانت إحدى القبائل تغرى الأئمة على إعلان دعوتهم في إقليمها حتى تكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة .

وازدادت قوة الأئمة بعد ذلك على مر العصور الإسلامية وذلك لضعف حكام اليمن بوجه عام في أغلب الأحيان ، ورغم ما حققه الزيديون أحيانا من نجاح في مد نفوذهم الى جهات واسعة في شمال اليمن فقد ظل نفوذهم محصورا فوق الجبال الشمالية طوال العصور الوسطى حيث كانوا في العصور الوسطى قوة ثانوية في اليمن . وفي العصر الحديث لعبوا الدور الرئيس في تاريخ اليمن وأصبحوا القوة الرئيسية في البلاد . ويرجع عجز الزيديين عن بسط نفوذهم الى جهات اليمن الجنوبية والسهلية الى قوة الدول التي ظهرت في هذه الجهات والى محاربتها المستمرة للزيديين ، وكانت قوة هذه الدول تستند على ثروة مناطقها الزراعية بالنسبة للمنطقة الجبلية الشمالية وعلى ضخامة إيراداتها المالية ولسيطرتها على الحياة التجارية في اليمن ، ولذلك كانت هذه الدول أقدر على تعبئة الجيوش ضد الزيديين ، كما كانت أقدر على دفع الأموال أحيانا الى القبائل الشمالية لتتخلى عن الأئمة أو لتقف أمام توسعهم الى الجنوب ^(١) .

وانتهى الأمر في مطلع القرن العاشر الهجري الى أن كان هناك أكثر من ثلاثة أئمة في وقت واحد ، إمام في (صنعاء) وما حولها هو : (محمد بن الناصر) وإمام في (صعده) هو : (الهادي عز الدين) وإمام في (ذمار) يدعى (المطهر بن محمد بن سليمان) وكان محالفا للطاهريين ضد آل الناصر في صنعاء ، بالإضافة إلى هذه الكيانات الزيدية المتناثرة في شمال اليمن فقد كان هناك الأشراف من آل المنصور والإمام الرشلي يقتسمون النفوذ في منطقتي (الشرق) و (الظاهر) إلى الجنوب من صعده .

(١) أباح المذهب الزيدي ظهور إمامين في قطرين مختلفين في وقت واحد ، وقد ساعد هذا المبدأ على ظهور أكثر من إمام في اليمن في وقت واحد . فأدى هذا الى قيام كثير من الفتن والاضطرابات هناك ، وتشبثت القوى الزيدية أمام القوى السنية في اليمن الأمر الذي أضعفها أمام أعدائها .

الدولة الطاهرية :

أما في جنوب اليمن فقد كانت هناك (الدولة الطاهرية) التي بدأت في سنة ١٤٥٤م (١٠٦١هـ) وتعتبر آخر الدول السنية التي كانت تتوالى الحكم في اليمن ، وكان بنو طاهر في أول أمرهم عمال الدولة الرسولية ^(١) في (عدن) و (لحج) فخرجوا عليها وأسسوا دولة لهم على أنقاضها ، وقد حاول ملوك هذه الأسرة منذ البداية توحيد اليمن تحت سيادتهم فلم يتمكنوا من ذلك لاصطدامهم بالأئمة الزيديين في المنطقة الجبلية الشمالية ، وظلت البلاد مقسمة بين الطاهريين والزيديين حتى مطلع العصر العثماني وقد اعتمد الطاهريون في صراعهم على قوة مواردهم الاقتصادية التي كانوا يجنونها من التجارة التي كانت تمر بموانئ اليمن الجنوبي . وعلى الأخص ميناء عدن الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر .

وقبل العصر العثماني تولى آخر سلاطين آل طاهر وهو السلطان (عامر بن عبد الوهاب) في سنة ٨٩٤هـ - فعمل على توسيع رقعة أملاكه . فقد ورث حوالي ثلثي اليمن عند توليته الحكم ، أما الثلث الباقي فقد كان موزعاً بين عدد من الأئمة الزيديين كما سبق أن ذكرنا ، وقد بدأ السلطان عامر يصطدم مع هذه السيادات المتناثرة في المنطقة الشمالية في سنة ٩٠٢هـ - (١٤٩٧/٦م) وتمكنت قواته من أن تحوز الانتصارات المتتالية التي أدت الى تدعيم سلطة الطاهريين في جميع الجهات والحصون المشرفة على (صنعاء) وأعرت هذه الانتصارات السلطان عامر أن يعد نفوذه الى صنعاء وباقي جهات المنطقة الشمالية وأن يخضع هؤلاء الأئمة لسيادته ، فزحف الى هناك على رأس جيش كبير سنة ٩٠٧هـ - وفشل في احتلال صنعاء عندما تكاثفت القوى الزيدية ضده في باقي جهات المنطقة الشمالية لفك الحصار حول صنعاء ونجحت في صدده عنها.

(١) أقام بنو رسول دولة قوية لهم في اليمن تمكنت من أن تحكم أكثر من مائتين وثلاثين عاماً (٦٢٦-٨٥٨هـ) وقامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الأيوبية في اليمن . كما ذكرنا من قبل . (سيد مصطفى كامل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢) .

وهنا يلاحظ أنه على الرغم من اختلاف الزيديين فيما بينهم فقد كانوا يتكاتفون دائماً للدفاع عن صنعاء لأهميتها الاستراتيجية للمنطقة الشمالية فضلاً عن أهميتها التاريخية .

وعلى الرغم من هذه المقاومة الزيدية فقد تمكن السلطان عامر من احتلال صنعاء في عام ٩١٠هـ وكان استيلاؤه عليها فاتحة لامتداد نفوذه في المنطقة الشمالية، فقد أخذت قواته تستولى على المناطق والحصون الواحد تلو الآخر ، وكانت وعورة مسالك المنطقة الشمالية وارتفاع جبالها تقف عائقاً طبيعياً ضد بسط نفوذ الطاهريين في هذه المنطقة بالإضافة الى أن انتشار المذهب الزيدى هناك وصمود أتباعه كان يمثل عائقاً آخر له أهميته ، وهذا ما سيواجهه العثمانيون بعد قليل .

وبينما كانت قوات السلطان عامر تواصل جهودها لتوحيد اليمن قام إمام جديد له شأنه هو الامام (المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين) وأعلم إمامته في مدينة (حجة) ^(١) سنة ٩١٢هـ ، فجددت الزيدية قوتها بظهوره ، ويعتبر الامام شرف الدين من أبرز الشخصيات اليمنية التي لعبت دوراً هاماً عند بداية تاريخ اليمن الحديث، فقد تمكن أن يمد نفوذه الى جهات عديدة باليمن حتى وصل الى عدن جنوباً .

وظل السلطان عامر طوال فترة حكمه يرسل الحملات الى جهات اليمن المختلفة للقضاء على مقاومة الزيديين وتدعيم سلطانه في المنطقة الشمالية وكاد ينجح في القضاء على مقاومتهم لولا ما حدث من ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية وأدى الحصار البحرى الذى فرضه هؤلاء على السواحل العربية الجنوبية ومطاردتهم للسفن اليمنية الى ضعف إيرادات عامر بن عبد الوهاب الضخمة التى كانت ترد عليه من الموانئ اليمنية المختلفة فلم يستطع الوقوف أمام خصومه من ناحية ، ولم يستطع الدفاع عن المصالح التجارية اليمنية أمام الأطماع البرتغالية من ناحية أخرى .

(١) حجة مدينة تقع في الشمال الغربى من صنعاء .

الزحف البرتغالي على البحار الشرقية :

نجح البرتغاليون في عامي ٩٠٣/٩٠٤ هـ (١٤٩٨/٩٧ م) في الالتفاف حول أفريقيا مروراً برأس الرجاء الصالح وتمكنوا بذلك من الالتفاف حول العالم الاسلامي تحذوهم رغبة انتقامية إمتزجت فيها الدوافع الاقتصادية بالعوامل الدينية التي كانت تدفعها روح صليبية جارفة جعلت المسيحيين البرتغاليين أكثر تحمسا وشراسة في مطاردة المسلمين والانتقام منهم في عقر دارهم ، وازدادت هذه الرغبة تأججاً وضراوة وعنفا عندما نجحوا في الوصول الى الهند سنة ١٤٩٨ م (٩٠٤ هـ).

وشجعت البابوية في روما هذا المخطط الصليبي لغزو الاسلام في عقر داره وتورط بعض البابوات في وصفوا الإسلام في مراسيمهم بأنه طاعون ، وباركت البابوية عملية الانحراط في الحملات البرتغالية ، فكان البابا يعد المشتركين في تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب وكانت سفنهم تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصليبان مرسومة يرافقها دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها ^(١) .

وبعد أن ثبتت أقدام البرتغاليين في الهند بدأوا يقومون بأشنع أعمال القرصنة في المحيط الهندي ومدخل البحر الأحمر والخليج العربي ويناوئون التجارة الاسلامية التي كانت في يد الحكومة المصرية ، فعملوا على مهاجمة السفن الاسلامية وإغراقها والاستيلاء عليها .

وكان يراود البرتغاليين أمل يرجون تحقيقه في أسرع وقت وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحي للتحالف معه لرسم مخطط لضرب القوى الاسلامية في البحر الأحمر والاستيلاء على (عدن) و (جدة) مركز المقاومة الاسلامية والولوج منها الى مكة لضرب العالم الاسلامي في أغلى مقدساته .

(١) عبر عمانويل ملك البرتغال (١٤٩٥-١٥٢١ م) عن أغراض الحملة الأولى في خطبة طويلة جاء فيها : (إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق) . د. سيد مصطفى سالم، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦-٤٧ .

وقد قام (فاسكوداجاما) أثناء رحلته الأولى إلى الهند بمهاجمة إحدى السفن التجارية الإسلامية واستولى على ما بها من بضائع ثم أمر بإغراقها بما تحمل من ركاب^(١) وعندما قام (داجاما) برحلته الثانية (١٥٠٢م) ٩٠٨هـ إلى الهند كلف أحد قادته بالإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر ومعه خمس سفن لمهاجمة السفن الإسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح خاص من البرتغاليين ، ونجح هذا القائد في مهمته إلى حد كبير فقد قام في رجب سنة ٩٠٨هـ (يناير ١٥٠٣م) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها كما قتل بعض ركبها وأسر البعض الآخر .

وحاول البرتغاليون من ناحية أخرى إضعاف مركز المسلمين التجاري لدى الهنود فأثاروا الحكام الهنود ضد رعاياهم المسلمين وحاولوا دفع الحكام إلى طردهم من بلادهم بيد أن الأمراء الهنود كانوا يرفضون وذلك لأهمية التجار المسلمين وسمعتهم الطيبة في تلك الجهات ، وأدى التحول التجاري على النحو السالف إلى اختيار اقتصاديات البلدان العربية المشتغلة بهذه التجارة وحاولوا استرداد السيطرة على التجارة الشرقية .

الموقف اليمني :

كان من المفروض أن تتعاون مصر واليمن وهما الدولتان المتضررتان بالوضع الجديد ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إلا أن سلطان اليمن (عامر بن عبد الوهاب) كان مشغولا بحروبه الداخلية من أجل توحيد البلاد تحت سيطرته كما سلف أن أوضحنا . ومن ناحية أخرى فقد كان اليمن يفتقر إلى أسطول حربي قوى مزود بالأسلحة النارية كما هو الأمر بالنسبة إلى الأساطيل البرتغالية .

وعلى الرغم من أوضاع عامر بن عبد الوهاب الداخلية وضعف قدرته الحربية البحرية إلا أنه أمر بتجهيز حملة بحرية سنة ٩١٢هـ (١٥٠٧م) لمحاربة البرتغاليين في

(١) بانيكار ، آس : السيطرة الغربية ص ٤٠-٤١ ، وأنجلو بين ، جدة ، ص ٣٧ .

الهند ، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبر عن حقيقة الأوضاع لدى السلطان عامر وإمكاناته ، كما كانت تعبر أيضاً عن عدم إدراكه لقوة الغازي الجديد الذي جاء يغزو الشرق كله بأسلحة حديثة فتاكة ، إذ كان قوام الحملة (أربع عشرة سفينة) من سفن النقل العادية تحمل ستمائة مقاتل معنى بالاضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين ، وأبحرت هذه الحملة من ميناء (عدن) في ١١ من مارس سنة ١٥٠٧م (٢٧ من شوال سنة ٩١٢هـ) ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين على ما نرجحه نظراً لأن المصادر اليمنية صمتت حينئذ عن ذكر أنباء تلك الحملة التي كانت أضعف بكثير من القيام بمثل مهمتها الصعبة .^(١)

وترتب على فقدان هذه الحملة تماماً أن السلطان عامر بن عبد الوهاب لم يفكر في إرسال حملة أخرى الى الهند بعد تجربته الأولى هذه ، كما أنه عجز من ناحية أخرى عن حماية سواحله أمام هجوم البرتغاليين عليها .

وفي غضون ذلك تنبه المماليك في مصر لخطورة الغزو البرتغالي الذي استهدف حرمانهم من التجارة العالمية وبدأ يهددهم في مقدساتهم وأملاكهم ، وتركزت خطتهم تجاه هذا الغزو في تقوية حكمهم في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله وعلى الأخص ثغر جدة لأهميته في حماية الأراضي المقدسة الاسلامية فأعد الأشرف (قانصوة الغوري) (٩٠٦-٩٢٢هـ) حملة مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة ^(٢) . بقيادة الأمير (حسين الكردي) سنة ٩١١هـ مهمتها تحصين جدة لتكون على استعداد لصد أى هجوم مفاجئ تتعرض له كما قامت بالاستيلاء على سواكن وأقامت فيها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها لتحصين سواحل البحر الأحمر قبل أن تتوجه الى الهند ، وخرجت من البحر الأحمر ومرت بعدن وتزودت منها ، وقد أوضح حسين الكردي لوالى عدن من قبل الطاهريين أن غرض الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين

(١) لم يشر الى هذه الحملة سوى ابن الديبع في كتابه : (الفضل المزيدي على بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد).

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، الجزء ٤ ، ص ٨٥ .

كما طلب منه أن يمدّه بالطعام والمؤن اللازمة فسمح له الوالى بأن يأخذ من عدن ما يشاء^(١).

ثم توجهت الحملة الى الهند وتمكنت من إحراز نصر جزئى أمام الأسطول البرتغالى في مياه ديو في خريف عام ١٥٠٨م (٩١٤هـ) بالتعاون مع المسلمين الهنود إلا أن البرتغاليين سارعوا في تجميع قوتهم البحرية لمواجهة التحالف المصرى الهندى وأحرزوا نصراً حاسماً في ٣ من فبراير سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ) وهى المعركة المعروفة في التاريخ بمعركة (ديو) البحرية ، تلك المعركة التى أنهت عهداً من السيطرة الاسلامية على طريق التجارة البحرى الى الهند.

وقد تضاءلت بعد (معركة ديو) البحرية الأهمية التجارية للبحر الأحمر الى حد بعيد تلك الأهمية التى ظل يتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل منه الى طريق رأس الرجاء الصالح وساحلى افريقيا الشرقى والغربى ذلك الطريق الذى غدا يزخر بخطوط ملاحية لأول مرة في التاريخ بين أوربا وافريقيا الشرقية والهند وغيرها من بلدان الشرق الأقصى حتى فتح قناة السويس للملاحة الدولية سنة ١٨٦٩ ، وعودة النشاط التجارى الى البحر الأحمر وموانيه من جديد .

وبعد معركة ديو تمكن البرتغاليون من السيطرة الكاملة على البوابات البحرية الثلاث الموصلة للمحيط الهندى وهى : مضائق هرمز - وباب المندب وملقا (الواقع عند طرف شبه جزيرة الملايو) كما بسطوا نفوذهم على الساحل الشرقى لأفريقيا واستولوا على جميع المراكز الاسلامية به واحتلوا سقطرة^(٢) في مدخل خليج عدن .

الظروف التى أدت الى إستيلاء المماليك على اليمن :

بعد انتصار البرتغاليين على المماليك في معركة ديو السالفة واصلوا الزحف داخل البحر الأحمر وهاجموا (عدن) في المحرم من عام ٩١٩هـ (١٥١٣م) بقيادة

(١) تسمى بن لطف الله ، روح الروح مخدوطة ج ١ ، ص ٥٨ ب .

(٢) كان أبوكرك نائب الملك في الهند بعد معركة ديو قد احتل سقطرة وهو في طريقه الى الهند سنة ١٥٠٧م .

القائد البرتغالى (البوكيرك) واستولوا على البضائع التى فى السفن الراسية فى الميناء ولما لم يستطع التزول الى البر عندما صده العديون بقى فى الميناء أياماً يقوم بأعماله التخريبية التى اشتهر بها فاحرق حوالى أربعين سفينة كانت راسية هناك ثم اتجه البرتغاليون بعد ذلك الى باب المندب ودخلوا البحر الأحمر فمروا بالموانئ اليمنية واستولوا على جزيرة (كمران^(١)) فى أوائل صفر ٩١٩هـ (١٥١٣م) وضربوا كل ما فيها من مظاهر الحياة كما ردموا آبارها وذلك حتى لا يستفاد بالجزيرة بعد مغادرتهم لها لأنها تعتبر محطة هامة بين جدة وعدن .

وحاول البوكيرك مواصلة مشروعه الكبير وهو مهاجمة (جدة) فترك كمران واتجه شمالاً قاصداً جدة ، وكانت خطته تركز على التقدم نحو ميناء (مصوع) التابع للحبشة ليتمكن من الاستيلاء على (جزر دهلك) المواجهة لجدة ثم يُعد منها لمهاجمة جدة ويمهد منها أيضاً لإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع إمبراطور الحبشة للقضاء على قوة مصر فى البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية .

وحاول البوكيرك مواصلة مشروعه الكبير وهو مهاجمة (جدة) فاتجه لذلك شمالاً ولكنه جوبه بريح صرصر عاتية أجبرته على الرجوع قبل أن يصل الى جدة ، فعاد يباشر القرصنة والتخريب فى موانئ البحر الأحمر فأحرق السفن الراسية فى زيلع وعاد الى عدن فضرها بالمدافع نحو أسبوعين .

وكانت القوات المصرية قد عادت أدراجها الى مصر بعد أن ترك (حسين الكردى) بعضها فى جده وذهب الى ميناء السويس لبناء قوة بحرية يستطيع بها مجابهة الأسطول البرتغالى المتفوق واتجه الغورى الى العثمانيين يطلب مساعدتهم فى صناعة السفن فأمدوه ببعض الأخشاب والمعدات ونحو ألفين من البحارة العثمانيين للمساعدة فى إعداد الأسطول فى ميناء السويس والمشاركة فى الحملة البحرية المنتظرة على الهند

(١) كمران : جزيرة بالبحر الأحمر تجاه زبيد باليمن وهى حصن لمن ملك قمامة انيمن كما ألفا محطة هامة بين عدن وجدة .

برئاسة (سلمان الرئيس) الذى أطلق عليه ابن اياس (سلمان الرومى) والذى أصبح قبطانا للأسطول المملوكى بعد اعداده .

وبينما كان المصريون يعدون لبناء قوة بحرية في السويس وصلتهم الأخبار بأن البرتغاليين غادروا الهند بقيادة البوكيرك بحملة في فبراير عام ١٥١٥م متوجهين الى البحر الأحمر وكان هدفهم من هذه الحملة هو تخريب جدة ومكة فأرسل الغورى على الفور قوة بقيادة الأمير حسين الكردي نائب جده (والذى كان يباشر عملية إعداد الأسطول الكبير بالسويس) فهم الى جدة فأعاد تقوية دفاعاتها .

وبينما كانت الحملة البرتغالية في طريقها الى البحر الأحمر لتحقيق غرضها وصلها خبر بقيام ثورة في (هرمز) التى سيطر البرتغاليون عليها في مدخل الخليج العربى ، فاتجه البوكيرك إليها ، وما أن سيطر على الأوضاع فيها حتى اشتد به المرض وعاد الى مركزه في الهند حيث توفى بعد وصوله مباشرة ونجت جدة ومكة من التخريب المنتظر مرة أخرى .

وواصل المماليك في مصر الاستعداد للدفاع عن كيانهم بعد أن غدا الخطر البرتغالى يهددهم في عقر دارهم ، وبعد أن أتموا الاستعدادات البحرية في السويس خرجت الحملة من الشواطئ المصرية سنة ٩٢١هـ وقامت بعملية تحصينات في موانئ البحر الأحمر وخاصة في الثغور اليمنية التى كانت في حاجة الى تحصينات على غرار التحصينات التى أقيمت في جدة وغيرها من موانئ البحر الأحمر من قبل وذلك لإغلاق البحر الأحمر أمام البرتغاليين وتأمين خط الرجعة للقوات المصرية . وقد قدر لهذه الحملة البحرية ألا تصل الى هدفها النهائى في الهند بل أجبرتها الظروف التى واجهتها أمام السواحل اليمنية بالاضافة الى بعض الظروف الأخرى على التوقف عند عدن .

وتفصيل ذلك أن السلطان (عامر بن عبد الوهاب) كان قد وافق في البداية على أن يقيم الغورى قواعد بحرية على السواحل اليمنية وذلك عندما استنجد

بالمماليك بعد هزيمة البوكيرك على عدن سنة ١٥١٣م (٩١٩هـ) ولما فشل الهجوم المذكور دون أية مساعدة خارجية بسبب تأخر الأسطول المصري الى اليمن تراجع السلطان (عامر) عن الوفاء بوعدده فأدى هذا الى أن قام الأمير حسين الكردي بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة .

وقد انتهزت بعض العناصر اليمنية الساخطة فرصة العداء الصريح بين الحملة المملوكية وبين السلطان (عامر بن عبد الوهاب) فعملت على استغلال هذه الحملة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وقامت بالاتصال بالمماليك لتشجيعهم على النزول الى الساحل للقضاء على حكم السلطان (عامر بن عبد الوهاب) ورحب (حسين الكردي) بدوره بهذه الاتصالات حتى يتمكن من النزول الى السواحل اليمنية لتحقيق غرض الحملة بالقوة ، وهو إقامة القواعد البحرية اللازمة هناك ، وذلك بعد أن اتضح له أن السلطان عامر يرفض التعاون معه والسماح له سلمياً بالنزول الى السواحل اليمنية .

وكان على رأس تلك العناصر اليمنية الامام (شرف الدين يحيى) الذى كان قد سبق أن أعلن إمامته في مدينة (حجة) في سنة ٩١٢هـ (١٥٠٦م) كما سلف أن ذكرنا ، والذى ظل ضعيفاً هناك منذ ذلك الحين نظراً لقوة قبضة (عامر بن عبد الوهاب) على زمام الأمور في اليمن ، وقام الامام شرف الدين بالكتابة الى الكردي يطلب منه مده بالجنود ليتمكن من محاربة السلطان عامر وتعهد بأن يتكفل بمرتبات واحتياجات هؤلاء الجنود طوال مدة إقامتهم معه ^(١) وكان الامام يدرك أن العدو الحقيقى للمماليك هم البرتغاليين ولذلك ألصق بالسلطان عامر قهمة التعاون مع هؤلاء حتى يثير المماليك ضده ^(٢) ومن ثم تعاون المماليك معه .

(١) عيسى بن لطف الله ، روح الروح ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن مخطوطة ص ١١٥ .

وسيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٨٤ .

ومن ناحية أخرى فقد كانت وطأة السلطان عامر قد اشتدت على أهالي اليمن لجمع الخراج منهم حتى يعوض النقص الذي أصاب إيراداته من جراء تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم فقد تعاون مع المماليك كثير من التيارات السياسية الأخرى مثل (أشراف جيزان) ، وكان السلطان عامر يعترف بحكم هؤلاء الأشراف مقابل أن يدفعوا له خراجاً سنوياً ورغب هؤلاء في التخلص من مظاهر التبعية له ووطأة دفع الخراج ، فأرسل أمير جيزان أخاه (عز الدين بن أحمد بن دريب) لمشاركة المماليك في توغلهم داخل اليمن (حتى استيلائهم على زبيد) .

كما تعاون بعض الساخطين من أهالي تهامة والجنوب مع المماليك ، هذا إلى جانب استعمال المماليك للبنادق والمدفعية التي لم تكن معروفة باليمن ، كل هذه الأمور كانت من العوامل المساعدة على سرعة استيلاء المماليك على جزء كبير من اليمن .

ففي ذي القعدة من عام ٩٢١هـ (ديسمبر ١٥١٥م) قام المماليك بضرب ميناء (الحديدة) بالمدافع عند ما تعرض حاكمها لبعض السفن المحملة بالموث للمماليك والتي كانت قادمة من (زيلع) وتمكن المماليك من التزول إلى (الحديدة) ثم استولوا على (اللحية) و (الزيدية) بمساعدة الأهالي ، وقد سارت الأحداث في تهامة اليمن سريعة بعد ذلك ، إذ كان سقوط بعض المدن التهامية في أيدي المماليك قد أثار (عامر بن عبد الوهاب) فأرسل أخاه علي رأس قوة كبيرة إلى زبيد في ١١ من ربيع الأول ٩٢٢هـ للدفاع عنها فأسرع (حسين الكردي) وبصحبه الشريف (عز الدين) سالف الذكر وتقدم إلى (زبيد) بتشجيع من حلفائه اليمنيين وحاصروها وسرعان ما استولى عليها بعد أن فر الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب وقلوب جيشه إلى (تعز) في ١٩ من جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ (٢١ يونيو ١٥١٦م) .^(١)

(١) د . شيد مصطفى سالم . مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ - ٨٧ .

وعين حسين الكردي الأمير (برساي) حاكماً لزيد وقائداً للمماليك في قامة وعاد مسرعاً إلى الساحل ليقوم بمواصلة مهمته في جنوب البحر الأحمر فتوجه إلى (زيلع) ومنها إلى عدن في ١٣ من رجب ٩٢٢هـ (١٢ أغسطس ١٥١٦م) وحاصروها وصمدت المدينة الحصينة أمامهم لأنها محاطة بالجبال العالية وفشل المماليك في الاستيلاء عليها ، وأدى ذلك الفشل إلى تعطيل حملتهم عن الذهاب إلى الهند ، وقرر الممليك اتخاذ سواحل قامة اليمن خط دفاع أول عن البحر الأحمر ، على أن تكون (جدة) خط الدفاع الثاني ^(١) .

وعاد حسين الكردي إلى (جدة) لتركيز الدفاع بها بدلاً من عدن ، وللاستعداد للهجوم على عدن مرة أخرى ولكن الظروف لم تمهله فبعد وصوله إلى جده بقليل سقطت مصر في يد العثمانيين وسارع شريف مكة الشريف بركات بالدخول في طاعة العثمانيين وارسل سليم يرسم قتل (حسين الكردي) غرقاً في مياه البحر الأحمر أمام ميناء جدة .

أما المماليك الذين استقروا في قامة اليمن تحت قيادة برساي فقد شغلوا في حروب داخلية مع الظاهريين واستولوا على (تعز) و (المقرنة) التي كان السلطان عامر يتخذها مقراً له في صفر ٩٢٣هـ وفي هذه الأثناء غدرت إحدى القبائل بالأمير برساي فقتلوه وتولى إمارة المماليك الأمير (اسكندر) المملوكي الذي اطلق عليه لقب اسكندر المخضرم .

وقد بدأ اسكندر الزحف إلى صنعاء مباشرة وتقابل مع السلطان عامر بالقرب من صنعاء حيث قامت معركة عنيفة بين المماليك والظاهريين انتهت بمقتل (عامر بن عبد الوهاب) وأخيه في ٢٣ من ربيع الآخر سنة ٩٢٣هـ (١٥ من مايو ١٥١٧م) وقد استولى المماليك بعدها على صنعاء وقتلوا كثيراً من أهلها وقاموا بكثير من

(١) د . سيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٨ .

أعمال السلب والنهب وفي النهاية يمكننا القول بأن نجاح المماليك في اليمن يرجع الى عاملين : -

انضمام كثير من اليمنيين الى المماليك لتحقيق أطماعهم كما حدث من شريف جيزان والامام شرف الدين ، بالإضافة الى قوة تسليح المماليك الذين كانوا أحدث سلاحاً من الطاهريين .

وبعد استيلاء المماليك على صنعاء كان الموقف العسكرى قد تغير في الشرق الأوسط فقد وصل الى المماليك نبأ غزو العثمانيين للشام ومصر وضم الحجاز إليهم سلمياً^(١) .

اعلان ممالك اليمن الولاء للعثمانيين :

عندما وصل الى المماليك باليمن نبأ سقوط دولتهم في قبضة العثمانيين شاع بينهم الاضطراب وثار بينهم جدل طويل بشأن اتخاذ موقف حاسم من السيادة العثمانية الجديدة في مصر ، وأخيراً استقر رأى الأمير (اسكندر) على الاعتراف بهذه السيادة حتى يقوى جانب الحملة في اليمن وحتى يقضى على الخلافات التى ثارت بين صفوف جيشه ، وقام الأمير اسكندر بجمع أهالى صنعاء في الجامع الكبير بها وأعلن بينهم استيلاء السلطان سليم العثمانى على مصر وخضوع المماليك في اليمن للسيادة العثمانية.^(٢)

ولقد اصطدم المماليك بعد ذلك بقوة أخرى هى قوة الامام (شرف الدين) حليف الأمس ، ذلك أنه بعد انتصار المماليك واستيلائهم على صنعاء رفض الامام التوجه إليها لمقابلة المماليك كما رفض عقد أى اتفاق معهم ، وكان الامام شرف الدين قد انتقل من (حجة) الى (تلاء) وتحالف مع أحد الطاهريين فكان هذا بداية لارتفاع شأنه وكان اصطدام الامام بالمماليك أمراً متوقعاً في الحقيقة فالامام لم يطلب

(١) انظر للمؤلف كتاب " العالم الاسلامى في التاريخ الحديث والمعاصر ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٢) د . سيد سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .

من الممالك مده ببعض الجنود كما ذكرنا إلا لتحقيق أغراضه في اليمن ، أما توسع الممالك داخل اليمن واستيلائهم على صنعاء فكان يتعارض مع تحقيق أغراض الإمام، وهنا بدأ صراع طويل بين الزيدية في اليمن بزعامة الإمام شرف الدين وبين قوى الممالك العثمانيين استمر زمناً طويلاً .

وهكذا نستطيع القول بأن القوى الإسلامية في الوقت الذي كان يجب عليها أن تتحد أمام الأطماع البرتغالية أخذت تتصارع مع بعضها وتكيل الطعنات لبعضها البعض حتى انتهى بها الأمر الى الضعف والتخاذل أمام العدو المتربص الذي خلا له الجو فتمكن من البحار الشرقية ^(١) .

أما العثمانيون فقد قابلوا لأول لحظة مشاكل البحر الأحمر التي كانت بين الممالك والبرتغاليين حول السيادة عليه والسيطرة على التجارة الشرقية وبرزت أمام العثمانيين بمجرد ظهورهم في المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر واصبحت إحدى القضايا الإسلامية الملحة التي تحتاج الى عمل جري حاسم منهم ، وقد اثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك .

بيد أن خطوات العثمانيين ظلت بطيئة في هذا المجال واتسمت سياستهم العسكرية تجاه البحر الأحمر والبحار الشرقية بالاسترخاء العسكري تلك الحالة التي استمرت حتى سنة ٩٤٥هـ - (١٥٣٨م) وكان ذلك على ما يبدو بسبب انشغالهم بكثير من المشاريع الحربية في أوروبا فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم في كثير من المناطق الأوروبية منتهزين فرصة الحروب الإيطالية التي شغلت الأوروبيين زمناً طويلاً (١٥١٥-١٥٥٩م) كما كانوا يعملون من ناحية أخرى على مد نفوذهم الى العراق وفارس وتكملة الاستيلاء على العالم العربي لتوحيد العالم الاسلامي .

أما البرتغاليون فقد شنوا هجوماً عاماً على البحر الأحمر في عام ١٥١٧م (٩٢٣هـ) بقيادة نائب الملك في الهند (لوبوسوريز) الذي تولى بعد (البوكيرك)

(١) انظر للمؤلف كتاب " العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر " ج ١ ، ص ٨٨ .

وكانت هذه الحملة تتكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الجنود المسلحين ، ونظراً لأن هدف هذه الحملة هو الهجوم على (جدة) وتدميرها والقضاء على الأسطول المملوكي في البحر الأحمر ، فإنها لم تتعرض (لعدن) وخاصة أن أميرها (مرجان) قد أمد الحملة البرتغالية بالمؤن اللازمة لها وبيع بعض المرشدين من بحارة اليمن لإرشادها داخل البحر الأحمر للوصول إلى جدة بعيداً عن مخاطر الشُعْب المرجانية ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل البرتغاليون أمام جدة بسبب مناعة حصونها وقوة استحكاماتها التي أقامها المماليك من قبل ، كما فوجئ البرتغاليون من ناحية أخرى بتغير السلطة فواجهوا العثمانيين لأول مرة فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم كي يعيدوا حساباتهم قبل مجابهة العثمانيين ، ووصلت القوات البرتغالية المرتدة الى (عدن) حيث حصلت على الإمدادات اللازمة من أميرها مرجان وعادوا قافلين الى مركزهم في هرمز.

الأوضاع اليمنية من ٩٢٣ حتى ٩٤٥ هـ :

ظلت باليمن من سنة ٩٢٣ حتى سنة ٩٤٥ هـ ثلاث قوى متصارعة على السيطرة والنفوذ فيما بينها وهي القوى : الطاهرية والزيدية والمملوكية ، ولم يمتد نظرها الى خارج البلاد حيث الأخطار التي كانت محدقة بها والمتمثلة في الوجود البرتغالي الذي انتزع منهم السيطرة على التجارة البحرية الشرقية ، واصبح بأسهم بينهم شديد ، فأجهضوا قوتهم وفاز عدوهم بالسيطرة على التجارة البحرية وورث العثمانيون النفوذ والسيطرة الطويلة على العرب .

الطاهريون :

كان الطاهريون يمثلون الامتداد التاريخي للدول السنية التي تعاقب حكمها في اليمن منذ الفتح الاسلامي وعلى الرغم من محاولة الطاهريين (بعد وفاة عامر بن عبد الوهاب) الاحتفاظ بما كان لهم من سيادة اليمن ولكن دون جدوى فقد توالى هزائمهم وانحصر نفوذهم في النهاية في عدن ولم تظهر بعد (عامر بن عبد الوهاب

شخصية قوية ، وضاعت مقومات قوتهم بضياح التجارة وانهار البناء الاقتصادي باليمن ، بالإضافة إلى عدم تنازلهم عن ثرواتهم الضخمة ، ورفضهم التعاون مع الممالك ضد الغزو البرتغالي كما رأينا مما يدل على عدم إدراك للمسؤولية في فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي حرجاً .

والأدهى من ذلك أنهم (تحالفوا مع البرتغاليين) ، ومنحوهم تسهيلات بحرية ، وقد مر بنا التسهيلات التي أعطاها أمير عدن (مرجان) الطاهري في عام ٩٢٣هـ وذكرت بعض المراجع الأوروبية أن الأمير مرجان قدم مفاتيح عدن إلى القائد البرتغالي (لوبوسوريز) للتعبير عن خضوعه لهم ، وإن كان لم يصل إلى حد تسليم المدينة لهم . ومن ناحية أخرى حاول (مرجان) ^(١) أن يقوى جانبه بالاتصال بالعثمانيين وأرسل إلى شريف مكة لمساعدته في ذلك وعلى الرغم من ذلك فقد حاول البرتغاليون إخضاع عدن لسيطرتهم خوفاً من وقوعها في يد العثمانيين ونجحوا في إجبار الطاهريين على عقد معاهدة سنة ١٥٢٤م (٩٣٠هـ) معهم بمقتضاها تدفع عدن أمراً على سبيل الإتاوة لهم ^(٢) سنوياً وتفتح ميناءها أمام السفن البرتغالية ، وعلى الرغم من هذا الخضوع الذي سلم به الطاهريون إلا أن البرتغاليين لم يقنعوا بذلك ، ولذلك قامت حملة في سنة ٩٣١هـ - ١٥٢٥م بضرب (عدن) بالمدافع ، وفرضوا (معاهدة) جديدة عليها في فبراير سنة ١٥٣٠م (٩٣٦هـ) واعترفت عدن بمقتضى هذه المعاهدة بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الأموال السنوية إليهم واعترف البرتغاليون بحرية الملاحة للعدنيين ولكن بشرط عدم توجه سفنهم إلى جدة ، وترك البرتغاليون بعدن إحدى سفنهم وأربعين برتغالياً لضمان تنفيذ المعاهدة . وللإشراف على الميناء وعلى إيراداته المالية .

(١) تولى مرجان في سنة ٩٢٧هـ .

(٢) سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ١١٠

وقد أثار موقف حاكم عدن غضب الأهالي وتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه، ولكن كانت حجته دائما خوفاً من هجوم أفراد الحملة المملوكية على عدن من داخل اليمن أو من البحر، غير أن حاكم عدن حاول التخلص من المعاهدة البرتغالية واتصل بالسلطان (سليمان المشرع) يخبره بالدخول في طاعته، وانتهى الأمر بفتح العثمانيين لعدن عام ٩٤٥هـ.

الزيديون :

تمكن الزيديون من أن يمدوا نفوذهم الى جهات كثيرة من اليمن بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب، ونجحوا بزعامة الامام شرف الدين أن يوحّدوا جهودهم ويمدّوا سلطتهم الى جنوب اليمن حتى أضحووا في سنة ٩٤٥هـ القوة الرئيسية التي واجهت العثمانيين.

ويعتبر عصر الامام (شرف الدين) إنبلاج لعهد جديد من تاريخ الزيدية في اليمن، فالامام شرف الدين من أهم الشخصيات التي ظهرت في اليمن، وقد ولد في ١٧ من رمضان ٨٧٩هـ وبويع في سنة ٩١٢هـ في حجة كما ذكرنا^(١)، وتلقب بالامام المتوكل على الله واسمه (يحيى بن أحمد) ويرجع نسبه الى الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان عالماً مجدداً في المذهب الزيدى، كما كان من الأئمة المعتدلين بالنسبة لموقفه من المذاهب السنية، فقد كان يعترف بهذه المذاهب ويعتبر المذهب الزيدى مذهباً خامساً، ويقرب إليه العلماء والفقهاء من أهل هذه المذاهب^(٢).

وبدأ يلعب دوراً في تاريخ اليمن بعد موت عامر بن عبد الوهاب واستتجد أهالي صنعاء به بعد دخول المماليك إليها، فهم إليهم وحاصروهم حتى سلموا أنفسهم وغادروا صنعاء سالمين بعد أن أمن حياقتهم، وتحالف المماليك مع أشرف الجوف بعد خروجهم من صنعاء ضد الامام شرف الدين، واستولى الامام بعد ذلك على مدينة

(١) تولى الامام شرف الدين سنة ٩٦٥هـ.

(٢) قطب الدين النهر والى، البرق اليماني، ص ١٢ (من المخطوط).

(عمران) مركز أشراف الجوف سنة ٩٢٨هـ بعد حروب عنيفة وتركها أطلالاً
دارسة ، كما سقطت (صعدة) في يده سنة ٩٤٠هـ وتمكن ابنه (شمس الدين) من
اخضاع مناطق غرب صنعاء في نفس السنة.

ومن ناحية أخرى توجهت جيوش شرف الدين لمحاربة الطاهريين في جنوب
اليمن في نفس الوقت الذي كان الصدام دائراً فيه بينه وبين القوى الزيدية في الشمال
وأحرز ابنه المطهر نصراً حاسماً على الطاهريين في جنوب (ذمار) في سنة ٩٤١هـ
وعامل المنهزمين بقسوة بالغة ، حيث قتل نحو نصف الأسرى وجعل الباقين يحملون
رؤوس القتلى ودخلوا في موكب غريب الى صنعاء تقشعر لهوله الأبدان معلناً إنتصاره
على الطاهريين ليخيف المعارضين لحكم والده .

واستولى على (تعز) في شعبان سنة ٩٤١هـ ولم يبق أمامه من المراكز
الطاهرية سوى عدن التي اعتصم بها (عامر بن داود الطاهري) وتمكنت عدن من
صد هجوم المطهر عليها أكثر من مرة ، وحاول الاستيلاء على (زبيد) من يد
المماليك ولكنه فشل ، وكانت هذه الأعمال الحربية هي آخر خطوات الامام شرف
الدين في الجنوب وبدأ يهتم بتنظيم شئون هذه الممتلكات .

وهكذا نجح الزيديون لأول مرة في تاريخهم أن يمدوا نفوذهم في جهات اليمن
المختلفة حتى أسوار عدن جنوباً وزبيد غرباً ، وهكذا تمكن الشمال الجبلي بقوة
عصية المذهب الزيدى من الوقوف على قدميه أمام الجنوب السهلى السنّى الذى
كان له السيطرة طوال العصور الوسطى ، والذي فقد أسباب قوته السياسية
والاقتصادية في مطلع القرن العاشر الهجرى (١٠٦٠ م) ولم يتمكن من الصمود والذي
مكن الطاهريون من الاستمرار كقوة سياسية في اليمن بعد موت السلطان (عامر)
بنحو عشرين سنة هو عامل الاندفاع الذاتى حيث كان للدولة الطاهرية عمق تاريخى
جعل اليمنيين يتمسكون بهم أطول مدة ممكنة وخاصة أنه لم يظهر في اليمن بعد سقوط
عامر من يستطيع القضاء على باقى القوى السياسية بصورة حاسمة وسريعة .

الاندلسيون :

تحول المماليك في اليمن الى مغامرين حربيين بعد سقوط السلطان عامر ، وخاصة بعد سقوط دولتهم في مصر الذي أصابهم بنوع من الدوار واليأس وانصرفوا الى أعمال السلب والنهب كما أشرنا من قبل ، وعلى الرغم من اعترافهم الاسمي بالسيادة العثمانية إلا أنهم حافظوا على كيانهم الخاص باليمن والواقع أنهم كانوا مجبرين على الاعتراف بهذه السيادة لصعوبة موقفهم حينئذ ، ومع ذلك فقد انقسموا فيما بينهم في اليمن الى شيع وأحزاب .

وعندما عين العثمانيون (حسين الرومي) نائبا لجدة سنة ٩٢٦هـ وضموا إليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولاية جدة وتقدم على رأس قوة لدخول اليمن رفض (اسكندر المخضرم) السماح له بدخول اليمن وأظهر استعدادا للحرب فعاد حسين الرومي حقيقاً للدماء ، وكان لهذا رد فعل في صفوف المماليك فقام (كمال الرومي) بقتل اسكندر سنة ٩٢٧هـ وتولى الحكم في زيد، بدلا منه بحجة أنه خان السلطة العثمانية ، وانقسم المماليك الى عثمانية وجراكسة ، وقام أنصار الجراكسة بقتل كمال الرومي زعيم العثمانية سنة ٩٣٠هـ واقاموا بدلا منه (اسكندر القرمانى) في زيد وقتلوا رمضا، الرومي واقاموا (على الطويل) بدلا منه في تعز .

وفي غضون ذلك عاد (حسين الرومي) الى اليمن مرة اخرى سنة ٩٣٠هـ وتمكن من الاستيلاء على زيد وتوفى بها سنة ٩٣٢هـ وفي هذه السنة أرسل العثمانيون حملة بقيادة (خير الدين حمزة) من عشرين سفينة وأربعة آلاف جندي ومعها (سلمان الرئيس) قبطاناً عليها وتمكنت من التزول الى قمامة واشتبكت مع (مصطفى الرومي) خليفة حسين الرومي وتمكنت من الانتصار عليه .

وخلاصة الأمر أن هذه الحروب هي التي مكنت حملة (سلمان باشا العثماني) سنة ٩٤٥هـ من بسط نفوذ العثمانيين في اليمن .

أشراف الحجاز

كان الحجاز مقر الخلفاء الراشدين من سنة ١١هـ إلى سنة ٣٦هـ وبقي الحجاز بعد ذلك حوالي ثلاثة قرون تحت الحكم المباشر للأمويين والعباسيين ، وطارد كل من الأمويين والعباسيين الأشراف من آل علي بن أبي طالب سواء من فرع الحسن أو الحسين .

وفي سنة ٢٥١هـ قامت ثورة حسنية في مكة فادها إسماعيل بن يوسف الأخيضر مع أخيه محمد وأنشأ إمارة في مكة ، ولما طاردهم العباسيون نقلوا قاعدتهم إلى اليمامة ، وظلت هذه الإمارة باليمامة حتى قضى عليها القرامطة في أواخر القرن الثالث الهجري .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري قامت إمارة الأشراف في مكة والمدينة من الأشراف الحسينيين ، وفي سنة ٤٠٢هـ حاول أحد هؤلاء الأشراف واسمه (محمد شاكر بن أبي الفتوح الحسني) أن يعلن نفسه خليفة ولكن الفاطميين أصحاب السلطة الرسمية في الحجاز لم يتمكنوه من ذلك .

وفي نفس الوقت قام نفر من أشراف المدينة الحسينيون الذين ينحدرون من نسل الحسين بن علي بإنشاء أسرة مالكة بالمدينة عرفت باسم (بنى مهنا) ظلت تحكم المدينة حتى القرن التاسع الهجري ، وبعدها ضم أشراف مكة الحسنيون المدينة وبقية الحجاز إليهم وهؤلاء استمروا حتى قضى على إمارتهم عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٤٥هـ .

وكانوا خلال هذه الفترات خاضعين لغيرهم وليسوا مستقلين سواء في العصر الفاطمي أو الأيوبي أو عصر المماليك أو العثمانيين .

وفي العصر المملوكي تطلع سلاطين المماليك في مصر إلى الاهتمام بحماية الحرمين الشريفين وتأمين سبل الحج والعناية بشجر جدة لأهميته ، فتدخلوا ليرطيد

حكمهم في الحجاز ، ففي سنة ٦٦٧هـ حج السلطان الظاهر بيبرس وعين نائبا له بمكة يرجع إليه أشراف مكة في المهمات " ويكون الحل والعقد على يديه " ^(١) وهو شمس الدين مروان ، ومن تلك السنة استمرت هذه الولاية بمكة إلى آخر دولة قانصوه الغوري ، وكان يطلق على نائب السلطان المملوكي بمكة اسم " باش مكة " أو " باشا الترك " ^(٢) .

أما جدة فقد عين المماليك بها حاكما عاما كان يسمى " نائب جدة " ويقوم في مقر يطلق عليه " دار النيابة " أو " فرضة السلطان " ^(٣) يطل على ميناء جدة مباشرة لكي يشرف منه على الحركة التجارية العالمية .

انضمام الحجاز الى العثمانيين :

لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الانعزال عن الحجاز ، فان حجاجها كانوا يأتون كل عام في موسم الحج ، وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا الى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على ابلاغ شريف مكة بانتصارهم في أوروبا ، وعندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م أرسل الى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء كما أرسل إليه بعض من الهدايا من غنائم الفتح ^(٤) ، وفي عام ٨٨٦هـ ، أدى السلطان بايزيد الثاني (والد سليم فاتح مصر) فريضة الحج وتوثقت عرى المودة بينه وبين شريف مكة .

وكان العثمانيون يطمحون إلى مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى ينعتوا بلقب خدام الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذي اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم ، وذلك لإعلاء مكانتهم في العالم الإسلامي ، وقد عبر السلطان

(١) أنظر : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة العظيمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ ، ص ٢٨٣ .

(٢) بطل متصب " باش مكة " منذ الفتح العثماني ، وصارت بعض اختصاصاته يقوم بها نائب جدة .

(٣) أنظر . عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، مصدر سبق ذكره ص ٢١ .

(٤) أنظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٦-٢٧ .

سليم عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢هـ ودخوله حلب ، فقد حضر صلاة الجمعة في مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب " خادم الحرمين الشريفين " وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعا متعددة وأحسن إليه إحسانا زائدا^(١).

وعندما أتم السلطان سليم فتح مصر أظهر حسن نواياه تجاه جماعة من الحجازيين كانوا بمصر إبان فتحها ، منهم من مكة الخطيب (محيي الدين العراقي) الذي أنعم عليه بالإنعام الجزيل ، واستقبل قاضي قضاة مكة (صلاح الدين محمد بن ظهيرة) وكان من المعتقلين في مصر^(٢) فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن اليه.

ولما أراد سليم أن يجهز جيشا إلى الحجاز اتصل قاضي قضاة مكة (صلاح الدين بن ظهيرة) برجال السلطان سليم وأقنعهم بعدم إرسال هذا الجيش وأن الرأي عنده " إرسال مكتوب إلى (شريف مكة) ولا تبدو منه مخالفة أبداً " ولا يحتاج الأمر الى تجهيز جيش ، فأخذ السلطان سليم برأيه ، وكتب القاضي صلاح الدين رسالة من طرفه الى الشريف يعرفه بما وقع ويطلب منه إرسال ابنه محمد أبو نعي الى السلطان سليم^(٣).

ونظر شريف مكة إلى الظروف والملابسات الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني بعين الخوف من المجهول ، فمن ناحية كان الحجاز يمر بظروف صعبة حيث تعرضت موانيه وعلى الأخص (جدة) لكثير من

(١) أنظر : قطب الدين النهروالي ، الاعلام يا اعلام بيت الله الحرام ، ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢) كان السلطان الغوري قد طلب من قاضي قضاة مكة ابن ظهيرة عشرة آلاف دينار فعجز القاضي عن سدادها فأمر الغوري بالقبض عليه وحمله الى مصر واعتقله بها وعقب هزيمة الغوري في موقعة مرج دابق أخرجه طومان باي من السجن وظل في مصر حتى قابل السلطان سليم .

انظر : أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق نفس المكان .

هجمات البرتغاليين الشرسة ، وهدد البرتغاليون بمهاجمة الأراضي المقدسة الإسلامية والعبث بمقدسات المسلمين ، ولم تكن لدى شريف مكة القوات والعتاد التي يستطيع بها صد المعتدين البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى فقد كان الحجاز يعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابتة التي كانت تأتيه من مصر نظرا لندرة الزراعة به وقلة موارده، فإن دولة المماليك ومن سبقها من الدول الإسلامية التي ضمت الحجاز إليها قد عملت كل منها على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية على سكان الحرمين الشريفين فكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنويا كل ما يحتاجه من غلال إلى جانب مرتبات الأشراف والعاملين على خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والتي كانت ترسل سنويا صحبة أمير الحج المصري .

هذه الظروف الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني هي التي أملت على شريف مكة (الشريف بركات) قبول السيادة العثمانية ورد على رسالة ابن ظهيرة بإرسال وفد برياسة ابنه (أبو نعي) لتقديم الولاء والاستعداد بدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وذلك لكي يضمن استمرار تدفق ورود الموارد التي كانت تصل إليه من مصر ، ويضمن وجود قوة إسلامية كبرى تقف أمام الزحف البرتغالي على الأراضي المقدسة الإسلامية.

واستقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات في القاهرة في ١٦ من جمادى الثانية ٩٢٣هـ (٦ من يوليو ١٥١٧م) استقبالا حافلا وقدم (أبو نعي) إلى سليم بعض الهدايا ، وبعض الآثار النبوية الشريفة التي كانت موجودة في مكة والمدينة ثم سلمه مفاتيح الحرمين ، وهكذا تم إقرار شريف مكة بقبول السيادة العثمانية ومنحه سليم تفويضا بحكم " مكة المشرفة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها

ولواحقها المعطراب ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكما وضابطا فيه بمراسيم السلاطين القديمة " (١) ثم أمر بقتل حسين الكردي نائب جدة من طرف المماليك . وعقب عودة وفد الشريف الى مكة قرئ التفويض على الأهالي وأمر الشريف بالقبض على (حسين الكردي) فأخذ مقيدا الى جدة وقتلوه غرقا في ميناء جدة في تلك المياه التي سبق له أن دافع عنها ضد الغزو البرتغالي .

مهام شريف مكة في العصر العثماني :

وبذلك دخل الحجاز تحت السيادة العثمانية دخولا سلميا وكان سلطان شريف مكة يمتد الى جميع بلاد الحجاز ، ومن مهامه الرئيسية العمل على تأمين قوافل الحج الوافدة الى الحرمين الشريفين من جميع بقاع العالم الاسلامي ، وكان يعتمد في ذلك على صلاته بالقبائل الضاربة في الحجاز والقرية من طرق قوافل الحج كما يعتمد على عصبيته ونفوذه الديني الواسع ، وكان شريف مكة يتمتع في التشريفات العثمانية بأسمى مقام في صف " الصدر الأعظم " في الاستانة و " الخديوى " في مصر (٢) . أما (ثغر جدة) فان السلطان سليم ولّى عليه نائبا جديدا بهد مقتل نائبه المملوكي ، وهذا النائب الجديد هو التاجر (قاسم الشرواني) الذي كان من تجار مكة وسافر قبل الفتح العثماني الى مصر وصادف وجوده دخول السلطان سليم مصر ، فاتصل قاسم بالسلطان سليم وتقرب اليه بالخدمة فعينه نائبا لجدة فوصل اليها وباشر مهام منصبه في تلك السنة (٣) .

(١) أنظر : نص الرسالة التي أرسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها الى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولى ونشرها في كتاب عن " الفتح العثماني للشام ومصر " بالقاهرة سنة ١٩٧٦ م ، ويمتاز هذا الكتاب بكثير من الوثائق التي ترجمها المؤلف من التركية الى العربية وقد استقاها من الأرشيف التركي وغيره من المصادر التركية) انظر الوثيقة رقم ٣٠ في ملحق الوثائق لنفس الكتاب .

(٢) أنظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٤١ .

(٣) أنظر : قطب الدين النهروالي ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١٩١ .

أنظر أيضا ، أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص ٥١ .

وجعل العثمانيون (إمارة جدة) تابعة لهم مباشرة يعينون لها نائبا من طرفهم بعيدا عن نفوذ شريف مكة ، وذلك بسبب وضعها الحربى وأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية ، وتركوا لشريف مكة السلطة على الحجاز ، وجعلوا له استقلالاً عن نائب جدة الا في الحالات الضرورية التى يلزم عليه أن يتعاون على استتباب الأمن في ربوع الحجاز لتأمين سير قوافل الحج الى الحرمين الشريفين .

وقررت السلطات العثمانية لشريف مكة أن يأخذ نصف محصول ميناء جدة كل عام ، ومن ثم فقد تسبب هذا الأمر في إثارة كثير من المشاحنات بين نائب جدة وشريف مكة ولم تهدأ هذه الحوادث بينهما طوال العصر العثمانى ، كما تسببت ثنائية الحكم هذه في خلق موجو من الاضطرابات والفتن والفوضى لا في جدة ومكة فحسب بل في الحجاز كله^(١) .

الأشراف في الحرب العالمية الأولى :

وفي بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ، اتصل الانجليز بالشريف حسين بن على في الحجاز لضمه الى الحلفاء ضد تركيا التى تحالفت مع الألمان ، وعقد الانجليز معه معاهدة في سنة ١٩١٥م تعهدت بريطانيا له فيها بإقامة مملكة وراثية للأشراف الهاشميين في الحجاز ، وتعهدت بالدفاع عنهم ضد كل عدوان ، وبحماية حدوده ، وبتقديم كل عون مادى ومعنوى لقمع أى ثورة في الداخل ، وكان الشريف حسين يتقاضى مرتبا سنويا من الانجليز قدره (٤٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى)^(٢) .

وفي بداية الحرب العالمية الأولى أعلن الشريف حسين بن على الثورة على الدولة العثمانية سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) وقطع علاقته بدار الخلافة سنة ١٩١٨

(١) أنظر على سبيل المثال ما حدث من حروب بين شريف مكة ووالى جدة في سنة ١٠٧٩هـ - سنة ١١٨٤هـ وما بعدها في كتاب : خلاصة الكلام لأحمد بن زيني دحلان .

(٢) ذكر اللورد (كردفورد) في مجلس اللوردات في بريطانيا سنة ١٩٢٢م أن الشريف حسين كان يتقاضى من الانجليز في كل عام مبلغ (٤٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى) ، لين بول ، معجم الأسر الحاكمة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٢٤-٢٢٥ ، ترجمة أحمد السعد .

م وناصر الانجليز في الحرب . وكان الشريف حسين يمثل في ذلك الوقت أكبر الأسر العربية مكانة فهو أمير مكة والمهيم على الحرمين الشريفين ، وكان لديه أربعة أبناء هم : (على) و (عبد الله) و (فيصل) و (زيد) ، وكان فيصل أكثرهم طموحاً ، فقد كان يرنو ببصره الى حكم الشام الذي انفرط عقده فأصبح عدة دول هي : سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، وكان (فيصل) دائم الاتصال بإسلامبول عاصمة الدولة العثمانية يتردد عليها وكان (عبد الله) دائم الاتصال بالقاهرة يتردد عليها للاتصال بالانجليز الذين كانوا يلمحون له بمناصرة والده إذا ما فكر الأتراك في خلعه ، أما (على) فكانت طموحاته أن يكون ملكاً على الحجاز وكان أكبر أبناء الملك حسين ، وكان (زيد) أصغرهم^(١) .

واتصل الشريف حسين بالانجليز عن طريق (مكما هون) نائب ملك بريطانيا في مصر إبان الحرب العالمية الأولى وطلب منه إعراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية في الشام وجزيرة العرب وفي مقابل ذلك يتحالف الشريف حسين عسكرياً مع بريطانيا ، ويعلن الحرب على الدولة العثمانية فرد عليه (مكما هون) رداً دبلوماسياً مبهماً ليس فيه وعد واضح بتنفيذ مطالب الشريف حسين .

هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تقوم بمؤامرة سرية لتقسيم البلاد العربية محل آمال الشريف حسين ، وفي الوقت الذي كان فيه اليهود يعدون المسرح لموافقة الإنجليز على وعد لهم بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم ومساعدتهم من أجل تحقيق هذا الهدف ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحسين انتهى به الأمر الى تحالف مع الإنجليز ضد الأتراك ودخل في حرب ضد الدولة العثمانية .

وأعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك عقب اتفاهه مع الإنجليز ، وبدأ ذلك بأول رصاصة أطلقت في مكة في صباح اليوم الثاني من يونيو سنة ١٩١٦م ضد القوات التركية العسكرية في (قلعة إحياد) أمام الحرم ، مخدوعاً بوعود الإنجليز .

(١) صالح مسعود أبو بصير، جهاد شعب فلسطين في نصف قرن، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٩م ، ص ٣٤ - ٣٥ .

واستطاع الشريف أن يقطع الاتصال بين قوات تركيا في اليمن وقواتها في الشام، واتهم الشريف الأتراك بالخروج على الاسلام فعطل بذلك دعوة الجهاد التي أعلنها السلطان العثماني على الإنجليز وحلفائهم .

وبينما كان الشريف حسين وأعداؤه يعمنون القتل في الأتراك في كل مكان بالحجاز وخاصة في مكة والطائف إذا بوكالات الأنباء تطير خبر قيام ثورة شيوعية في روسيا ضد القيصر وتعلن على العالم الاتفاقيات السرية التي عقدت بين الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا لتقسيم البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية ، وهي الاتفاقية المعروفة باتفاقية (سايكس - بيكو) سنة ١٩١٦م والتي تعطي العراق وفلسطين وشرق الأردن لبريطانيا ولبنان وسوريا لفرنسا والبسفور والدرديل وما حولهما لروسيا .

والواقع أن هذه الاتفاقية صورة مرعبة للخيانة والخداع والمكر الإنجليزي ، وتحوى شروطاً تتعارض مع ما كان قد اتفق عليه الإنجليز مع الشريف حسين ، ولكن كان هذا جزاء وفاقاً لمن تعاون مع الإعداء ضد إخوانه المسلمين ، ومن أعان ظالماً سلط عليه تلك سنة من السنن الكونية التي لا تتخلف ، وهي أيضاً صورة بشعة للنفاق الإنجليزي للوصول إلى ما تبيته السياسة الإنجليزية من تقسيم للعالم الإسلامي^(١) .

وعندما وصلت هذه الاتفاقية الى مسامع تركيا أسرع تواجده الشريف حسين بخطئه الفاحش عندما تعاون مع أعداء الأمة الإسلامية على أمل استقلال هو كالسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، فأرسلت تركيا رسالة الى فيصل بن الحسين على وجه السرعة بتاريخ ٢٦/١١/١٩١٧م تذكر فيها بأن الواجب الديني يدعوا فيصل وأباه الى العودة الى حظيرة الاسلام ودولة الخلافة ، وطلب جمال باشا الذي كان يومئذ بالشام ، من فيصل الحضور الى دمشق لعقد اتفاق

(١) انظر للمؤلف كتاب (البقعة الاسلامية في العالم الاسلامي) ، ص ٧٣-٧٥

ينص على إعطاء الولايات العربية الاستقلال من الدولة العثمانية بعد الحرب وعندما أرسل فيصل الرسالة الى والده تأثر جداً ، ولكنه لم يخلع إتفاقه مع الانجليز لأن الانجليز أوهموه مرة أخرى بأن هذه خدعة تركية وأن هذه ليست إتفاقية ، وإنما هي مسودة لإتفاقية لم تتم وجدت في خزائن القيصير بعد مقتله وقيام الثورة الشيوعية .

وعندما ألغى مصطفى كمال الخلافة في تركيا سنة ١٩٢٤م أعلن الشريف حسين بن علي نفسه خليفة على المسلمين دون أن يعترف به أحد ودون مشورة المسلمين . في الوقت الذي كان الأزهر في مصر دعا الى عقد مؤتمر لبحث مصير الخلافة .

طرد الأشراف من الحجاز :

لكن عبد العزيز آل سعود استولى على مكة سنة ١٩٢٤م وهرب الشريف حسين وترك ابنه علي في جدة حيث قضى عليه عبد العزيز سنة ١٩٢٦م .

ولقد لقي الشريف حسين جزاءه على يد الانجليز ، فقد ساعد الانجليز الملك عبد العزيز بن سعود على اجتياح الحجاز مركز الأسرة الهاشمية من صدر الإسلام وتم طرد الشريف حسين وأسرته من الحجاز ، وأصبح لاجئاً في قبرص وكان يود أن يقيم في العقبة في إمارة ابنه التي أنشأها الانجليز له ، ولكن الانجليز رفضوا إقامته فيها لأنها قد تدفع ابن سعود على مهاجمتها كما يدعون ، وتلقى إنذاراً بريطانيا بضرورة الرحيل عنها فخرج منها خائفاً يترقب ، وهو ساخط على الانجليز حيث ركب سفينة بريطانية إلى جزيرة قبرص سنة ١٩٢٥م فأقام بها ٦ سنوات ومرض كمداً فأذن الانجليز بسفره عندما قاربته المنية إلى عمان وجاء ابنه فيصل وعبد الله فصحباه من قبرص إلى عمان ووافته المنية سنة ١٩٣١م فحمل إلى القدس ودفن بها في مقابر المسجد الأقصى^(١) .

(١) "نظر : الأعلام للزركلي ، ومنزل العرب وقلب الجزيرة ، ص ١٦٦

إمارة شرق الأردن :

وأقام الانجليز له إمارة تحت حمايتهم في شرق الأردن وهي تشمل قطعة من صحراء العراق ، وجزءاً من بادية الشام ، وسميت هذه الإمارة باسم (شرق الأردن) وعينت انجلترا عليها (عبد الله) الأبن الثاني للشيخ حسين أميراً ، وخصصت له مبلغاً وقدره ٦٠.٠٠٠ جنيه انجليزي في العام ، وجعلوا إمارته تحت رقابة المقيم الانجليزي بفلسطين وعاصمتها عمان .

وكان لإنشاء هذه الإمارة هدف أرادته الانجليز ، وهو فصل الشام عن الحجاز والجزيرة العربية ، وأيضاً فصل العراق عن الحجاز والجزيرة بكيان مصطنع لم يسبق أن قامت به دولة من قبل ، ووضع هذا الكيان المصطنع تحت إشراف الانجليز للحد من تأثير الحركة السلفية التي قويت في الجزيرة العربية أي الحد من تأثيرها في بلاد الشام والحد من تأثير الحركة القومية التي قويت في الشام أن تؤثر في الحجاز والجزيرة العربية .

وبذلك كان هذا الكيان المصطنع مانعاً من تأثير الشمال في الجنوب والجنوب في الشمال تحت إشراف الانجليز .

وكانت منطقة شرق الأردن قبل عام ١٩٢٠م تابعة للدولة العثمانية وانتقلت إدارتها منذ عام ١٩١٨م إلى حكومة فيصل بن الشريف حسين العربية بدمشق الذي حاول تنصيب نفسه ملكاً على سوريا الكبرى ، وكانت منطقة شرق الأردن جزءاً من بلاد الشام يطلق عليه بادية الشام ، والجزء الجنوبي من شرق الأردن كان تابعاً للحجاز والجزء الشرقي منها كان تابعاً للعراق فهو جزء من صحراء العراق .

وكانت دول الوفاق قد استولت على تلك المناطق لقطع الطريق أمام الجيش التركي المتجه إلى مصر ، فدخل " لورانس " مدينة العقبة سنة ١٩١٧م وفي العام التالي نُقل الأمير فيصل بن الحسين الذي كان يقود جيش الثورة العربية إلى العقبة وتمكن مع أعوانه من احتلال قسم كبير من الأراضي الأردنية وذلك بعد معارك

عديدة منها قيانه بتخريب خط حديد الحجاز واحتل الانجليز الأردن في ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩م^(١).

وقد ظلت منطقة شرق الأردن تحت الإدارة العربية لفیصل حتى وصلها عبد الله بن الحسين في نوفمبر سنة ١٩٢٠م أما (فیصل) فقد نقله الانجليز الى العراق وعين ملكاً على العراق سنة ١٩٢٠م بعد قيام ثورة في العراق في تلك السنة.

باستقرار الأمير (عبد الله) في شرق الأردن تشكلت حكومة في عمان برئاسة عبد الله بن الحسين في أبريل عام ١٩٢١م بمساعدة بريطانيا التي عينت له مجموعة من المستشارين الانجليز لمساعدته في إدارة الدولة الجديدة ، وأعلنت بريطانيا على لسان مندوبها الثاني في فلسطين أنها ستعترف بحكومة الأمير عبد الله.

ونظراً لضعف الموارد في هذه المنطقة فقد وعدت بريطانيا أن تقدم معونة سنوية للأمير عبد الله وكانت هذه المعونة وسيلة من وسائل الضغط على الأردن لا تمكنه من استقلالية قراراته ، وفرضت بريطانيا الانتداب على هذه الدولة الناشئة.

وفي سنة ١٩٤٩م غير عبد الله اسم الإمارة إلى : (المملكة الأردنية الهاشمية) وتم إضافة الضفة الغربية لفلسطين إليها فضاعف هذا من عدد السكان، وحاول الملك عبد الله الصلح مع إسرائيل فقتله أحد الفلسطينيين سنة ١٩٥١م، وخلف (طلال) أباه عبد الله لكن البرلمان الأردني خلعه بحجة إصابته بمرض عقلي، ونودي بابنه الحسين بن طلال ملكاً على الأردن تحت الوصاية حين بلوغه سن الرشد وذلك برعاية وحراسة من الانجليز وتوج ملكاً في مايو سنة ١٩٥٣م ، وظل في الحكم حتى عام ١٩٩٩م حيث توفي وخلفه ابنه عبد الله.

(١) د . رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص ٦٥

الحركات الانفصالية في المغرب والأندلس

كان المغرب الإسلامي مركز القوة للدولة الأموية منذ قيامها بينما كان المشرق مركز المعارضة التي قامت في وجه الحكم الأموي منذ بدأ الصراع بين علي ومعاوية ، وظل العراق ومن ورائه المشرق كله بيئة غير طيعة في يد الأمويين طوال مدة خلافتهم بينما احتفظ المغرب بولائه للدولة الأموية ^(١) .

وقد استغلت الدعوة العباسية معارضة المشرق فاستعانت به في بداية الدعوة ونمت لديه شعور المعارضة فأصبح المشاركة جنود العباسيين ونجحت الثورة العباسية بفضل قوتهم في الإطاحة بالدولة الأموية .

وتقهقرت المعارضة الموالية لبني أمية وللنفوذ العربي إلى المغرب ، وكذلك انقلبت الأوضاع وصار المغرب هو البيئة المعارضة وغير الطيعة في يد الخلافة العباسية ، وفتح أبوابه أمام المعارضة العلوية ومعارضة الخوارج ^(٢) والأمويين الذين وجدوا فيه ملجأ بعيداً عن قبضة العباسيين واستطاع هؤلاء أن يقيموا لهم دولاً تناوى الخلافة العباسية معتمدين على روح المعارضة المتزايدة بالمغرب .

وقد فرت الفلول الأموية التي نجت من التكتيل العباسي إلى العدو الأوربي بالمغرب وهي الأندلس وعلى يدهم كان الأندلس أول إقليم انفصل عن حكم الدولة العباسية ، وكان انفصاله عنها انفصلاً تاماً ، لأن الأمير الذي قام بهذا الانفصال وهو عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل كان يعارض الحكم العباسي ولا يعترف به

(١) حسن محمود وزميله ، ص ٣٩٦ .

(٢) سُمِّتْ حُرُوت الخوارج للدولة الفاطمية عند نشأتها واستمرارهم إبان حكمها بالمغرب كحزب معارض للدولة الفاطمية ويذكر الدكتور أحمد مختار العبادي أن الخوارج ما زالوا يشاهدون إلى اليوم بالجزائر في منطقة سيزاب شرقي الجزائر حيث لعبوا دوراً هاماً ضد الاستعمار الفرنسي . (العبادي ، ص ٣٨٦) .

شأنه في ذلك شأن المعارضة العلوية التي لجأت إلى المغرب الأقصى بالعدوة الأفريقية (١) .

وستتناول أولاً إنشاء دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ على الرغم من أنها نشأت بعد الإمارة الأموية بالأندلس (١٣٨هـ) مخالفين بذلك التابع الزمني لأن الدولة الأموية بالأندلس كان لها امتداد في أخريات أيام الدولة الأدرسية إلى المغرب الأقصى ، أي أنها كانت من القوي التي شاركت في القضاء على دولة الأدارسة بالمغرب .

دولة الأدارسة بالمغرب (١٧٢ - ٣٦٤هـ) :

سبق أن ذكرنا نبذة تاريخية عن الظروف والملابسات التي في ظلها نشأت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى بجهود إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٧٢هـ وموقف الدولة العباسية منها على أيام الرشيد (٢) ، ومحاولة الرشيد أن يقضي عليها ولكنه فشل ، واستمرت هذه الدولة بالمغرب وتحمس المغاربة لهذه الدولة حتى بعد موت إدريس سنة ١٧٧هـ وتجمعوا حول ابنه إدريس الثاني على الرغم من أنه كان ضعيفاً ، وهو الذي أسس مدينة فاس المغربية سنة ١٩٢هـ وتوفي سنة ٢١٣هـ .

وبلغت البلاد الخاضعة للأدارسة بالمغرب أقصى اتساعها في منتصف القرن الثالث الهجري ، ثم أخذت تضمحل بسبب تضيق الفاطميين عليهم بالمغرب ولم يشفع لهم أنهم علويين ولكنها الأطماع السياسية التي لا ترحم الوالد من ابنه أو الابن من والده .

وبسبب محاربة الأمويين بالأندلس لهم أيضاً وقد اعتمد الأمويين على دويلة صغيرة عميلة لهم في شمال المغرب الأقصى وهي (إمارة نكور) ، وهي دويلة سنية

(١) حسن محمود ، وزميله ، مرجع سابق ، ص ٣٩٧ .

(٢) الطبري ، ج ٨ ، ص ٢٤٢ ، وابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

أنشأها صالح بن منصور الحميري سنة ٩٦هـ وهو واحد من الفاتحين المسلمين العرب الأوائل في (منطقة مليلة) وقد ظلت هذه الإمارة حتى قضى عليها المرابطون ، وكانت في معظم فتراتها حليفة للأمويين بالأندلس ومعتمدة عليهم ^(١) .

فقد زحف الأمويون على سبته سنة ٣١٩هـ فكانت ضربة أليمة للأدارسة، ولبن كانوا عادوا إلى الظهور في سبته مرة أخرى سنة ٣٣٦هـ إلا أنهم كانوا بمثابة ولاية للأمويين بالأندلس ، وظل الأمويون يضغطون عليهم حتى أسقطوا دولتهم سنة ٣٤٣هـ ^(٢) ووقع الحسن بن كنون آخر حكام الأدارسة أسيراً في يد الأمويين وسبق إلى قرطبة ، وهكذا انقرضت دولة الأدارسة وحلت محلها الدولة الأموية ^(٣) .

وأهم شيء نحب أن نشير إليه هنا أن دولة الأدارسة أسهمت في خدمة الإسلام في هذه الناحية النائية فينسب إليهم أنهم ثبتوا البربر على الإسلام وبذلك مهدوا لظهور البربر كقوة فيما بعد أيام المرابطين والموحدين ، ودخل بقية البربر على عهدهم حظيرة الإسلام ، كما كان حكم الأدارسة مقدمة للدور الكبير الذي لعبه البربر في مجال نشر الإسلام في غرب أفريقيا ، وينسب إليهم الفضل في القيام بحركة نشر الإسلام في حوض السنغال استمرت بعد ذلك في عهد المرابطين والموحدين حتى شملت أفريقيا الغربية كلها ^(٤) .

وكان (جامع القرويين) الذي تأسس في عهدهم في فاس بعدوة ^(٥) القرويين سنة ٢٤٥هـ دور كبير في الحركة العلمية بالمغرب وأخذت فاس بفضلها طابع المركز

(١) حسين مؤنس ، الأطللس ، ص ١٧٩ .

(٢) لين بول وغيره ، معجم الأسر الحاكمة ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٣) حسين مؤنس ، الأطللس ، ص ١٧٩ .

(٤) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٦٧-٢٦٩ وحسن محمود وزميله، مرجع سبق ذكره ص ٤١٣

(٥) جاء في معجم ياقوت أن فاس عبارة عن عدوتين أو قسمين: عدوة الأندلسيين وتأسست عام ١٩٢هـ

وعدوة القرويين تأسست عام ١٩٣هـ .

العلمي بالمغرب حتى يومنا هذا ، والذي تميز باختيار المذهب المالكي واختيار العقيدة الأشعرية ، واختيار تلاوة ورش ورواية ابن سعادة ^(١) .

وقد ظل هذا الجزء من المغرب مأوى للأشراف ، وتكونت دولتهم الحديثة سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) بعد كفاح طويل ضد الاستعمار ، وترجع أسرتهم إلى

القرن الحادي عشر وهم من الأشراف الحسينيين ^(٢) .
الدولة الأموية بالأندلس :

تم فتح الأندلس في عهد الوليد بن عبد الملك ، وانتشر الإسلام بها على يد المهاجرين من العرب والبربر إليها فقد استتبع الفتح هجرات مغربية وعربية ، وكان قرب الأندلس من بلاد المغرب من العوامل التي دفعت المغاربة إلى الهجرة إلى أرض الأندلس الغنية بمواردها ، كما أن الظروف التي تلت الفتح استتبعت توالي الجيوش العربية على الأندلس وكانت هذه الجيوش تقيم في الأندلس وتتبعها بعض بطون القبائل العربية للإقامة بصفة نهائية ، ولا تكاد توجد مدينة أندلسية أو ولاية أندلسية إلا وفيها مهاجرون من هؤلاء وهؤلاء .

وقد اختلط هؤلاء المهاجرون بالسكان وتزوجوا منهم ، ولم يلبث أن نشأ جيل جديد من العرب والمستعربين ، وكان هذا الاختلاط سبباً في نمو الحركة الإسلامية والعربية نمواً مبكراً بالأندلس ^(٣) .

وفي عهد أبي جعفر المنصور هرب من وجه العباسيين أمير أموي هو (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك) إلى بلاد الأندلس ، ونجح في تأسيس

(١) عبد اسادي التازي ، جامع القرويين ، ج ١ ، ص ١٤ .

(٢) حكموا باسم الأشراف الغلالية نسبة إلى واحة فيلالت أو تافيلات التي نشأوا بها (معجم الأسر الحاكمة، ج ١ ، ص ٩٢) .

(٣) قال المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم عن أهل الأندلس : أهل الأندلس على مذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف سوى كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظفروا بخنفي أو شافعي تفوه وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه . [أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج ١ ، ص ١٣] .

الدولة الأموية الثانية بها منذ عام ١٣٨هـ ، وقد لقيت هذه الإمارة تأييداً من السكان الأمر الذي مكّنها من الصمود في وجه محاولات الدولة العباسية للقضاء عليها وسبق أن أشرنا إلى بعضها عند حديثنا عن عصر المنصور ، في كتاب الدولة العباسية .

وفي عهد المهدي دبر مؤامرة دولية اشترك فيها مع شارلمان ملك الفرنجة الذي كان يريد استرداد الأندلس وإحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية وكان على عداء مع الدولة البيزنطية المتاخمة للعباسيين ، واشترك في هذه المؤامرة أيضاً اثنان من القادة المحليين .

أولهما : (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) المعروف بالصقلي لأنه كان طويلاً أشقر مثل الصقالبة ، وكان من القادة المغامرين في شمال أفريقيا ، ثم أرسله المهدي إلى الأندلس كما فعل المنصور مع العلاء بن مغيث من قبل .

أما الرجل الثاني : فيدعى (سليمان بن يقظاني الكلبي الأعرابي) حاكم مدينة سرقسطة في شمال الأندلس وهي قاعدة الثغر الأعلى وكان على خلاف مع المداخل لتزاعه مع اليمانية الذي ينتمي إليهم سليمان .

ولكن أعداء (عبد الرحمن) تواعدوا واختلفوا في الميعاد فقام عبد الرحمن الفهري بالهجوم أولاً على ساحل تدمير (مرسية) قبل أن يصل شارلمان في الميعاد المتفق عليه إلى سرقسطة في الشمال لإرباك الداخل ، ولكن الداخل وجدها فرصة وقضى على الفهري قبل أن ينضم إلى حلفائه وحرق أسطوله عند ساحل تدمير .

أما شارلمان فعبر جبال البرتاب متأخراً وخرج سليمان الأعرابي لاستقباله ولكن سكان مدينة سرقسطة رفضوا تسليمها لرجل مسيحي وقادهم الحسين بن يحيى الأنصاري ، ودافعوا عن المدينة واضطر شارلمان إلى أن يصحب حليفه الأعرابي ويعود لإخضاع ثسورة قامت بها القبائل السكسونية الجرمانية في بلاده ، ونجحت الإمارة الأندلسية مرة أخرى من مؤامرات العباسيين .

ومع ذلك صمدت هذه الدولة بالأندلس تحت حكم الأمراء من بني أمية واستمرت ما يقرب من ثلاثة قرون وكانت لها حضارة زاهرة مزدهرة في عاصمتهم (قرطبة) وغيرها من المدن الأندلسية التي كانت مراكز إشعاع حضاري أثر في أوروبا في فترة العصور الوسطى المظلمة في أوروبا .

وعندما ضعفت هذه الدولة بضعف حكامها المولدين الذين أتوا بعد الأمويين الأوائل الأقوياء انفرط عقد وحدتها في سنة ٤٢٢هـ إلى مقاطعات انفصلت عن بعضها واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وبلغت هذه المقاطعات والأمراء إلى نحو عشرين مقاطعة ، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف ^(١) .

وقد أدت هذه الفرقة إلى ضعف الأندلس وعجزها عن الصمود أمام الممالك المسيحية التي أخذت تتوحد في شمال أسبانيا وتزحف إلى الجنوب مستولية على البلاد شيئاً فشيئاً ، وكانت غلطة الأمويين الكبرى أنهم تركوا الجيوب الأسبانية في منطقة الشمال الجبلية دون تصفيتهما فأتى منها الخطر الذي كان يستمد قوته من مساعدات أوروبا المسيحية كلها ضد الوجود الإسلامي في الأندلس ، وعندما ضعفت الدولة الإسلامية بالأندلس وجدها هؤلاء فرصتهم وزحفوا من الشمال ^(٢) .

فاستعان الأندلسيون بالمرابطون الذين نهر أمرهم في شمال (المغرب) أفريقيا ، وكان الذي طلب المعونة هو (المعتد بن عباد) ملك (أشبيلية) .

وقد لجى المرابطون نداء إخوانهم المسلمين في الأندلس واقتحموا المجال الأندلسي وقهروا المسيحيين في (موقعة الزلاقة) سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) ثم قضوا على الفرقة المنتشرة في الأندلس في صورة ملوك الطوائف ووحّدوا الأندلس مرة أخرى تحت رايتهم .

(١) وهذا لما دفع بعض شعرائهم إلى الاستهزاء بهم في قوله :

مما يزهدني في أرض أندلس * ألقاب متصغر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كاهن يحكى انتفاخاً صولة الأسد

(٢) - من محمود وزميله ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٠ .

وعندما ظهر (الموحدون) في شمال أفريقيا في النصف الأول من القرن السادس الهجري وتمكنوا من توحيد المغرب كله تحت رايتهم تطلّعوا إلى الأندلس ، وكان حكم المرابطين بها قد ضعف بسبب فقدانهم لحياة البداوة في هذه البلاد المتحضرة نوعاً ما عن المغرب ، فأرسل (عبد المؤمن الكومي) في سنة ٥٤٠ هـ جيشاً قوياً أخضع به كل ما كان تحت سلطان العرب في هذه البلاد ، وورث الموحدون ملك المرابطين في الأندلس .

وتولى الموحدون عملية الجهاد ضد الأسبان زمناً طويلاً ، وكانت عاصمتهم (مراكش) بالمغرب ولقد أصاب الموحدين ما أصاب المرابطين من قبل فانهى أمرهم إلى الضعف ، وهزموا على يد الأوروبيين سنة ٦٠٩ هـ في موقعة (العقاب) ، وكان ذلك بسبب أن الأسبان دعوا إلى حروب صليبية ضد المسلمين وجمعوا لها المتطوعين من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا .

وانكمش حكم المسلمين في الأندلس بعد ذلك وتقلص ملكهم حتى انحصر في (مقاطعة غرناطة) التي استمرت تصارع الزحف الأسباني ببسالة والمسلمون في شغل شاغل عنها حتى سقطت سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) بسبب تحالف مملكة (قشتالة) ومملكة (أراغون) المسيحيتين في الشمال على يد ملكيهما (فرديناند) و (إيزابيلا) ، وقضوا على مملكة غرناطة .

ومن العجيب أن الدول الأوروبية الكبرى كانت تدعم مسيحيي الأندلس في نضالهم ضد الوجود الإسلامي في الأندلس بينما المسلمون تركوا إخوانهم وقد تجمعت عليهم الدول الأوروبية فأخرجتهم من ديارهم التي تم تحضيرها على أيديهم ولذلك قال شاعرهم يخاطب المسلمين :

يا راتعين وراء البحر في دعة ** لهم بأوطانهم عز وسلطان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ** كأنها في ظلام النقع عقبان
أعناءكم نبأ من أهل أندلس ** فقد سرى بحديث القوم ركبان

فيارب أم وطفل حيل بينهما ** كما تفرق أرواح وأبدان
 وطفلة مثل حسن الشمس طلعت ** كأنما هي ياقوت ومرجان
 يقودها العليج للمكروه مكرهه ** والعين باكية والقلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كمد ** إن كان في القلب إسلام وإيمان
 إلى أن يقول :

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ** أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
 لماذا التقاطع في الإسلام بينكم ** وأنتم يا عباد الله إخوان^(١)

وكانت الدولة العثمانية في أثناء ذلك قد اشتد غورها وتستطيع أن تمد يد
 العون إلى المسلمين في الأندلس ولكن ذلك لم يحدث كما كانت هناك الدولة
 المملوكية في مصر والشام ولكنها كانت مشغولة بالفتن ولم تفعل شيئاً وفضل
 العثمانيون اجتياح الديار الإسلامية في الشام ومصر والقضاء على دولة المماليك بدلاً
 من تجدة الأندلس .

وكان سقوط الأندلس في يد المسيحيين نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإسلام
 وقف المسلمون بعدها موقف الدفاع ومازالوا حتى يومنا هذا ، وأعزى هذا النجاح
 الأوروبيين بمحاصرة العالم الإسلامي من الشرق .

وهكذا نفذ الغرب نظرية الهجوم على الإسلام الذي هو خير وسيلة للدفاع
 ونجحوا في ذلك إلى أبعد الحدود وما زالوا ينفذون هذه النظرية علينا في أوطاننا .

بينما لم يلتفت المسلمون لأهمية انقاذ إخوانهم في الأندلس حتى تم طردهم منها.
 وصفوة القول أن تاريخ المسلمين بالأندلس مر بعدة عصور يمكن أن نوجزها
 على النحو التالي :

١- عصر الولاة : ٩١-١٣٨هـ

٢- عصر الدولة الأموية الثانية : ١٣٨-٤٢٢هـ

(١) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٨٧-٤٨٨ وازدهار الرياض ٤٧/١ للمقرئ .

٣- عصر ملوك الطوائف : ٤٢٢-٤٧٩هـ

٤- عصر المرابطين : ٤٧٩-٥٤٠هـ

٥- عصر الموحدين : ٥٤٠-٦٠٩هـ

٦- عصر مملكة غرناطة : ٦٣٥-٨٩٧هـ

دولة الأغالية ١٨٤-٢٩٦هـ :

تنسب هذه الدولة إلى (إبراهيم بن الأغلب التميمي) وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التي دفعت الرشيد إلى تكوين هذه الدولة في منطقة إفريقية (تونس الحالية) سنة ١٨٤هـ وذلك لكي تكون دولة حاضرة لهم من امتداد النفوذ الأدرسي والخورجي والأموي إلى بقية دول المغرب، وكانت عاصمتها (القيروان) وكان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة وكان فقيهاً أديباً وشاعراً خطيباً على علم بالحرب ومكايدها ورجاحة العقل، وقد أنس فيه الذكاء أستاذه الليث بن سعد إمام أهل مصر في الفقه والحديث فقال عنه: "سيكون لهذا الفقى شأن"^(١)، وقد صدقت فيه فراسة أستاذه فإن إبراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم في أفريقية ضبط أمورها وبنى في سنة ١٨٥هـ ضاحية جديدة للقيروان أسماها العباسية لإظهار ثقته وولائه للعباسيين والاعتراف بسلطانهم ، ونقل إليها حكومته وأهله وعبيده وأهل ثقته^(٢) . وكانت طرابلس تابعة للأغالية إلا أنهم كثيراً ما كانوا يثورون عليه ، كذلك حاول في البداية حرب الإدارة ولكن أصحابه نصحوه بالعدول عن هذا وقالوا له اتركهم ما تركوك ، وكتب إليه إدريس الثاني يستعطفه ، ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق أنصاره ويذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكف عنه^(٣) .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٢) حسن إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) نفس المرجع والمكان ، ص ٢١٤ .

وظل امرأؤها يحكمون في ظل الدولة العباسية ولهم استقلال ذاتي، وظل أبناء إبراهيم بن الأغلب يتوارثون الحكم من بعده معترفين بسُلطان الخلافة العباسية حتى سنة ٢٩٦هـ وهي السنة التي قامت فيها الدولة الفاطمية في المغرب بعد أن نجحت دعوتهم في المغرب ، واكتسحوا دولة الأغالبة وغيرها من الدويلات المغربية .

ويذكر التاريخ لدولة الأغالبة الاهتمام بإنشاء بحرية قوية في البحر المتوسط استطاعت بها الهيمنة على كثير من جزره الغربية ، فقاموا بفتح جزيرة (صقلية) في عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة ٢١٢هـ وكان أسطول الفتح يتألف من مائة سفينة بقيادة (أسد بن الفرات[#]) قاضي القيروان من جيش يتألف من ٩٠٠ فارس وعشرة آلاف راجل^(١) ومما هو جدير بالذكر أن بحرية الأمويين ساعدت في فتحها مصادفة فقد جاءهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم فطلب الأغالبة منها المساعدة وأجابتهم القوات إلى طلبهم واستولوا على بعض الأماكن ولكنهم اضطروا إلى الرجوع عنها وعادوا إلى بلادهم سنة ٢١٥هـ^(٢).

وكانت جزيرة (صقلية) قبل فتحها شوكة في ظهر المسلمين وكثيراً ما كانت الدولة البيزنطية ترسل منها القراصنة للإغارة على السواحل الإفريقية الإسلامية ، وقام الأغالبة بعد هذا الفتح بحركة جهاد بحري إسلامي ضد الأوروبيين بصفة عامة والإيطاليين بصفة خاصة ، فقد غزا إبراهيم بن أحمد الثاني الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) جنوب إيطاليا واستولى على سردينيا وطوال العصر الأغلبي استمر نشاط المسلمين العسكري على سواحل إيطاليا وجزائر وسط البحر المتوسط^(٣) وتكونت

[#] أسد بن الفرات بن سنان أصله من خراسان ولد بجران من ديار بكر ١٤٥هـ وتوفي سنة ٢١٣هـ انتقل به أبوه إلى تونس وهو رضيع ونشأ بتونس وتعلم بها الفقه ورحل إلى المشرق فسمع من مالك الموطأ وغيره ثم ذهب إلى العراق فأخذ عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة .

(١) حسن إيواهيم ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) كان أسد بن الفرات مالكيًا ثم تحول إلى المذهب الحنفي وفي فترته في ظل الأغالبة غلب عليها المذهب

الحنفي أقصد إفريقية وعندما جاء المعز بن باديس حمل أهل إفريقية مرة أخرى على مذهب مالك .

(٣) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٧٩ .

بجزيرة صقلية إمارة إسلامية سحكت الجزيرة في العهد الفاطمي ، وظلت تجاهد الرومان حتى أسقطها النورمان سنة ٤٨٥هـ .

وفتحوا جزيرة (مالطة) سنة ٢٢١هـ ودعموه سنة ٢٥٥هـ ولم يكن وجود المسلمين في الجزيرة ثابتاً أو مستقراً ولكنها على أي حال كانت خاضعة لهم فترات طويلة ، وقد انتهى السلطان السياسي للمسلمين عليها سنة ٤٨٣هـ على يد النورمان واستولى عليها قراصنة القديس يوحنا سنة ٨٥٣هـ بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من رودس وظلت في أيديهم إلى أن انتزعها منهم نابليون بونابرت سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) وهو في طريقه إلى مصر ، ثم تحولت إلى مستعمرة بريطانية بعد انتصار بريطانيا على نابليون سنة ١٨١٥م^(١) .

وهكذا أدى الأغلبة دورهم في الدفاع عن ثغور المغرب الإسلامي بل مدوا نفوذ العالم الإسلامي إلى صقلية وسردينيا ومالطة وجنوب إيطاليا ، وظلت صقلية في حوزة المسلمين أكثر من قرنين كانت خلاهما مع الأندلس مصدر إشعاع إسلامي وحضاري في أوروبا ، وقد استطاع الأغلبة أن ينفذوا ضد الأوروبيين سياسة الهجوم خير وسيلة للدفاع فبهجومهم على السواحل والجزر الأوروبية حوا بذلك الشواطئ الإسلامية في شمال إفريقيا .

التقاليد البحرية الأغلبية :

لقد تأثر الشمان الإفريقي فيما بعد بالتقاليد البحرية الأغلبية فأصبحت هذه التقاليد مثلاً يحتذى به فيما بعد ، وحاولت بلاد الشمال الأفريقي أن يكون لها نشاط مماثل تجاه النشاط الأوروبي في البحر المتوسط .

وهكذا فإن هذه الحيوية البحرية الأغلبية كانت بارقة أمل يعيد للمسلمين الجهاد الإسلامي النشاط في العصر الأموي ، ولم يستمر هذا النشاط في العصر العباسي لأن الدولة العباسية لم تكن دولة بحر أوسطية وإنما كانت دولة مشرقية في

(١) المصدر السابق ، ذات الصفحة .

المقام الأول ، ونسي بذلك تختلف عن الدولة الأموية فإنها كانت دولة بحر أوسطية في المقام الأول ونشاطها في السيادة على البحر المتوسط من أجل السيطرة عليه واضح في الهيمنة على قبرص وكريت ورودرس ومحاولة فتح القسطنطينية عدة مرات ، ونجاحها في فتح الأندلس والسيطرة على مضيق جبل طارق .

وقد اهتم الأغالبة بعمارة المساجد الجامعة وأهما مسجد القيروان الذي أسسه عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ وجدده الأغالبة في عهدهم ، وجامع الزيتونة بتونس الذي أسسه بن الحبحاب عام ١١٤ هـ وجدده الأغالبة حتى صارت له سمعة علمية مثل سمعة الأزهر في مصر فهو جامعة علمية لحفظ الفكر الإسلامي وهو إمام دار الهجرة وفي عهد الأغالبة بدأ المغرب الإسلامي بكتسب طابعاً واضحاً وهو أن مذهب الإمام مالك أصبح بالنسبة للمغاربة ليس مجرد مذهب ديني وإنما أصبح لهم وطنية وعقيدة ، وظل يدفع الحياة في المغرب ويطبعها بطابع خاص ما زال موجوداً في البلاد حتى الآن.

دولة المرابطين :

العالم الإسلامي قبل ظهور المرابطين

كان العالم الإسلامي في أوائل القرن الخامس الهجري بمثابة صرح تقوض بناؤه بالانقسام شرقاً وغرباً ، فكانت تتنازعه قوى مختلفة ، وتترجمه ثلاث خلافات ، العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة والأموية في قرطبة .

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد غلب عليها النفوذ البويهي الشيعي الذي أضعف جبهة الدفاع عن العالم الإسلامي على الحدود البيزنطية ولم يقيم البويهيون بعمل شيء في هذا المجال وزادت في نهاية فترتهم المنازعات المذهبية بين الشيعة والسنة في العراق وأصبحت تهدد كيان الدولة وتشغلها عن الأخطار الحيطية بها ، وزاد في هذه المنازعات مؤامرات الدولة الفاطمية التي أحدثت في العراق والشام والمغرب اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة .

كما كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد آل أمرها في هذه الفترة إلى التفكك إلى دويلات ضعيفة متنازعة عرفت بالطوائف أو الفرق ، مما أغرى الأسبان ومن ورائهم المسيحيون في أوروبا بالتحفز والهجوم على المسلمين في الأندلس .

وكان العالم الإسلامي في حاجة إلى حركة إنقاذ تلم شعته وتقوي أطرافه وتغوره أمام الطامعين فيه ، وتحقق له هذه الأمنية حين جاءته من وراء حدوده شرقاً وغرباً عناصر فتيّة مليئة بفتوة البداوة وعنفوانها ، فمن أقصى المشرق جاءت موجات الأتراك السلاجقة السنيين الذين دحروا البيزنطيين والبويهيين وتغلبوا على البيزنطيين في آسيا الصغرى وحولوها إلى تركستان جديدة اتخذوها موطناً لهم .

ومن أقصى المغرب جاءت عناصر مغربية فتيّة من صحراء (شنقيط)^(١) المغربية (موريتانيا) وهم البربر الملتحمين أو المرابطين المتحمسين للإسلام الذين وحدوا المغرب كله وعبروا إلى الأندلس فأنقذوها من براثن الأسبان وردوا المسيحيين المتربصين بها على أعقابهم ووحّدوا الأندلس من جديد تحت نفوذهم .

ولا يهمنا موضوع السلاجقة والمشرق هنا إلا من ناحية الربط بين الأحداث ، أما ما يهمنا الآن هو أن نوضح حركة انبعاث المرابطين من صحراء المغرب الأقصى في الجنوب وإنقاذهم للمغرب والأندلس .

الظروف والملايسات السياسية بالمغرب :

كان الوضع في المغرب مثله في الأندلس لقد تحول إلى ملوك طوائف بالإضافة إلى انتشار الجهل فقد عمت الفوضى بالمغرب عقب انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ- حتى قيام دولة المرابطين سنة ٤٥٠هـ- وتعتبر هذه الفترة من أعقد فترات تاريخ المغرب وأكثرها اضطراباً وأحفلها بالحوادث ، فعندما انتقل المعز لدين الله

(١) كلمة شنقيط كانت تطلق في الأصل على قرية من قرى (ولاية أدرار) في موريتانيا الحالية ، ومعنى شنقيط بالبربرية عيون الخيل ، يقال إنها بنيت في القرن الثاني الهجري ، ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله . رآه أهل يعرفون بالشناقطة ، وما زالت مدينة شنقيط هي العاصمة الروحية للبلاد ، أما العاصمة السياسية فهي مدينة (نواكشوط) على ساحل الأطلسي [أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص ٤٧٨] .

الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٢هـ أسند حكم أفريقية وبعض بلاد المغرب إلى أحد رجاله البارزين من قبيلة صنهاجة البربرية الجبلية وهو (يوسف بن زيري) لكي يستفرغ خلفاء الفاطميين للجزء الشرقي من الدولة في مصر والشام والحجاز لمناوأة الدولة العباسية .

واستمر بنو زيري على ولائهم للفاطميين إلى أن تولى أمرهم (المعز بن باديس) (٤٠٦-٤٥٣هـ) الذي تخلى عن ولائه للفاطميين ودعا للعباسيين وقد واجهه الخليفة الفاطمي هذا الموقف بأن أرسل إليه بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في صعيد مصر وفي شرق الدلتا وهم (بنو هلال) و(بنو سليم) للانتقام منه، وكانت هذه القبائل قد اشتركت مع القرامطة في غزو بلاد الشام واستقرت بعض بطونها بتلك البلاد، وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هلال وبنو سليم بالفاطميين وعرضوا عليهم خدماتهم نقلهم الفاطميون معهم إلى مصر^(١). وعندما قطع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين قرر المستنصر الفاطمي توجيه قوة بني هلال وبني سليم إليه قائلاً لهم :

"قد أعطيناكم المغرب وملك بن باديس العبد الآبق"^(٢) ثم كتب إلى ابن باديس يقول له :

"أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"^(٣) فاجتاحت قبائل بني هلال وبني سليم دولة بني زيري وحاصروا أمراءها في مدينة المهدية على شاطئ البحر ، وعقب هذا الهجوم شاعت في المغرب كله فإن القبائل العربية بعد قضائها على دولة المعز بن باديس

(١) محمد بن شديد العوي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، ص ٢٦٤-٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٥٥ ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٧٩-٨٠ .

الصنهاجي التحموا (بقبائل زناتة)^(١) حين وصلوا إلى مركزهم بتلمسان المغرب الأوسط ودفعوهم إلى المغرب الأقصى وخرج الزناتية بدورهم مندفعين إلى جنوب المغرب الأقصى وطرّدوا الصنهاجيين إلى الجنوب فأصبحوا محصورين بين زناتة من الشمال والقبائل السنغالية في حوض السنغال من الجنوب .

وكانت هذه هي الظروف التي دفعت قبائل صنهاجة^(٢) الصحراء في منطقة شنقيط أو موريتانيا الحالية وشمال السنغال إلى التحرك للتخلص من هذا الوضع ولم يجدوا سوى الإسلام والتمسك بأهدافه فسعوا من أجل النهضة الإسلامية ، وكانت هذه القبائل ما زالت ضعيفة في إسلامها متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجري فحدثت فيها انتفاضة إسلامية إصلاحية كان قوامها تعاون الأمراء مع الفقهاء والحركات السياسية التي قامت في التاريخ الإسلامي بتعاون الفقهاء والحركات السياسية التي قامت في التاريخ الإسلامي بتعاون الفقهاء والأمراء كانت قوية وكونت دولا قوية ألقت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم أمام الخطر المحدق بهم من الشمال والجنوب ، وذلك على أسس دينية وأخلاقية على يد الأمير (يحيى بن عمرو بن إبراهيم الجدالي) زعيم المثلثين ، والفقهاء (عبد الله بن ياسين الجزولي) وهما من أصل صنهاجي ، وكان ابن ياسين من أهل الورع والفضل والسياسة على جانب طيب في الناحية العلمية فتعاهد مع القائد يحيى في سنة ٤٣٠هـ على العمل

(١) بلاد المغرب الأوسط من نهر "شلف" إلى قرب مجرى نهر "المولوية" وينقسم قسمين : شرق المغرب الأوسط وهو مهد صنهاجة المغرب الأوسط ، وغرب المغرب الأوسط وعاصمته "تلمسان" ويغلب عليه الزناتيون ، وكان ولاؤهم موجهاً نحو الأمويين الأندلسيين وكانت الحرب دائمة طوال هذه الفترة بين الجانبين ، وعندما دخل بنو هلال وبنو سليم دفعوا الزناتية إلى المغرب الأقصى .

(٢) قبائل صنهاجة الصحراء : هم : جُدَّالة ومَسُوفة ولَمَثَوَّة وثَارَجَا وجَزُرَّة وبنو وَاثِث ، وكانت هذه القبائل تمتد أول الأمر إلى الشمال وتحتل إقليم تافيلالت وقاعدته سبلماسة فلما بسط الزناتيون سلطانهم على المغرب الأوسط طردوا الصنهاجيين إلى الجنوب .

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين قبائل صنهاجة ، غير أن قبائل صنهاجة نفرت منه في البداية .

وانتهى الأمر إلى انتخاب مجموعة منهم اعتزلوا الناس للعبادة مرابطين في مكان أطلقوا عليه (الرباط)^(١) وشاع أمرهم بأنهم يطلبون الجنة فكثرت الواردون عليهم الذين كانوا يتوبون على أيديهم ، وأخذ الداعي ابن ياسين يرغبهم في ثواب الله حتى تمكن من قلوبهم ، فلم تمر عليه سوى فترة وجيزة حتى تجمع لديه نحو ألف رجل من أشرف صنهاجة فسماهم المرابطون وكانوا سنيين على مذهب الإمام مالك ، وأخذ يعلمهم الكتاب والسنة وما فرض عليهم من ذلك ، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة .

وانتهى بهم الأمر إلى فرض دعوتهم في بطون صنهاجة في الصحراء ، واتجهوا بعد ذلك إلى الشمال لغزوة ، وكانت الأراضي الواقعة في الشمال في ذلك الوقت في فوضى ، فعلى أنقاض الخلافة الأموية في الأندلس قامت إمارات عديدة صغيرة في كلا جانبي مضيق جبل طارق ، وفي المناطق الشرقية من المغرب كان أمر الفاطميين قد ضعف منذ تمرد المعز بن باديس ، وهجوم قبائل بني هلال وبني سليم على هذه المناطق فأشاعوا فيها الخراب والدمار والحرب وفي سنة ٤٤٧ هـ توفي (يحيى بن إبراهيم الجدالي) فعين ابن ياسين مكانه أخوه (أبو بكر بن عمر بن إبراهيم الجدالي) وعلى أيامه أصبح المرابطون قوة ضاربة متماسكة دينياً وأخلاقياً وعسكرياً .

فخرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني (عبد الله بن ياسين) وقائدهم الحربي (أبو بكر بن عمر الجدالي) ، وبدءوا يجاهدون الزناتية الذين

(١) قيل إن هذا المكان كان في جزيرة بنهر بالنيجـ [الفريد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ، ص ٢٢٦ - ٢٣٠] ، وقنيل كان هذا المكان في جزيرة في نهر السنغال ، [توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٥٢] وقيل إنما جزيرة في المحيط الأطلسي قرب الساحل [أحسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٨٠] .

يضغطون عليهم من الشمال فانتصروا عليهم وكسروا الحصار الذي كان مضروباً عليهم في الشمال والجنوب .

فاستولوا على بلاد السوس في جنوب المغرب وقاعدتها (تارودانت) سنة ٤٤٨هـ — وفتحوا (سجلماسة) واتخذوها عاصمة لهم في البداية ثم اتجهوا بعد ذلك إلى (بلاد الحوز) واستولوا على عاصمتها (أغمات) في جنوب مراكش ، ونظراً لأهمية أغمات كمدينة متحضرة من جهة ولقربها من الصحراء من جهة أخرى ، فقد اختارها المرابطون عاصمة مؤقتة إلى أن يتم بناء عاصمة جديدة لهم وآثر أبو بكر بن عمر عبور الصحراء جنوباً للجهاد في الجبهة الثانية ضد مملكة غانا الوثنية وترك بن عمه يوسف بن تاشفين يجاهد في الشمال ، وفي سبيل هذا الهدف العظيم اضطر الأمير المجاهد أبو بكر عمر أن يترك زوجته وأهله ووطنه وأن يبيع نفسه من الله ، ويروى أنه قال لزوجته زينب النفزاوية عند فراقه لها : يا زينب إني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلني أرزق الشهادة والفوز بالأجر البافر ، ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسئولاً عنك . والرأي أن أطلقك ثم طلقها ، ويقال أنه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين : "تزوجها فإنها امرأة مسعودة فتزوجها يوسف ، وتوجه أبو بكر بن عمر إلى الجهاد ضد مملكة غانا ^(١) وتوفي سنة ٤٨٠هـ ، ولم تكن العلاقة طيبة بين المرابطين ومملكة غانا فكانت هناك اعتداءات متبادلة ، وتمكن أبو بكر من فتح بلادهم ونشر الإسلام بها وقيام مملكة مالي الإسلامية على أنقاضها وكان هذا ثمرة من ثمار جهاد المرابطين وقائدهم الحربي أبو بكر بن عمر الجدالي .

وفي سنة ٤٥٣هـ آلت زعامة المرابطين إلى شخصية قوية هي شخصية (يوسف بن تاشفين) وهو أقوى حكام المرابطين تمت في عصره السيطرة على المغرب

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ٩ ، (١٠٠٥-١٠٩٧ م) .

الأقصى والجزائر وأسس مدينة مراكش^(١) سنة ٤٦٢هـ كعاصمة للمرابطين ، وقيل سنة ٤٥٤هـ ، وقام بتوحيد بلاد المغرب الأقصى والأوسط ، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم ضعيف العارضين لا يعرف العربية غير ميل إلى الرفاهية شجاعا عادلا مقداما مؤثرا لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم يحطمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب الكبار ، أكثر رجاله وحشمه وخاصته من السودان وهم الذين اعتمد عليهم في معاركه بالمغرب والأندلس فحققوا له النصر بفضل ما اشتهروا به من ثبات سنذكر طرفا منه فيما بعد .

ولما ظهر نجم يوسف بن تاشفين بعد توحيد المغرب تطلعت إليه أنظار المسلمين بالأندلس فاستغاثوا به من ضغط الأسبان عليهم وطلبوا نجدة فلبى نداء ملوك الطوائف سنة ٤٧٨هـ وكانت استجابة المرابطين لنجدة إخوانهم بالأندلس بعد فتوى صدرت من علماء جامع الترويين بضرورة نجدة إخوانهم في الأندلس^(٢) وقد سبقتهم شهرتهم في العبور إلى أعداء الإسلام وأصبح لها دوي كبير وخاصة لاستيلائهم على المغرب في فترة وجيزة ، وعلم الأعداء بشجاعتهم وتفانيهم في الجهاد وجهم للجهاد وزهدهم في الدنيا ، وسمعوا ما ظهر لأبطالهم في المعارك من ضربات بالسيوف تقذ الفارس وطعنات تصل إلى الكلى والقلوب ، فأصبح لهم رعب في قلوب الأعداء .

وقد عبرت قوات المرابطين مضيق جبل طارق والتقت مع الأسبان وحلفائهم من المسيحيين في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ شمال

(١) مراكش : اسم بربري قديم قد يكون مشتقا من أوركش ويعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود ، وفي هذا يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب : وإنما سميت بعيد أسود كان يستوطنها ويخيف الطريق اسمه مراكش ، أما ابن خلدون فيرى أن معنى مراكش : امش مسرعا في لغة المصامدة لأن موضعها كان مأوى للمصوص (اتخذ مختار العبادي ، مرجع سابق)

(٢) عبد الهادي التازي ، جامع القرابين ، ج ١ ، ص ١٤ .

قرطبة ويصف بعض المؤرخين عبور قوات بن تاشفين فيقول : " فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال فعب منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملاً ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ، ولا سمعت أصواتها ، وكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب ، كان يحذر بها معسكره ، وكان يحضرها الحرب ، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها وتجمع براكبها في المعركة " فلما التقى الجمعان قدم يوسف بن تاشفين بين يدي حربه كتاباً على مقتضى السنة يعرض على الألفونس الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وقال له : بلغنا أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فُلكٌ تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (غافر : ٥) ، فرفض عرضه مغتراً بجيشه الذي بلغ نحو ستين ألفاً ودارت الدائرة فيها على أعداء الإسلام ، ولم يملك قائددهم سوى الفرار مع عدد قليل من جيشه قيل إنهم دون الثلاثين ..

وقيل إن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم ، وجمعت الغنائم وعف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف بن تاشفين لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له ^(١) ، وبذلك أوقف المرابطون تقدم الأسباب إلى الجنوب وأجلوا سقوط دولة الإسلام بالأندلس نحو أربعة قرون ، وبعد هذا النصر عادوا إلى أفريقيا مرة أخرى ، لكن حال ملوك الطوائف بالأندلس لم يستقر واستمرت خلافاتهم المرابطون إلى الأندلس مرة أخرى في سنة ٤٨٢هـ وعزلوا ملوك الطوائف ووحّدوا بلادهم تحت راية المرابطين .

(١) ابن خلكان ، ج ٧ ، ص ١١٦-١١٧ .

وقد أضاف يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس إلى دولة المرابطين بالمغرب وكانت العاصمة (مراكش) ، وقد تمكن المرابطون من المحافظة على ما ورثوه من الأندلس الإسلامي بفضل ما بذلوه من جهود جلية في الجهاد وما كسبوه من انتصارات كبرى وما تكبدوه كذلك من خسائر وبهذا تظهر أهمية العامل الديني في الدفاع عن الإسلام فقد ظهرت أهميته في إعلان المرابطين للجهاد ضد قوى الكفر والمنحرفين وانتصروا لذلك .

وبهذا نرى أنه لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية من عصر الفتوح إلى الآن أن انحذلت أمتنا في معركة كانت العقيدة لواءها والإيمان ذخيرتها وإدارة الجهاد سلاحها ، وهذا هو التفسير الحقيقي لتاريخنا ، سواء قاد مسيرتنا العرب أو الأتراك أو الفرس أو البربر أو غيرهم ، فإن الله وعد من يقاتل في سبيله النصر ، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

وقد كانت توضحيات المرابطين في الأندلس من أكبر الأسباب التي مكنت الموحدين من التغلب عليهم ^(١) بالإضافة إلى أن هذه البلاد الثرية الجميلة بالنسبة للصحراء الأفريقية قضت على خشونة المرابطين فعجزوا بعد فترة عن مقاومة غارات المسيحيين المستمرة ، وتغلب عليهم الموحدون .

ومما هو جدير بالذكر أن المرابطين اعترفوا بالخلافة العباسية السنية رغبة منهم في المحافظة على الوحدة الإسلامية ، ولأنهم كانوا لا ينشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال ، ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة لسوء اعتقادهم فيه وعدائهم للفاطمين بسبب تدخلهم في شئونهم .

ولذلك اتصل المرابطون بالخلفاء العباسيين وتبادلوا الرسائل معهم ، ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب ، واستقرت الدولة في مراكش كان طبيعياً أن

(١) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١ .

يتخذ لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه ، فرأى رجاله أن يتخذ لقب أمير المؤمنين ولكنه رفض وقال : إنه لقب خلفاء بني العباس .

وبعد انتصاره على الأسبان في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ بالأندلس حمل لقب (أمير المسلمين وناصر الدين) ، وعلى أنه لم يقبل في البداية أن يحمل هذا اللقب إلا بعد أن أرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فلم ير الخليفة بدا في عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برئاسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤هـ وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين بالأندلس^(١) .

وبذلك يمكن أن نقول إن المغرب في عهد المرابطين قد انتهى إلى وحدة دينية ومذهبية كاملة ، فقد أضحت المغرب كله من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي ومن البحر المتوسط إلى مشارف إفريقية المدارية على مذهب السنة والجماعة ، وأصبح يؤلف مع الدولة العباسية في المشرق وحده مذهبية سنية كان السلاجقة السنيون قد ساهموا هم أيضاً في بناء قواعدها في المشرق في عصرهم . .

الموحدون :

أسس جماعة الموحدين بالمغرب داعية يسمى (محمد بن عبد الله بن تومرت) من قبيلة مصمودة البربرية في حوالي سنة ٥١٥هـ ، وقد شب بن تومرت محباً للعلم ، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بمصر وزار العراق وحج ولقي جماعة من العلماء بهذه البلاد وأفاد علماً واسعاً .

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٣١٢-٣١٦ ، ويذكر ابن الأثير أن علماء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين أنه ليست طاعته بواجبة حتى يطلب للخليفة ويأتيه تقليد بالبلاد ، فأرسل إلى الخليفة المقتدي فأثابه التقليد منه .

وبعد عودته إلى المغرب أخذ نفسه بتدريس العلوم الشرعية بالمغرب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان ينتحل مذهب الأشاعرة في تأويل المتشابه ، ولقي بسبب ذلك أذى كثيراً .

ومذهب الأشاعرة نسبة إلى (علي بن إسماعيل الأشعري) المعروف بأبي الحسن الأشعري وهو من نسل الصحابي الكريم أبي موسى الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ) ، وقد نشأ بالبصرة وكان من كبار المعتزلة ولكنه خرج عليهم وخالفهم في أخريات حياته وأصبح يهاجمهم ومن أهم كتبه "مقالات الإسلاميين" .

فالمعتزلة يقولون بأن الله : قادر بذاته عالم بذاته متكلم بذاته لا بقدره وعلم وكلام زائدة على ذلك إذ لو كان عالماً بعلم زائد ومتصفاً بهذه الصفات كلها لكان هناك صفة وموصوف وهذه صفة الجسمية والله تعالى منزّه عن الجسمية . وجاء الأشعري فأثبت هذه الصفات لله متميزة وقال بأنها أزلية وقديمة قائمة بذاته تعالى .

وكان السلف من الصحابة والتابعين قد امتنعوا أن يخوضوا في هذا الموضوع ، وقالوا : إن الله تعالى ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء فيقولون في مثل قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ و ﴿ خلقت بيدي ﴾ ونحو ذلك نؤمن بها ولا نؤولها ، ونكل أمرها إلى الله ، أما الغلو وأما التأويل فلسنا مكلفين بهما . وقال مالك بن أنس عند سؤاله عن ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ : الاستواء معلوم والتكليف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومثل ذلك ما قال أحمد بن حنبل .

وكان للأشعري أتباع أقوياء من شافعية وحنفية ومالكية وحنبلية ، كأبي إسحق الأسفراييني وأبو بكر القفال والحافظ الجرحاني وأبو محمد الطبري العراقي وأكثرهم جالسوه وأخذ عنه ، وجاءت بعد هؤلاء طبقة ثانية : كالصعلوكي والداراني وأبو بكر الباقلاني وأبو بكر فورك ، ومن الطبقة الثالثة : أبو الحسن السكري وأبو منصور النيسابوري وأبو منصور البغدادي ، والحافظ الهروي وغيرهم . ومن الرابعة :

وبعد عودته إلى المغرب أخذ نفسه بتدريس العلوم الشرعية بالمغرب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان ينتحل مذهب الأشاعرة في تأويل المتشابه ، ولقي بسبب ذلك أذى كثيراً .

ومذهب الأشاعرة نسبة إلى (علي بن إسماعيل الأشعري) المعروف بأبي الحسن الأشعري وهو من نسل الصحابي الكريم أبي موسى الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ) ، وقد نشأ بالبصرة وكان من كبار المعتزلة ولكنه خرج عليهم وخالفهم في أخريات حياته وأصبح يهاجمهم ومن أهم كتبه "مقالات الإسلاميين" .

فالمعتزلة يقولون بأن الله : قادر بذاته عالم بذاته متكلم بذاته لا بقدره وعلم وكلام زائدة على ذلك إذ لو كان عالماً بعلم زائد ومتصفاً بهذه الصفات كلها لكان هناك صفة وموصوف وهذه صفة الجسمية والله تعالى منزّه عن الجسمية . وجاء الأشعري فأثبت هذه الصفات لله متميزة وقال بأنها أزلية وقديمة قائمة بذاته تعالى .

وكان السلف من الصحابة والتابعين قد امتنعوا أن يخوضوا في هذا الموضوع ، وقالوا : إن الله تعالى ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء فيقولون في مثل قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ و ﴿ خلقت بيدي ﴾ ونحو ذلك نؤمن بها ولا نؤولها ، ونكل أمرها إلى الله ، أما الغلو وأما التأويل فلسنا مكلفين بهما . وقال مالك بن أنس عند سؤاله عن ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ : الاستواء معلوم والتكليف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومثل ذلك ما قال أحمد بن حنبل .

وكان للأشعري أتباع أقوياء من شافعية وحنفية ومالكية وحنبلية ، كأبي إسحق الأسفراييني وأبو بكر القفال والحافظ الجرحاني وأبو محمد الطبري العراقي وأكثرهم جالسوه وأخذ عنه ، وجاءت بعد هؤلاء طبقة ثانية : كالصعلوكي والداراني وأبو بكر الباقلاني وأبو بكر فورك ، ومن الطبقة الثالثة : أبو الحسن السكري وأبو منصور النيسابوري وأبو منصور البغدادي ، والحافظ الهروي وغيرهم . ومن الرابعة :

اختطيب البغدادي وأبو القاسم القشيري وإمام الحرمين ومن الخامسة : الغزالي ، وفخر الإسلام الشاشي ، وأبو نصر القشيري وابن عساكر والسمعاني وأبو طاهر السلفي ، ومن السادسة : فخر الدين الرازي وسيف الدين الآمدي وعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب المالكي ، إلى كثير غيرهم ، وكل هؤلاء تبايعوا على نصرته مذهبه وخفوت خصومه ^(١) .

ولجأ ابن تومرت إلى (تينملل) بجبال مصمودة على مقربة من مراکش ^(٢) وهداه تفكيره إلى توحيد قبائل مصمودة لتخلص من سلطان صنهاجة ، والتغلب عليها وإقامة دولة مصمودية ، ونجح في جمع شتات مصمودة ، وربهم في تنظيم ديني عسكري وبأ يواجه بهم المرابطين .

وفي سبيل هدفه السياسي ادعى أن المرابطين منحرفون عن الإسلام رغم ما عرف عن أميرهم علي بن يوسف بن تاشفين يومئذ من شدة تمسكه بالإسلام وكان من أصلح الحكام وأشدهم نصرة للإسلام على غرار أبيه ، ولكن (ابن تومرت) كان في الحقيقة داعياً سياسياً يسعى إلى توحيد قبائل مصمودة ، وغطى أهدافه السياسية بهذه المظاهر الدينية وعين كبير أصحابه (عبد المؤمن بن علي الكومي) قائداً عسكرياً لرجاله وأتباعه ، وبني (رباطاً) لأتباعه سنة ٥١٥هـ في تينملل اجتمعت فيه إليه الطلبة والأنصار للعبادة والتعلم ، وكان يعلمهم دروساً في التوحيد باللغة البربرية ، ولذلك سمي أتباعه (بالموحدين) ، وقد تحرش به رجال (علي بن يوسف بن تاشفين) أمير أغمات فطلبه ، وكان قد بايعه أتباعه ولقبوه بالمهدي ، وقسم أصحابه إلى أنصار وإلى مهاجرين ، وكان يدعي أنه حسني علوي .

(١) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

(٢) تين ملل قيل هي اسم جبال مصمودة سكنها برابرة مصمودة بينها وبين مراکش ثلاثة فراسخ (الفرسخ

٣ أميال والميل ٢ كم = ٦ كم) [ياقوت] .

وتوفي سنة ٥٢٢هـ بعد أن قرر قواعد مذهب الموحدين وكثر أتباعه وخاصة من المصامدة ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لكبير أتباعه وهو عبد المؤمن الكومي^(١) وكان ابن تومرت رجلاً ربعة ، أسمر اللون ، عظيم الهامة ، حديد النظر^(٢) [قدم في الثرى وهم في الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء الحيا] .

وكتب لعبد المؤمن النصر بعد وفاة ابن تومرت فاستولى برجاله على مراكش سنة ٥٤٠هـ وفاس سنة ٥٤٢هـ وتلمسان سنة ٥٤٨هـ وإفريقية سنة ٥٥٥هـ وامتد ملكه إلى الأندلس حيث كان قد أرسل جيشاً إلى الأندلس سنة ٥٤٦هـ فأخضع ما كان فيها بأيدي المرابطين^(٣) .

وهكذا دخل في حوزة الموحدين كل سواحل الشمال الأفريقي من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي .

وكان الموحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم لأنهم من وجهة نظرهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً وعندما عين ابن تومرت عبد المؤمن الكومي قائداً بعده للموحدين قال لأتباعه : "أنتم المؤمنون وهذا أميركم"^(٤) ، وبهذا لم يجد أتباع الموحدين حرجاً في أن يلقبوا زعيمهم بلقب أمير المؤمنين ومن الألقاب التي أخذها عبد المؤمن لقب "خليفة" .

ومن هنا نلاحظ أن الوحدة التي أقامها المرابطون مع المشرق بعلاقتهم الطيبة بالدولة العباسية واعترافهم بها وأقامتهم الخطبة للخليفة العباسي ، أقول إن هذه

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٠-٣٠٦ ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان : أن وفاة ابن تومرت كانت سنة ٥٢٤هـ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٥٣-٥٤ .

(٣) كان ذلك بطلب الأندلسيين حين أرسلوا إلى قائد الموحدين يقولون له : من شعر أبي عبد الله بن الأبار من مطلع قصيدته السنية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً * إن السبيل إلى منجاة درسنا

(٤) المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٨٨ .

الوحدة قد انفصمت بقيام دولة الموحدين الذين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين على الرغم من أنهم كانوا سنة مثلهم .

الباب الثاني

الفصل الثاني

الدول التي نشأت في مصر والشام

- الدولة الطولونية
- الدولة الإخشيدية
- الدولة الفاطمية
- الدولة الحمدانية
- دولة مصر والشام في العصر الأيوبي
- دولة مصر والشام في العصر المملوكي

الدول التي نشأت في مصر والشام

الدولة الطولونية ٢٥٤-٢٩٢هـ :

منذ عصر الراشدين أصبحت مصر قاعدة لانطلاق المسلمين في شمال أفريقيا ونحو الجنوب في بلاد النوبة والسودان كما وأصبحت قاعدة للدفاع عن المغرب ، ولذلك ظهرت فيها البحرية الإسلامية للدفاع عن السواحل الشرقية للبحر المتوسط ضد غارات الروم ^(١) ، وكان هناك نوع من الارتباط بين مصر والشام في مجال التعاون العسكري والإداري ، وبداية من العقد الأول للنصف الثاني من القرن الثالث الهجري تبدأ في الظهور (وحدة سياسية) يمكن أن نسميها دولة مصر والشام التي ستطور مع الزمن حتى تصبح (سلطنة مصر والشام) ابتداء من العصر الأيوبي هذه الدولة شملت مصر بحدودها التاريخية التي تمتد إلى مملكة النوبة ودنقلة جنوباً والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء شرقاً ، وتمتد غرباً حتى تشمل برقة في ليبيا الحالية . أما بلاد الشام فيقصد بها كل البلاد الواقعة بين نهر الفرات والبحر المتوسط ، ومن الحدود الشمالية للجزيرة العربية حتى جبال طوروس شمالاً ^(٢) .

وقد ولدت هذه الوحدة في عصر أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ) وأحمد بن طولون تركي من نواحي بخارى [#] قضى أحمد سنوات طويلة من شبابه في (طرطوس) من بلاد الثغور مع الدولة البيزنطية وهناك تعلم فنون الفروسية والحرب بالإضافة إلى تعلمه علوم الدين واللغة العربية ، وعندما سيطر الأتراك على الخلافة في بغداد فإن نفوذهم لم يقتصر على العاصمة بل تعداها إلى الولايات الإسلامية بما فيها

(١) ذات الصوري سنة ٣١هـ .

(٢) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣٠٧ .

[#] كان أبوه طولون من المماليك الأتراك الذين أرسلهم حاكم مدينة بخارى ضمن هدايا الرقيق التركي إلى الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠هـ وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى وصل إلى مرتبة قائد الحرس الخلافي ، وكانت ولادة ابنه أحمد في مدينة سامرا في عهد المعتصم سنة ٢٢٠هـ ، وقيل أن طولون تناء ولم يكن ابنه ، ... [أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ١٢٨-١٢٩] .

مصر ، وجرت العادة أيضاً أن تمنح مصر إقطاعاً لأحد القادة الأتراك وجرت العادة أيضاً أن يقي هؤلاء الولاة إلى جوار الخليفة في بغداد أو سامرا ويرسلون من ينوب عنهم في حكم مصر ، وكان هؤلاء النواب الأتراك الذين حكموا مصر أحمد بن طولون منذ عام ٢٥٤هـ فقد كان نائباً عن الأمير التركي (باكباك) الذي عينه المستوكل والياً على مصر ، وبذلك أتاحت الفرصة لأحمد بن طولون أن يقيم في مصر أول دولة منفصلة عن الخلافة العباسية ولكن هذا الانفصال لم يكن تاماً ، وإنما بقيت هناك روابط بينه وبين الخلافة ، وهذه الروابط تتمثل في بعض المظاهر الشكلية ، وهي الدعاء للخليفة في الخطبة يوم الجمعة ونقش اسم الخليفة على النقود وإرسال جزء من الخواارج للدولة ، وهذه الظاهرة لا نجد لها في دول المغرب الإسلامي التي انفصلت انفصلاً تاماً عن الخلافة .

ولذلك حرصت دويلات المشرق بما في ذلك دولة مصر والشام على إعلان تبعيتها وولائها عن طريق تلك المظاهر السائفة .

ولم يقتصر نفوذ ابن طولون على مصر وحدها بل امتد نفوذه إلى بلاد الشام شمالاً وإلى ليبيا غرباً والنوبة ودنقلة جنوباً .

وقد نشأت دولة مصر والشام نتيجة لخلاف طويل وقع بين أحمد بن طولون وأحمد الموفق أخي الخليفة العباسي المعتمد ، وكانت نتيجة هذا الخلاف أن قرر أحمد بن طولون غزو الشام وإدخال ما يستطيع إدخاله من بلادها في ولاية مصر ، فاستولى على الساحل الشامي حتى أنطاكية ودمشق وحمص وحلب وحماة^(١) ، وساعده على ذلك انشغال الدولة العباسية بثورة الزنج .

ولقد شهدت مصر بعض التطورات الحضارية والعسكرية على عهد الطولونيين ، فقد أصبح لها جيش خاص بها يصل تعدادها نحو سبعين ألفاً^(٢) من

(١) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣٠٧ .

(٢) المقرئزي ، الخطط .

الأتراك والسودانيين والعرب وأسّس لمصر عاصمة جديدة سماها القطائع سنة ٢٥٦ هـ على جبل يشكر بجانب جبل المقطم وسبب تسميتها بالقطائع أنه قسمها قطائع بين جنده ^(١) وبني له فيها قصرأ فخماً ، ومسجداً جامعاً هو المعروف باسمه إلى الآن على حالته التي بني عليها ، وهو يمثل عمارة المساجد العراقية في مصر والفن العباسي بها على غرار مسجد سامرا ، وهو أكبر مساجد القاهرة اتساعاً ، وكان مكاناً لحركة علمية نشطة بجانب جامع عمرو بن العاص بالقسطاط حتى إنشاء الأزهر في العصر الفاطمي .

وحصن أحمد بن طولون ثغور مملكته في مصر والشام وأنشأ داراً لصناعة السفن في جزيرة الروضة وسط النيل تجاه القسطاط .

وفي خلال حكم ابن طولون وقع نزاع بين الخليفة العباسي المعتمد وبين أخيه وولي عهده أحمد الموفق الذي استبد بالحكم وسيطر على أخيه الخليفة في الحرب إلى مصر ، وشجعه أحمد بن طولون وطلب منه نقل الخلافة إلى مصر ، لكن هذا المشروع أحبطه الموفق عندما علم به وحجر على أخيه الخليفة سنة ٢٦٩ هـ .

وزاد العداء بين ابن طولون والموفق لدرجة جعلت ابن طولون يتقرب من الأمويين في الأندلس من باب الكيد للموفق وأتباعه ، وأصبح للأندلسيين جالية في مصر وكان بعضهم يسكن في جامع بن طولون ويدرسون فيه ^(٢) .

وتوفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ وله من العمر نحو خمسين سنة بعد حكم دام نحو ١٦ سنة وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين منهم سبعة عشر من الذكور ، وستة عشر من الإناث تمتعت مصر في عهده بالرفاهية والاستقرار وانتعشت بذلك كل مرافق البلاد ، وذلك راجع لشخصية أحمد بن طولون فقد كان حاكماً مستنيراً ،

(١) كانت القسطاط أول عاصمة للمسلمين في مصر في جنوب القاهرة الحالية سنة ٢٢ هـ ثم أنشأ

العباسيون مدينة العسكر شمالها سنة ١٣٢ هـ لتكون مقراً للحامية العباسية والحكم العباسي الجديد .

(٢) رحلة ابن جبر ، ص ٢٦-٢٧ ، طبعة بيروت .

وعلى الرغم من أنه نشأ كغيره من الأتراك نشأة عسكرية في سامرا إلا أنه درس العلوم الدينية والعربية مما ساعده على القيام بسياسة مصر والارتقاء بها .

وفي عهد خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠-٢٨٢هـ) تحسنت العلاقات بين دار الخلافة والدولة الطولونية واكتسب رضا الخليفة المعتضد بن الموفق (٢٧٩-٢٨٩هـ) إلى درجة المصاهرة بين الطرفين فقد تزوج المعتضد ابنه خمارويه قطر الندى سنة ٢٨١هـ ، وصرف عليها على تجهيزها خمارويه أموال طائلة .

وفي سنة ٢٩٢هـ كان البيت الطولوني قد ضعف فأرسلت الدولة العباسية جيشاً أعاد مصر إلى الدولة العباسية ، وظلت مصر تابعة تبعية مباشرة لدولة الخلافة حتى قيام الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣هـ وخلال الفترة من ٢٩٢ إلى ٣٢٣هـ اختفت الوحدة بين مصر والشام وعادت بعد قيام الدولة الإخشيدية .

الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى محمد بن طغج الإخشيد^(١) ، وهو قائد تركي من أصل فرغاني دافع عن مصر أثناء تعرضها للغزو من قبل الفاطميين وأبلى بلاءً حسناً ، فكافأه الخليفة الراضي بأن ولاه على مصر سنة ٣٢٣هـ .

وكان هدف الخلافة من ذلك إنشاء قوة في مصر تستطيع صد هجمات الدولة الفاطمية التي أصبحت تطمح إلى توسيع ملكها نحو الشرق ، فعينت الرجل الذي تولى قيادة الدفاع عنها ونجح أكثر من مرة وهو محمد بن طغج الإخشيدي ولكنه ما لبث أن قويت أقدامه بها وعمل على الاحتفاظ بالملك في أسرته وأبنائه من بعده للانفراد بشئونها بعيداً عن سلطة الدولة العباسية .

(١) الإخشيد : لقب تركي كان يتلقب به ملوك فرغانة في بلاد ما وراء النهر ، ويقال إن الإخشيد كان من سلالة هؤلاء الملوك وهو مثل لقب قبصر وكسرى ، وفرعون والنجاشي ، ويقال إنه طلب هذا اللقب من الخليفة الراضي بعد انتصاره على الفاطميين .

وحاول محمد الأخشيد أن يمشي على منوال أحمد بن طولون في إدارة مصر ، وحاول الإخشيد التوسع شمالاً في بلاد الشام على غرار ما قام به ابن طولون من قبل ولكن الدولة العباسية وقفت في وجهه ، وعينت أحد قوادها وهو (محمد بن رائق) على جنوب الشام ، أما شمال الشام فقد استولى عليه الحمدانيون ، ولهذا قضى الإخشيد حياته يحارب ابن رائق في الجنوب والحمدانيين في شمال الشام والفاطميين من الغرب .

وحاول محمد الإخشيد نفس المحاولة التي قام بها أحمد بن طولون قبل وهي نقل الخلافة العباسية إلى مصر لتكون تحت حمايته سنة ٣٣٣هـ لكن محاولته فشلت وعز على الخليفة (المتقي) أن يترك عاصمة أجداده ومقر أسرته ويذهب إلى مصر وكان (الخليفة المتقي) عندما ساءت حالته بسبب استبداد الأتراك به اتصل بمحمد الإخشيد واجتمع به في مدينة الرقة في شمال الفرات وطلب من الخليفة أن يصحبه إلى مصر حيث يكون تحت حمايته .

وتوفي الإخشيد سنة ٣٣٤هـ وكان قد أوصى بالملك من بعده لابنه (أبي القاسم أونوجور) وكان صبياً دون الرابعة عشرة من عمره ، فتولى الوصاية عليه عبده الحبشي وهو كافور شخص حبشي كان في خدمة الإخشيد وكان في بداية حياته من رقيق الإخشيد ثم اعتنق إلى أن صار مربياً لولدي الإخشيد فأسند إليه قيادة جيوشه في حربه ضد سيف الدولة الحمداني وغيرها من الحروب ثم عهد إليه بالقيادة على أبنائه ، وكان كافور حسن السياسة استطاع أن يحصل من الخليفة على عهد بتولية الأمير الصغير أونوجور على مصر والشام ما عدا حلب .

واستطاع كافور بحكم هذه الظروف أن يستبد بالحكم ، وأن يصير الحاكم الحقيقي للبلاد من ٣٣٤هـ حتى توفي كافور سنة ٣٥٧هـ واستطاع كافور أن يراوغ المعز الفاطمي عندما دعاه للدخول في طاعته ، واستطاع بدهائه وكياسته أن يؤخر الغزو الفاطمي لمصر طوال عهده .

وكان السبب كما يقول أبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، أن كافور كان فطناً خبيراً بالسياسة ذكياً جيد العقل ، وكان يهادي المعز ويظهر ميله إليه وفي الوقت نفسه يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء واشتهر بالكرم على عكس مولاه الإخشيد الذي كان بخيلاً .

وبعد وفاة كافور اختار الجنود صبياً سنه ١١ سنة يسمى أبو الفوارس حفيد الإخشيد لولاية مصر دون الرجوع إلى السلطات العباسية في بغداد .

وكانت الدولة العباسية عاجزة عن عمل أي شيء في مصر ، وذلك لأن الحمدانيين في شمال الشام والقرامطة بجنوب الشام كانوا يحولون دون وصول جيوشها للدفاع عن مصر ، وهذا فضلاً عن أن الخلافة نفسها كانت من الضعف والاضطرابات بحيث لا تستطيع إمداد مصر بالمال والرجال ، فقد كانت واقعة تحت وطأة البويهيين .

ونتيجة لهذا الضعف أصبحت مصر فريسة سهلة للدولة الفاطمية التي كانت تربص بها منذ زمن بعيد فقد أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلى كافور الإخشيد وإلى أكابر قواده يدعوهم إلى طاعته ، فقابلهم كافور بالسياسة ولاطفهم لألى تسوء المنة ، بين الطرفين وبدأ يحسن إلى العلويين في مصر ويدر عليهم الهبات والأرزاق^(١) وفي سنة ٣٥٨هـ — نجح الجيش الفاطمي بقيادة جوهر الصقلي في الاستيلاء على مصر ، وبذلك انفتح المجال إلى الشام والحجاز أمام الدولة الفاطمية .

ولم تستفد مصر والشام أثناء ولاية الإخشيديين نظراً لكثرة الصراع الذي دار بين الولاية والمحيطين بها من قرامطة وحمدانيين وفاطمين بالإضافة إلى تمرد أهل السنوبة عليها وكثرة إغارتهم من الجنوب بالإضافة أيضاً إلى إصابتها ببعض الكوارث الطبيعية كالزلازل .

(١) المقرئ ، الخط ، ج ٢ ، ص ٢١

الدولة الفاطمية ٢٩٦-٥٦٧هـ :

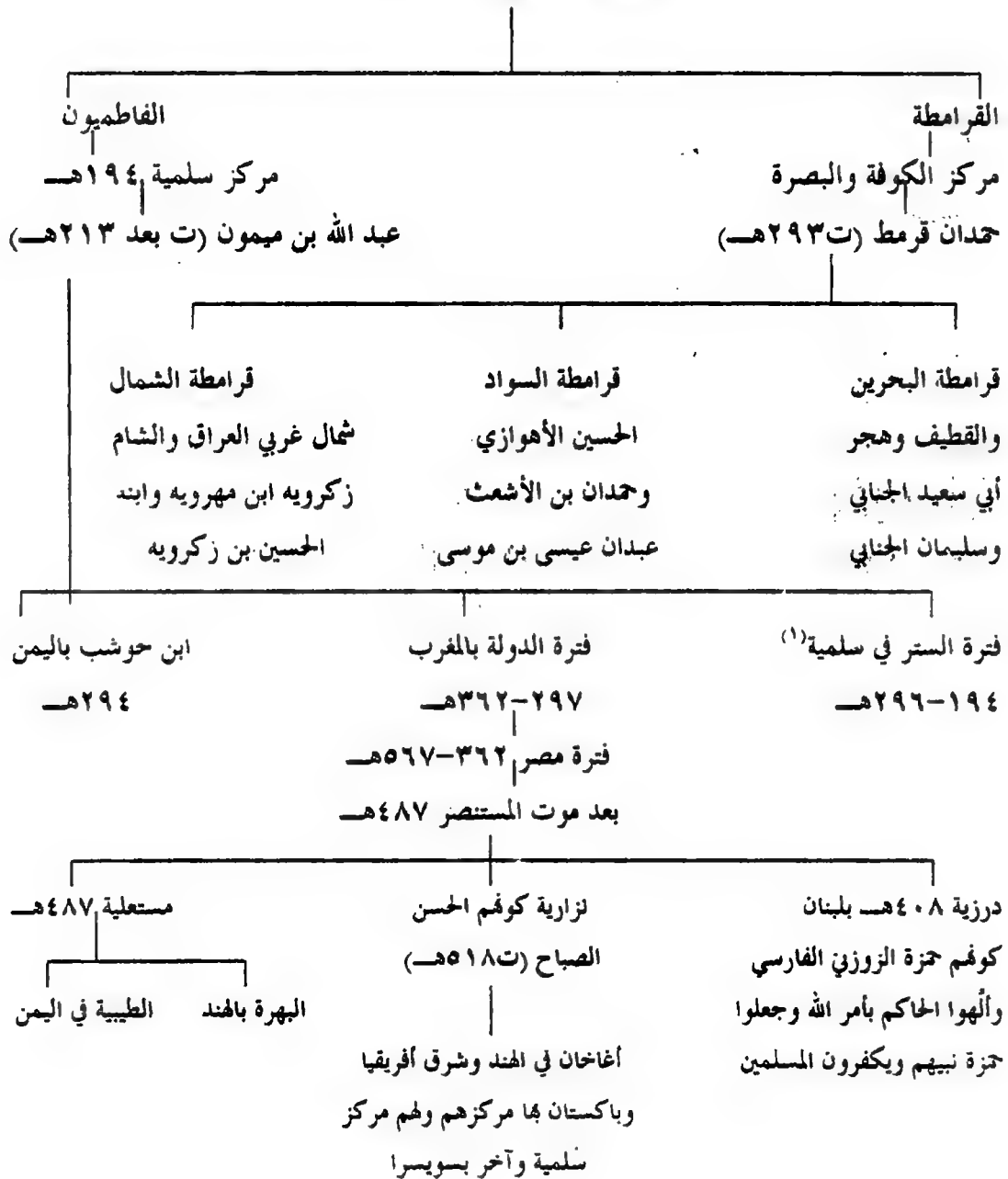
تنسب الدولة الفاطمية إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام وزوج علي ابن أبي طالب ومؤسسها هو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكنوم^(١) بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهذا نسبهم كما أورده ابن خلدون في كتابه العبر^(٢) لكنه يختلف فيه بين المؤرخين نظراً لأنهم كانوا يغيرون أسماءهم في فترة الدعوة السرية خوفاً على أنفسهم من العباسيين وكان هذا سبباً في طعن العباسيين في نسبهم عند ظهور دولتهم سنة ٢٩٦هـ بالمغرب العربي ، وترجع دولتهم في نشأتها إلى نشاط دعاة الباطنية في القرنين الثاني والثالث ، لذا يلزمنا قبل الخوض في تاريخ هذه الدولة أن نلقي الضوء على أصول الباطنية .

(١) بسمونه المكنوم لأنهم كانوا يكتُمون اسمه ، حذر عليه ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٤٤٩ .

الدعوة الباطنية

ميمون القداح (ت ١٥٠هـ)



(١) يذكره مصطفى غالب في كتابه: عن القرامطة أن خروج الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل إلى سلمية كان سنة ٢٠٨هـ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ٨٣.

أصول الباطنية :

يعتد تاريخ الحركة الباطنية من الموضوعات الشائكة في التاريخ الإسلامي بسبب قيام الدعوة الباطنية على السرية التامة بسبب خوفهم على أنفسهم من رجال الدولة العباسية ، وهذا مما اضطرهم أيضاً إلى تغيير أسمائهم عدة مرات خوفاً من انكشاف أمرهم ، ومن ثم نجد اختلافاً كبيراً في أسمائهم في شتى المصادر ، وبصفة عامة فإنهم لجأوا إلى التخفي في أعمالهم كلها بسبب ما نالهم من مطاردة وحاربوا أعداءهم سرّاً في غالب الأحيان ولا يحاربون جهراً إلا إذا كانوا قادرين .

ودسّم بذلك يختلفون عن الخوارج فقد كانوا ظاهرين في حروبهم ، وغلبت على الخوارج الطبيعة البدوية في الصراحة ، ومن ثم كان أكثرهم لا يقول بالتقية أما الباطنية فقد قالوا بالتقية وكانت أساساً في عقيدتهم وعقيدة غيرهم من الشيعة ، والتقية هي النفاق السياسي والمدارة للأعداء وقت قهرهم ، وهي أن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، وقال الخوارج إن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب العقيدة .

أما أهل السنة فقالوا : من يخاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده ، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه ^(١) ، مستندياً إلى قوله تعالى : ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ . ومن السمات البارزة للحركة الباطنية في مرحلة الستر أن كل إمام كان يحمل اسمين : اسماً حقيقياً وآخر سرّياً وحركياً ^(٢) .

ونظم الدعوة الباطنية في البداية جماعة من الخارجين الفرس على الدولة العباسية الذين آذاهم ما حدث من الدولة العباسية لزعمائهم مثل أبي سلمة وأبي مسلم وفشلت حركاتهم العلنية في النيل منها ، ومن ثم فكروا في الاتصال بالعرب

(١) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٤ .

(٢) حامد غيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٣٥٣ .

الشيعة الغاضبين على العباسيين وقاموا بتعزيز حركاتهم سرّاً للنيل من الدولة العباسية وكان ذلك أيام أبي جعفر المنصور ووجد الشيعة في الموالي الفرس المتذمرين والحاquدين على الدولة مفكرين أقوياء قادرين على التنظيمات السرية بنفس الدرجة التي كانت عليها سرية الدعوة العباسية عندما واجهت الدولة الأموية ، ودخل كثير من الفرس الحاقدين على العباسيين إلى هذه الحركة السرية الشيعة التي أطلق عليها فيما بعد الحركة الباطنية لأنهم كانوا يكتُمون مبادئهم ويلقونها سرّاً ، ولأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أي المستور ، ولقوهم فيما بعد "إن لكل ظاهر باطناً ولكل تزييل تأويل" كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعائهم بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو الإمام السابع في نظرهم وليس هو موسى الكاظم كما يرى الإثنى عشرية .

وقام بالدعوة الباطنية في البداية (أبو الخطاب الأسدي) بالولاء واسمه محمد بن أبي زينب وكنيته أبو الخطاب فارسي الأصل ، وكان نشاطه بالكوفة فقتله عيسى بن موسى والي الكوفة سنة ١٤٣ هـ وقال عنه أنه ادعى أن جعفر الصادق إله .

وكان معه في الدعوة منذ قامت رجل فارسي آخر هو (ميمون القداح) المكفي بأبي شاهر ، وكان متفنناً في درس الأساطير الدينية والبحوث الكلامية والجدل الفلسفي ومتآمراً جريئاً ، وكان (ميمون) في الأصل مجوسياً من سبي الأهواز ^(١) أظهر إسلامه وبدأ حياته الإسلامية مولى (لجعفر الصادق) ، وكان داعياً لآل البيت ، ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة في أواخر عهد المنصور ، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبهم الشهير بمذهب الباطنية أو الإسماعيلية ، وخرج ميمون من السجن وانتشرت دعوته في جنوب فارس وجنوب العراق وتوفي ميمون سنة ١٧٠ هـ وترجع المصادر الإسماعيلية نسبة إلى سلمان الفارسي ^(٢) والواقع أن تاريخ نشأته يكتنفها الغموض والإبهام .

(١) البغداددي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٩٣ .

(٢) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية . ص ١٣٩ .

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده (عبد الله) الذي كان على غرار أبيه في الذكاء والبراعة فنظم الدعوة ويقال إن هذه الجماعة اتخذت من بلدة (ساباط) ^(١) من أعمال المدائن القديمة مركزاً لدعوتها حيناً من الدهر ، وعلمت به الدولة العباسية فطاردهم فانتقلوا إلى (البصرة) .

وكانت (البصرة) مركزاً لالتقاء الفكر الإسلامي بهذه الأفكار لأنها أدنى مدينة عربية إلى فارس وتقع على باب الصحراء التي يفر إليها ويتخذها حى له كل خارج مخالف للخليفة ، فقد كانت ، فقد كانت البصرة بحكم موقعها الجغرافي في ملتقى رجال الشرق الوثني من فرس وهنود وديلم بمفكري الإسلام ، فيها التقت المانوية والزاردشتية والمزديكية والبرهمية والصائبة والدهرية وغيرها من تلك النحل القديمة التي جاء الإسلام يغزوها بدينه الفطري السهل ^(٢) .

كانت (البصرة) مأوى لكل من يكيد للإسلام والخلافة لقرىها من بلاد الفرس ، فتجمعت فيها أخلاط من الفرس والديلم والعرب وغيرهم ولم ينس الفرس والديلم ما كان لهم من ديانات فتآمروا على الإسلام ووجدوا الأنصار قريباً منهم في الأهواز وفارس ، وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية أو البحر الخليج حتى تتاح لهم فرصة أخرى .

في هذه البيئة التي تتصارع فيها الأجناس والأفكار والعقائد ظهرت قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية :

أحدهما : قوة الفاطميين التي انتقلت فيما بعد إلى مقر سري بالشام هو قرية (سلمية) من أعمال حمص التي أضحت موئلاً الإسماعيلية ومجمع أسرارهم في فترة الدعوة السرية حتى ظهورهم باليمن والمغرب .

(١) قيل إنه أي ميمون جاء أولاً من مكة وانتقل إلى الأهواز ، وقيل إنه جاء من محل في الأهواز يدعى

قورج العباس ونزل عسكري مكرم ثم ذهب إلى ساباط أبي نوح . المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) عمر الدسوقي ، إخوان الصفا ، ص ٨٩ .

الأخرى : قوة القرامطة ، وهي منظمة عاتية من قطاع الطرق ظلت بالبصرة ، وانتقل رجالها إلى شرقي الجزيرة العربية بالبحرين والأحساء واليمامة عندما أصبحت لهم قوة تقف معهم من القبائل العربية ، وكان لهم فرع بالشام .
 فبعد وفاة (عبد الله بن ميمون القداح)[#] قام ابنه أحمد بترتيب الدعوة فبعث بالحسين الأهوازي داعية له بالعراق فالتقى (بحمدان بن الأشعث) المعروف (بقرمط) في سواد الكوفة فدعاه إلى مذهبه فأجابه وقام حمدان بأمر الدعوة بالكوفة وإليه تنسب القرامطة^(١) .

ويذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق : "أن الذين راجت عليهم أفكار الباطنية أصناف ثلاث :

أحدهم : العامة الذين قللت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والأكراد وأولاد الجوس .

ثانيهم : الشعوية الذين يرون تفضيل المعجم على العرب ويتمنون عودة الملوك إلى المعجم .

ثالثهم : أغنام بني ربيعة من أجل غيظهم على مضر لخروج النبي منهم ، ومن أجل حسد ربيعة لمضر بايعت بنو حنيفة (مسيلمة الكذاب) طمعاً في أن يكون

[#] توفي عبد الله بن ميمون القداح بعد سنة ١٨٠هـ وكان مولى محمد الباقر كما كان والده مولى لجعفر الصادق وتقول المصادر الشيعية بأن معنى القداح : هو الذي ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . وهناك تناقض في السنين فبعض المصادر تجعل ميمون وابنه معاصرين لجعفر الصادق وإسماعيل ، وبعضها تقول إن عبد الله عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (الفهرست ، طبعة طهران ، ص ٢٣٨) فيذكر الفهرست أن عبد الله كان حياً سنة ٢٦١هـ (١) حمدان قرمط أصله من خوزستان ، واختلف في اسمه قيل : حمدان وقيل الفرج بن عثمان وقيل النرج بن يحيى ، أما (قرمط) فهو لقب ، حمرة عينيه ، أو لقرمطة في شكله أو مشيئه ، توفي سنة ٢٩٣هـ (الزركلي ، الأعلام) وانظر : إحصان أهو ظهير ، الإسماعيلية ، ص ٩٧ ، ومصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسلامية ، ص ٢٨-٢٩ .

في بني ربيعة نبي كما في بني مضر نبي^(١) [ولهذا قال قائلهم لمسلمة : والله إني أعلم أنك لكاذب ومحمد الصادق ولكن كاذب ربيعة أفضل عندنا من صادق مضر] .

وكان دعاة الباطنية يدخلون إلى المدعوين من مدخل سهل تبع ميولهم وعلى العموم فقد كان مدخل محبة آل البيت والأخذ بيدهم لأنهم ظلموا هو المدخل السهل، ويذكر البعض^(٢) أن التشيع لآل البيت أصبح مأوى يلجأ إليه من أراد هدم الإسلام لعداوة وحقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم .

انتقال الحركة الباطنية إلى سلمية :

ليس معروفاً باليقين متى انتقلت الحركة الباطنية إلى سلمية ، وإن كانت المصادر الإسماعيلية تنص على أن الانتقال تم في سنة ١٩٤ هـ^(٣) ، وعلى كل حال فعندما انتقل نشاط الباطنية إلى سلمية بالشام بدأ نشاط مكثف للدعوة الباطنية في دور السِّر الذي استمر حتى سنة ٢٩٦ هـ ، فيما يتعلق بإعداد الدعاة وتوجيههم وإرسالهم إلى شتى النواحي .

وسلمية تقع على حافة بادية الشام تلتقي عندها الطرق الآتية من البادية ومن العراق وهي تابعة لحمص بينها وبين حمص ٣٥ ميلاً ، وينطقها أهل الشام "سَلْمِيَّة" ويضبطها ياقوت في معجم البلدان "سَلْمِيَّة"^(٤) .

وأنشأت الحركة في سلمية مدرسة سرية لتخريج الدعاة الذين تفرسوا في فنون المناظرة والجدل ، وتذكر المصادر الإسماعيلية التي ظهرت مؤخراً بأن الأموال والذخائر كانت تنقل إلى سلمية بواسطة الدعاة ، وتم حفر سرداب في الصحراء حتى

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٣٠٠-٣٠١

(٢) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٦ .

(٣) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص ١٤٩ .

(٤) معجم البلدان ، مادة سلمية .

داخـل بيـت الإـمام طـولـه خمـسة عـشر مـيلاً ، و كانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل وتنزل فيه بأحمالها عليها حتى تحط في داخ الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد وقيل إن الأموال التي كانت تصل إليها عظيمة جداً ، وهكذا أصبحت سلمية مركزاً رئيسياً للدعوة الباطنية مما ساعد على انتشارها بسرعة في الشام والجزيرة العربية والعراق والمغرب نظراً لهذه الدعوة هو عبد الله بن ميمون القداح وأبناؤه من بعده .

حركة القرامطة :

كانت حركة القرامطة هي التي ظهرت أولاً في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على يد ثلاثة رجال هم :

١- حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط وأصله من خوزستان واختلف في

اسمه ، ف قيل (حمدان) ، وقيل (الفرج بن عثمان) وقيل (الفرج بن يحيى).

وقرمط لقبه لقرمطة في شكله أو دقة في مشيته أو لحمرة في عينيه ،

وكان مركز نشاط حمدان في بلاد السواد الكوفة وما حولها ، وهو

الذي نسبت إليه حركة القرامطة كلها بشق فصائلها في شرقي الجزيرة

العربية وبادية الشام .

٢- الرجل الثاني: هو (أبو سعيد الجنابي) داعي البحرين في شرقي الجزيرة

العربية، وهو منسوب إلى جنابه على الشاطئ الفارسي للخليج، وهو

مؤسس دولة القرامطة في البحرين وسميت دولته بالقرامطة لأنه أخذ

الدعوة الباطنية من حمدان قرمط .

٣- الرجل الثالث: هو (زكرويه بن مهرويه) الذي تولى الدعوة في بادية

الشام وبعض بلاد الشام ، وهو بذلك مؤسس حركة القرامطة في هذه

الجهات وأخذت لقب القرمطي لأنه هو الذي اختاره للدعوة الباطنية .

وصادفت حركة القرامطة نجاحاً كبيراً بين القبائل العربية وعلى الأخص في شرقي الجزيرة العربية وبادية الشام وذلك لأن القبائل العربية كانت نائمة على الدول العباسية بسبب موقفها من العرب فلم تشاركهم في جيوش الدولة وشنوها فقلت هجرهم إلى خارجها في القرن الثالث الهجري بالإضافة إلى قلة الخيرات في الصحراء، كل هذه الظروف ساعدت حركة القرامطة والنفوذ الفاطمي في التغلغل بين القبائل العربية التي قلت بصائرهم بمرامي الحركة الباطنية وخطورتها على الإسلام. ولم يلبث أن اختفى حمدان قرمط في تاريخ مجهول ، وقد اشتدت حركة القرامطة عنفاً بعده ولا سيما عندما نجحت في استمالة بعض القبائل القوية والعيقة مثل (بني هلال) و (بني سليم) و(طيء) و (بني عقيل) ، وتمكن الجنابيون من أن يهجرهم معهم بني هلال وبني سليم إلى البحرين ، وكانت الخلافة العباسية هي المركز الذي تنصب عليه نقمة القرامطة ، فقد وصفوها بأنها مصدر لكل شر ومنبع للظلم ورمز للطغيان والفساد ولذلك تعاون الجميع على إسقاطها وتدميرها وتحطيم كل ما قام بها وارتبط بها وتفرع منها ودعمها وساندها^(١) وهذا الموقف النفسي هو الذي يفسر لنا موجة العنف العارمة التي بدأ بها القرامطة مسيرة الإرهاب أو الثورة ضد الدولة العباسية وتطهير شرهم فنال الآمنين في الأراضي المقدسة في مكة والمدينة وطريق الحجاج ، وعلى الأخص في عصر المقتدر (٥٩٢-٣٢٠هـ) .

فقد شهدت سنوات حكم المقتدر هجمات قادها (أبو طاهر الجنابي) خليفة (أبي سعيد الجنابي) حيث وجه ضرباته إلى أماكن حساسة بالنسبة للسلطة في بغداد ، ففي سنة ٣١٧هـ دخلوا مكة بزعامة أبي طاهر الجنابي وقتلوا من الحجاج وأهل مكة أعداداً لا يتناولها الحصر قيل في بعض الروايات أنها بلغت ثلاثين ألفاً ، وأخذوا الحجر الأسود وفروا به إلى مركزهم في البحرين وتوسط الفاطميون لديهم فردوا الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ .

١٩: انظر : مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السدس : الخامسة ، يناير ١٩٨٧ ، مقال بعنوان القرامطة .

وحدث انشقاق بين القرامطة وإمام الإسماعيلية حتى قبل قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ وتمرد جماعة زكرويه بن مهرويه ببادية الشام على أوامر الخليفة الفاطمي، وبدءوا يعملون لحسابهم في بلاد الشام وتصادموا مع الفاطميين والجنابيين .

وبعد وفاة أبي طاهر القرمطي (٣٣٢هـ) خلفه ابن أخيه (الحسن الأعصم) وفي عهده حدثت حروب بين القرامطة والفاطميين للعراع على الشام سنة ٣٥٨هـ وهاجم الحسن الأعصم دمشق سنة ٣٦٠هـ واستولى عليها وهاجم مصر واقترب من القاهرة ومعهم جماعة من (طيء) على رأسهم (حسان بن الجراح) ، وجماعة من (بني عقيل) على رأسهم (ظالم بن موهوب) العقيلي سنة ٣٦٣هـ^(١) لكن المعز فرق جموعهم بعد أن استمال زعماء بني طيء والعقيليين بالمال والمناصب في دولته .

ثم لم يلبث أن فقدت حركة القرامطة قوتها ، فقد هاجمهم البويهيون في عقر دارهم في الأحساء بمعاونة زعيم من بني المنتفق الذين كانوا يزلون جنوب العراق ونهبوا القطيف وبذلك انتهت حركتهم عملياً في أواخر القرن الرابع الهجري .

ويعدّها البعض في عداد الدول لأنها سيطرت على المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية ما يزيد على نصف قرن ، إلا أننا نعتبرها منطقة إرهابية أشاعت الخراب والقوضى والدمار في شق أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ، وما فعلته بالأراضي المقدسة لا يقوم به مسلم ينتمي إلى الإسلام ، فهم جماعة من قطاع الطرق تحللوا من جميع الحدود والقيود الإسلامية .

ظهور الدولة الفاطمية :

سبق أن ذكرنا أن المغرب قد أضحي مأوى للمعارضة في عصر الدولة العباسية من أمويين وأدارسة وخوارج وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري استقبل المغرب دعاة الإسماعيلية ، فلقد رأى دعاة الباطنية بعد التضيق عليهم في

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

الشام والعراق صعوبة محاربة الدولة العباسية في عقر دارها فأروا في اليمن والمغرب أماكن مناسبة لانتشار الدعوة الباطنية ، وذلك لمناعة هذه الأماكن الجبلية من ناحية ومن ناحية أخرى لبعدها عن مركز الدولة العباسية ومراقبتها .

ويرجع الفضل في قيام هذه الدولة إلى رجلين :

الأول : هو (ابن حوشب) وهو الحسين بن فرج بن حوشب وهو المشهور في تاريخ الحركة الفاطمية بلقب "منصور الزمان" ويرجع إليه الفضل في النجاح الذي حققته الدعوة الفاطمية في اليمن فقد قام بمهمته سنة ٢٦١هـ ، وكان يقود الحركة الفاطمية في إقليم اليمن ويشرف على تنظيمها في أقاليم أخرى ، فهو الذي أشرف على إرسال الداعي المشهور (أبو عبد الله الشيعي) إلى المغرب وأرسل بعض أتباعه إلى السند^(١) وذلك بعد أن شك الإمام في سلوك القرامطة من بني الجنابي وزكرويه .

وكان أول نزول ابن حوشب في (عدن لاهه) وهي قرية من أعمال صنعاء بجبل يسمى جبل صبر ، وحقق نجاحاً في هذه المناطق الجبلية التي كانت تابعة لبني يعفر سادة هذه المناطق والذين كانوا يعلنون ولائهم للعباسيين^(٢) وكلف ابن حوشب من طرفه داعياً يمينياً هو علي بن الفضل لكي يقوم بالدعاية الفاطمية في تمامة اليمن واستطاع الرجلان تحقيق إعلان دولة فاطمية باليمن سنة ٢٩٤هـ قبل إعلانها بالمغرب^(٣) .

والرجل الثاني : الذي يرجع إليه الفضل الأوفر في قيام الدولة الفاطمية هو رجل يسمى (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرويه الشيعي) ، ويعرف بأبي عبد الله الشيعي الصنعائي^(٤) ، كان في بداية حياته يعلم الناس المذهب الإسماعيلي بالبصرة ، فطلبه إمامه عبيد الله المهدي لكي يذهب إلى الداعية ابن حوشب باليمن ليدرس عليه

(١) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٣٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣١٠ .

(٤) يذكر ابن خلدون أنه من أهل صنعاء وكان من أتباعه .

ثم يذهب بعد فراغه من الدراسة إلى المغرب ، وكان نشاط بن حوشب باليمن أقوى نشاط بعد فترة عبد الله القداح .

وبعد أن أتم أبو عبد الله الشيعي مهمته باليمن التقى في موسم حج سنة ٢٨٨هـ — ببعض الحجاج من البربر من قبيلة كتامة وتعرف عليهم فأحبوه ووثقوا به وذكر لهم أنه يريد مصر بعد الحج ، فطلبوا منه أن يصحبهم إلى المغرب ويترل ضيفاً عليهم ، فقبل ، وكانت قبائل كتانة من أعظم قبائل البربر ، وأهم مضاربها بين جبال أوراس والبحر المتوسط بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر الحالية^(١) .

وأعانه الكتاميون على نشر دعوته التي كانت تتلخص في الدعوة بقرب ظهور المهدي من آل البيت الذي سيملا الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً من العباسيين وغيرهم ، وانتشرت هذه الدعوة بالمغرب الأوسط وإفريقية ، وتمكن في الفترة من ٢٨٨هـ — إلى ٢٩٦هـ من تكوين قوة كبيرة منهم صارت أكبر قوة ضاربة بالمغرب قضى بها في هذه الفترة الوجيزة على قوة الأغالبة والخوارج والأدارسة ، وعندما حقق النصر على هذه القوى استدعى إمامه عبيد الله المهدي من سلمية للحضور إلى المغرب .

كان (عبيد الله المهدي) زعيم الباطنية موجوداً بمقره السري بسلمية عندما وصله الخبر وكان قد شك في إخلاص آل زكرويه وخاصة عندما بدأ تحرشهم بقوات الدولة العباسية على غير هواه فكأنهم يعملون لحسابهم بالشام ، فخاف أن ينكشف أمره ، فخرج من سلمية خائفاً يترقب وأعلن للتمويه أنه يريد اليمن بيد أنه كان يريد المغرب وخرج في وقت بثت فيه الدولة عيونها في مغامرة لا تقل خطورة عن منامرة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي هرب إلى الأندلس ، واتخذ عبيد الله طريق الصحراء بعد أن عبر مصر بسلام خوفاً من عيون الدولة المتربصة له ، ونجح في الوصول إلى المغرب الأقصى ونجا من الموت عدة مرات ، فقد وقع أسيراً في

(١) أحمد مختار العبادي ، مربيّ سنيّ ذكره ، ص ٣٨٤ .

أيدي بني مدرار (بسجلماسة التي تسمى الآن تافيلات) ، ولكن أبا عبد الله الشيعي هب لنجدته وأنقذه من سجنه وقدمه إلى أنصاره قائلاً لهم : هذا إمامكم .

ودخل عبيد الله المهدي مدينة (رقادة) ^(١) سنة ٢٩٧هـ العاصمة الخاصة للأغلبة وأعلن دولته ، واتخذها عاصمة له حتى بنى المهديّة سنة ٣٠٠هـ التي تطل على حليج قابس ، وتلقب بأمر المؤمنين وأقيمت الخطبة باسمه .

وكان أول عمل قام به المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ) هو اغتيال داعيه ورجله السني حقق له النصر بالمغرب وهو أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨هـ لأنه يريد الاستئثار بالسلطة دونه .

وحول عبيد الله المهدي هذا يدور الجدل فيما يتعلق بصحة نسبه إلى علي بن أبي طالب ، فالقادحون في نسبه يقولون بأنه سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي الجوسي الأصل . .

ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين بمقولة أخرى أشد خطراً ، وهي أن سعيدياً هذا ليس ولد الحسين القداح وإنما هو ولد زوجه اليهودية من زوجها الأول اليهودي رباه ولقنه أسرار الدعوة واختاره للزعامة والإمامة من بعده .

وابن الأثير لا يصدق هذه الرواية ويحاول أن يثبت صحة نسب الفاطميين ، ويستدل بأبيات للشريف الرضي العلوي نقيب العلويين في بغداد حين يقول :

ما مقامي على الهوان وعندي * مقول صارم وأنف حمي
ألبس الذل في بلاد الأعادي * وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي * إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النـ * اس جميعاً محمد وعلي

(١) رقادة . تبعد مدينة رقادة عن القيروان نحو أربعة أميال وكانت رقادة عاصمة خاصة لدولة الأغلبة ، وكانت القيروان هي عاصمتهم الأولى وعاصمة الإسلام الأثرى بالمغرب (١٦٠ كم جنوب تونس)

بما كتبه في الخضر المضمن القدر في أنساب الفاطميين فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا ، فلما بلغ القادر (٣٨١-٤٢٢هـ) هذه الأبيات أحضر القاضي أبا بكسر الباقلائي وأرسله إلى والد الشريف الرضي (المعروف بأبي أحمد الموسوي) للضغط عليه لكي يتراجع الشريف الرضي عن موقفه ولكن الشريف الرضي امتنع عن الاعتذار وعن الطعن في نسبهم ، وفي هذا دليل قوي على صحة نسبهم ويعزز هذا في رأي ابن الأثير أنه سأل جماعة من أعيان العلويين في نسب الفاطميين لم يرتابوا في صحته ^(١) ، أما في مقولة الأصل اليهودي فيقول ابن الأثير : كيف يعقل أن يعمل كل هؤلاء الدعاة على إخراج هذا الأمر من أنفسهم ويسلموه إلى ولد يهودي ؟ ^(٢) وقد تبعه على ذلك ابن خلدون فأنكر مقولة الطعن في نسبهم وأضاف بأن العباسيين دأبوا على ذلك فقد سبق لهم أن طعنوا في نسب الأدارسة ^(٣) ويذكر أن انقياد العلويين بمكة والمدينة لهم يدل على صحة نسبهم .

ويقول ابن طباطبا في الفخري ، وهو علوي مثلهم : "والصحيح أنهم علويون إسماعيليون صحيحوا الاتصال ، وهذه الصورة التي أوردتها هنا هي المعول عليها وبها خطوط مشايخ النسابين" ^(٤) واستشهد بأبيات الشريف الرضي السالفة ، وابن طباطبا يعول عليه في هذا المجال فقد كان نقيباً للعلويين في جنوب العراق وله اشتغال بالتاريخ ومعرفة الأنساب .

وتبعهما من المحدثين الشيخ الخضري حيث يقول : هذا كلام يظهر عليه التوليد والاختراع كتب لإرضاء العباسيين الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل ^(٥) ، ولا شك أن هذا الطعن أملتة الأحقاد

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٢٤-١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٢٤-١٢٩ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٣ ، ص ٤٤٩-٤٥١ والمقدمة ص ٣٠٩ .

(٤) الفخري ، ص ٢٦٣ .

(٥) الدولة العباسية ، ص ٣٠١-٣٠٢ .

السياسية ضد الفاطميين ولا أساس له من الصحة وأولى منه أن يطعنوا في عقائده فنيي فاسدة وملتوية . فيما ظهر منها أما ما بطن فالله أعلم به ، وحقيقة المذهب الفاطمي أنه من مذاهب الشيعة الغلاة ، أي الذين يخلعون على الإمام صفات إلهية تضع فوق مستوى البشر ، فهم يقولون ، بأن الآلهة تحل في الأمة حلولاً شبه كلية ، وذلك على عكس الإمامية الذين يقولون بأن هذا الحلول جزئي ، والزيدية المعتدلين الذين يقولون بأن الإمام لا يتمتع إلا بتوجيه إلهي فقط^(١) .

وأخيراً أقول ما قاله ابن خلدون "وليس إثبات مُتَسَبِّهِم بالذي يغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم"^(٢) ، فقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود : آية ٤٦] وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة ابنته : "يا فاطمة اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئاً" .

والحقيقة أن الفاطميين أنفسهم لم يهتموا كثيراً بمسألة صحة النسب هذه بعد أن فرضوا حكمهم بالأمر الواقع ، وينسب إلى المعز لدين الله أنه قال لجموع المهنتين عندما دخل مصر وهو يسلم سيفه من غمده وينثر عليهم دنائير ذهبه : "هذا حسبي وهذا نسي" يؤكد مقالة شرعية الأمر الواقع ، ويثبت أن الجدل حول نسبهم لم يعد ذا موضوع^(٣) .

سبب انتقال الفاطميين إلى مصر :

على الرغم مما حققته الدولة الفاطمية من انتصارات بالمغرب على الأغلبة والخواارج والأدارسة ، لكن ما لبث أن نفر أهل المغرب منها ، وذلك لأن الأرض المغربية كان قد تمكن فيها مذهب الإمام مالك ، وأدرك عبيد الله المهدي أن شمال

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، ص ٥٣٩ .

(٢) المقدمة ، ص ٣١١ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، ص ٥٤٤ .

إفريقيا البربري لن يكون مهذاً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت في أيامه المعركة الطويلة بين الفاطميين وغيرهم بالمغرب ، وكان أقوى الخصوم هم أتباع الإمام مالك^(١) .

ووجد الفاطميون أنفسهم وسط محيط بربري ضخم متطلع للإغارة وفرض السلطان فبجانب كتامة كانت هناك قبائل صنهاجة بالمغرب الأوسط وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة ، وحاول عبيد الله المهدي أن يضربهم ببعضهم ، وكانت هناك قبائل زناتة الذين استعانوا ببني أمية الأندلسيين لمقاومة أطماع الفاطميين واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة تلك المطامع الفاطمية^(٢) .

واستمر المغرب يعاني من هذه الحروب طوال الفترة الفاطمية ولذلك اتجه الفاطميون بأطماعهم نحو مصر وساعدتهم على ذلك مسألة أهلها للحاكمين وضعف الدولة الإخشيدية ، فاتجه الخليفة الفاطمي الرابع إلى مصر وهو المعز لدين الله الذي حكم في المغرب من ٣٤١هـ إلى ٣٦٢هـ ، فقد ركز جهوده في هذه المدة للاستيلاء على مصر حتى تم له ذلك سنة ٣٥٨هـ على يد قائده جوهر الصقلي .

وقبل أن يغادر المعز المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ عين يوسف بن زيري الصنهاجي على المغرب وبذلك قامت دولة بني زيري في إفريقيا والمغرب تابعة للفاطميين في البداية ، ثم استقلت عنهم ، وهي أول دولة ينشئها المغاربة بعد أن استعربوا .

واستمر بنو زيري على ولائهم للفاطميين إلى أن تولى أمرهم (المعز بن باديس) (٤٠٦-٤٥٣هـ) الذي تخلى عن ولائه للفاطميين ودعا للعباسيين ، وقد واجه الخليفة الفاطمي هذا الموقف بأن أرسل إليه بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في صعيد مصر ، وفي شرق الدلتا وهم بنو هلال وبنو سليم للانتقام منه ،

(١) حسين مؤنس : أدبلس تاريخ الإسلام ، ص ١٧٩-١٨٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٨٠ .

وكانت هذه القبائل قد اشتركت مع القرامطة في غزو بلاد الشام ، واستقرت بعض بطونهما بتلك البلاد ، وعندما دخل الفاطميون وعرضوا عليهم خدماتهم فنقلهم الفاطميون معهم إلى مصر ^(١) .

وعندما قطع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميون قرر المستنصر الفاطمي توجيه قوة بني هلال وبني سليم إليه قائلاً لهم : "قد أعطيناكم المغرب وملك بن باديس العبد الآبق" ^(٢) ثم كتب إلى ابن باديس يقول له : "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً" ^(٣) .

فاجتاحت قبائل بني هلال وبني سليم دولة بني زيري وحاصروا أمراءها في مدينة (المهدية) على شاطئ البحر ، وعقب هذا الهجوم شاعت الفوضى في المغرب كله ، فإن القبائل العربية بعد قضائها على دولة المعز بن باديس التحموا بقبائل زناتة ودفعوهم إلى المغرب الأقصى إلى أن اندفعوا إلى جنوب المغرب الأقصى وطردها أمامهم جزءاً من صنهاجة هي صنهاجة الصحراء إلى الجنوب فأصبحوا محصورين بين زناتة من الشمال والقبائل السنغالية في حوض السنغال من الجنوب .

وكانت هذه الظروف هي التي دفعت قبائل صنهاجة الصحراء للعمل على الخروج من هذه المحنة فكانت حركة المرابطين التي سنتحدث عنها بعد هذه الدولة .

إنشاء الأزهر :

وعندما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر بنت عاصمة جديدة لها في شمال القسطنطينية هي القاهرة ، وبنوا في وسطها مسجداً جامعاً أسموه بالأزهر ، وكانت تقام بالأزهر منذ إنشائه حلقات الدعاية الباطنية ، وكانت لا تدرس في حلقاته في العصر

(١) محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، ص ٢٦٤-٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٥٥ ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

الفاطمي غير دروس الفقه الشيعي الإسماعيلي بخطة دراسية موجهة دعمها وقواها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم .

وظل الأزهر هكذا في خطته الدراسية طوال عصر الدولة الفاطمية حتى قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية فقد انتهز فرصة مرض الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ودعا للخليفة المستضيء العباسي في المحرم ٥٦٧هـ كما أمر بالدعاء له على منابر اليمن والشام التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية ، فمنحه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد ، وتم هذا التغير دون أن يلقي أية مقاومة^(١) وبعد موت العاضد سنة ٥٦٧هـ أغلق الأزهر تماماً وأنشأ المدارس السنية في جميع أنحاء مصر لنشر المذهب السني بها وكانت الدروس ما زالت تلقى في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وجامع أحمد بن طولون بالقطائع على مذاهب أهل السنة والجماعة حتى في العصر الفاطمي وقضى صلاح الدين تماماً على المذهب الإسماعيلي في مصر وظل الأزهر مغلقاً نحو قرن من الزمان إلى أن افتتح في العصر المملوكي في عصر الظاهر بيبرس ٦٦٥هـ^(٢) .

وفي العصر المملوكي تحول الأزهر إلى معهد سني لدراسة علوم الدين على المذاهب الأربعة واختلف منهاج الدراسة في العصر المملوكي عنه في العصر الفاطمي، فقد تعين لكل مذهب شيخ كان له الإشراف الكامل على الطلاب الذين يتبعون مذهبه ، وأضحى الأزهر جامعة الإسلام الكبرى في العصر المملوكي وزخر بكبار الشيوخ والعلماء الذين فحضوا بعلوم الشريعة ، وحافظوا على العربية وعلومها ، واستمر الأزهر هكذا حتى الوقت الحاضر وتحول إلى جامعة حديثة لدراسة شتى العلوم النظرية والعملية .

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ .

(٢) انظر : لأمؤلف كتاب : دور الأزهر في الحياة المصرية ، ص ٢٦-٣٤ .

بقايا الإسماعيلية :

تفرع من المذهب الإسماعيلي الفاطمي في عصر الحاكم (٣٨٦هـ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠م) جماعة تسمى السدروز^(١) كوفها رجل فارسي يسمى (حمزة الزوزني) سنة ٤٠٨هـ وصلوا في انحرافهم العقائدي إلى تأليه (الحاكم بأمر الله) ويجعلون حمزة نبيهم ، ويكفرون المسلمين ، وموطن هذه الجماعة لبنان .

وبعد موت المستنصر سنة ٤٨٧هـ تنازع على الحكم ابنه نزار والمستعلي وقد فاز أنصار المستعلي بالحكم سنة ٤٨٧هـ فقد ناصرته خاله الوزير (الأفضل بن الجمالي) فتولى الحكم بعد أبيه ، وكان أصغر من أخيه نزار الذي ثار ضده ونشأت بذلك فرقتان المستعلي والتزارية ، ومن أتباع المستعلي الآن طائفة البهرة بالهند ، والطيبية باليمن أتباع الإمام الطيب بن الأمر المستعلي^(٢) ، وناصر الحسن الصباح نزار وكون فرقة إسماعيلية نزارية في إيران واتخذ لها مركزاً في قلعة الموت جنوب بحر قزوين ، وكون الحسن الصباح في هذه القلعة جماعة من الفدائيين الذين اتخذوا الاغتيالات السياسية وسيلة لإخافة معارضيهم ، وأصبحت لهم ضربات مؤثرة على الدولة العباسية في العصر السلجوقي . سبق أن أشرنا إليها .

ومن بقايا هؤلاء التزارية أتباع (أغاخان) في العصر الحديث ومركزهم في سويسرا ولهم مركز في سلمية بالشام وأتباع في باكستان والهند وشرق أفريقيا فالأغاخانية يمثلون الدعوة التزارية ، على حين يمثل البهرة والطيبية الدعوة الإسماعيلية القديمة (الفاطمية) ، فقد نادى أهل اليمن من أنصار المستعلي بابنه أبي القاسم وكان صغيراً ونقلوه إلى بلادهم سنة ٥٢٦هـ ولقبوه بالطيب ، ولم يعترفوا بالخليفة الحافظ

(١) الدروز : لفظ فارسي معرب ، ومعناها السفلة والسقاط والغوغاء من الناس ، والخياطون والحاكمة وهم من أسفل الناس ، والدروزي بالفتح الخياط ، والعامية تضم الدال فتقول / درزي والجميع دروز ، والصواب درزي في المفرد ودرزية في الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ (حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٥٩) .

(٢) حسن إبراهيم ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٩

في القاهرة ، وبذلك أسسوا الدعوة الطيبة باليمن وفرعهم بالهند يسمى البهرة ويشتهرون بالتجارة ويدعون للطيب ^(١) .

الدولة الحمدانية :

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب بن وائل من ربيعة ، وربيعة أحد الفرعين العدنانيين الكبيرين : ربيعة ومضر ، ومضر أغلبها في غرب الجزيرة في تهامة والحجاز ، وربيعة غالبيتها في شرق الجزيرة في البحرين واليمامة .

وكانت القبائل العربية تهاجر من مهدها الأول في الصحراء وتتجه شمالاً إلى أرض الجزيرة العراقية وإلى سوريا ، وكانت تؤسس قوى سياسية ، وكونت جماعات في ديار أصبحت تعرف باسمهم حتى قبل الإسلام .

فقبيلة "تغلب" استقرت بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديارها بديار ربيعة ^(٢) ، وكانت "الموصل" على دجلة أجل مدن ديار ربيعة وقاعدتها ، وكانت "الرقّة" على الفرات قاعدة تجمعات مضر المهاجرة ، و "آمد" في أعالي دجلة قاعدة تجمعات ديار بكر ، وديار بكر هي أقصى هذه الديارات الثلاث شمالاً ، وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة ، وسميت كلها ديار ربيعة ، لأنهم كلهم ربيعة ^(٣) .

وتعد قبيلة "تغلب" من القبائل الحربية التي لا يهدأ لها بال إلا بالقتال والغارات والغزوات فهي تشبه قبائل بني هلال وبني سليم ، وكان بعض بطون هذه القبيلة قد استقر حول الموصل في منتصف القرن الثالث الهجري وعندما ضعف أمر الخلافة العباسية وضعفت قبضتها على الأطراف بدأت هذه القبيلة تسيطر على الموصل ، ففي سنة ٢٥٤هـ تولى أيوب بن الخطاب التغلبي أمر الموصل ، وكان معه حمدون بن الحرث بن لقمان التغلبي جد الحمدانيين .

(١) حسن إبراهيم ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ .

(٢) عمر كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة "تغلب بن وائل" .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مواد "بكر" و "ربيعة" .

وقد ظهر الحمدانيون على المسرح السياسي بقوة في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) وبدءوا يشتركون في الحوادث السياسية التي تجري في منطقة الجزيرة العراقية منذ عام ٢٦٠هـ حيث تحالف حمدان بن حمدون مع الخوارج الذين يقودهم هارون الشاري عام ٢٧٢هـ ودخلا الموصل معاً ، ثم استولى على قلعة ماردين واعتصم بها ، فشن الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ) عليه حرباً سنة ٢٨١هـ وفتح القلعة فهرب حمدان وترك ابنه الحسين فيها فأظهر الطاعة للمعتضد وتعهد بالعمل معه ضد هارون الشاري وفي مقابل ذلك يعف الخليفة عن والده حمدان ، وتمكن الحسين من هارون الشاري وأتى به أسيراً إلى الخليفة ، فعفا عن حمدان وجماعته^(١) .

ومن هنا بدأت قصة التعاون بين الحمدانيين والخلافة وبدأت شهرة الحمدانيين ، وقد استفادت الخلافة من قيام بين حمدان كقوة عربية في منطقة الجزيرة العراقية للقضاء على المناوئين للخلافة ، وأصبح الحسين بن حمدان قائداً من قواد الخليفة الأقوياء ، وقامَ اشتهر بحروبه ضد القرامطة على الرغم من أن الحمدانيين شيعة ، وبرز من اخوته كذلك عبد الله وسعيد وداود وإبراهيم وقد ناصر الحسين عبد الله بن المعتز الذي بويع بالخلافة لفترة وجيزة كما سلف أن أوضحنا ، وبعد فوز المقتدر عفا عنه وولاه قم وكاشان ثم عاد فاختلف معه وسجنه ومات في السجن عام ٣٠٦هـ ، غير أن الدولة استمرت في الاستعانة بهم .

فخلفه على ديار ربيعة أخوه إبراهيم عام ٣٠٧هـ وتوفي ٣٠٨هـ ثم أخوه داود حتى عام ٣٠٩هـ ، وتقلد غير هؤلاء بعض مناصب الدولة وقد كان ظهور الحمدانيين يمثل انتعاش العنصر العربي الذي انزوى بعد تقدم العناصر الفارسية والتركية في الدولة العباسية وبعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان ، ثم تبع ابنه

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، ص ١٢٩-٨١ .

الوائق حركاتهم بالضرب والقمع في مناطق الجزيرة العربية والشام ومصر ، ثم أدى وقوع الخلافة تحت نفوذ الأتراك إلى محاولة الخلفاء إنعاش العنصر العربي مرة أخرى .
وقد جاء ظهور الحمدانيين في وقت نشط فيه أطماع الروم لمهاجمة العالم الإسلامي ومهاجمة منطقة الثغور في الجزيرة والشام ، من هنا تبرز أهمية الحمدانيين والدور الذي أدوه في خدمة العالم الإسلامي .

وكان الذين اشتهروا من الحمدانيين وقاموا بدور هام في ميدان الجهاد ضد الروم هم أبناء عبد الله بن حمدان المشهور بأبي الهجاء الذي تولى الموصل سنة ٢٩٢هـ وتوفي سنة ٣١٧هـ واشتهر من أبناء عبد الله الحسن بن عبد الله الذي لقب بناصر الدولة ، وأخوه علي بن عبد الله الذي لقب بسيف الدولة وقد انشعبت الدولة الحمدانية إلى شعبتين :

١- شعبة إمارة الموصل : وعليها الحسن بن عبد الله ناصر الدولة ٣١٧-

٣٥٧ ..

٢- شعبة إمارة حلب : وعليها علي بن عبد الله سيف الدولة ٣٣٠-

٣٥٦هـ .

ونظر لأهمية الدور الذي لعبه الحمدانيين في تاريخ العالم الإسلامي في هذه الفترة فسنخصص لهم حيزاً أكبر من غيرهم من الدويلات التي نشأت في هذه الفترة وسنلقي الضوء على نواح ثلاث من تاريخهم :

الناحية الأولى : علاقتهم بالخلافة العباسية .

الناحية الثانية : علاقتهم بحكومة مصر والشام .

الناحية الثالثة : جهادهم في منطقة العواصم والثغور ضد الدولة البيزنطية .

علاقة الحمدانيين بالخلافة :

أما علاقتهم بالخلافة العباسية : فقد بدأت بالثورة على العباسيين والاشتراك مع الخوارج ضد الدولة ، ثم مالت بعد ذلك إلى التقارب ومناصرة الدولة والوقوف

معها في وجه المتسلطين عليها من الأتراك وأمرء الأمراء من الديلم والأتراك ، وقد كان العراق يمثل الجبهة الخلفية للحمدانيين في مواجهتهم للروم ، ولذلك كان يهمهم أن يسبقوا قوياً وأن تستقر أموره ، ومن ناحية أخرى أضحى الحمدانيون يمثلون القوة التي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا اشتدت أزمتها بالعراق ، فالحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة عدة مرات وتولى أمره الأمراء في بغداد سنة ٣٣٠هـ كما تولى أخوه علي قتال بعض الخارجين على الدولة .

ولذلك قابل الخليفة المتقي (٣٢٩-٣٣٣هـ) هذا بالرضى عنهما والإحسان إليهما فلقب الحسن بناصر الدولة ولقب علي بسيف الدولة ، وهذان اللقبان يدلان على اعتراف الدولة بالدور الذي قام به الحمدانيون في خدمة الدولة العباسية فالحسن هو الذي نصر الدولة على المستبدين بها من الأتراك ، كما أن علياً هو الذي تولى الجهاد عنها طوال حياته في الثغور الإسلامية^(١) .

لكن الذي أعاق هذا الدور النشط للحمدانيين هو محاولات البويهيين المتسلطين على الخلفاء الحد من دور الحمدانيين وكانوا يخشون اتساع قوتهم ، فظلت قوة الحمدانيين تتعرض للضغط من البويهيين حتى ضعف أمرها وخضعت للنفوذ البويهي ، وكان الحمدانيون كثيراً ما يلوذون بمنطقتهم بعيداً عن اضطرابات العراق السياسية والعرقية والمذهبية .

علاقتهم بمصر :

كان للحمدانيين علاقة بمصر نظراً لامتداد سلطان مصر دائماً إلى بلاد الشام ووقوع بلاد الشام تحت وطأة حكام مصر في العصور الطولونية والإخشيدية والفاطمية وكان فرع الحمدانيين في حلب الذي كان عليه سيف الدولة يريد أن يوسع ملكه هو الآخر في الشام لتقوية جبهته أمام الروم ، فاستولى على دمشق الأمر

(١) حسن بن حمدان وزميلة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٤ .

الذي أدى إلى سدامه مع الإخشيد وانتصر عليه الإخشيد إلا أنه ترك له حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً على ألا يتعرض لدمشق .

ولم يرغب الإخشيديون في إزالة الحمدانيين كما كان يفعل البويهيون ، لأنهم قدروا دورهم في حماية الثغور بسبب الفوضى الضاربة أطنابها في الدولة العباسية في العصر البويهي .

جهادهم ضد الروم :

كانت الحدود بين المسلمين والروم تتألف من سلسلة جبال طوروس ، وكان يدافع عن هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع تعرف بالثغور ، ويمتد هذا الخط من ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط ، وكان الروم يحتلون هذه القلاع تارة والمسلمون تارة أخرى ، فكان الفريقان بين بكر وفر ، وكان هذا هو الطابع الحربي في العصر العباسي وهو يختلف عن الطابع الأموي الذي كان جوهره العمل على فتح بلاد الروم .

وينقسم خط القلاع هذا إلى مجموعتين :

إحداهما : مجموعة تحمي أرض الجزيرة العراقية وتسمى ثغور الجزيرة ، وهي الشمالية الشرقية ، وكان منها ملطية وزبطرة والحدث وحصن منصور ومرعش والهارونية وعين زرية .

والأخرى : مجموعة بلاد الشام وتسمى ثغور الشام وهي الشمالية الغربية ، وكان منها : المصيصة وأذنه وطرسوس بالقرب من الساحل الشمالي لخليج الإسكندرونة ، كان الحمدانيون يقومون بالجهاد في ثغور الجزيرة والشام ولهم دولة في ثغور الجزيرة عاصمتها الموصل وعليها فرع الحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة ، ولهم دولة أخرى في ثغور علي بن عبد الله الحمداني سيف الدولة .

وكان جهاد الحمدانيين ضد الروم هو الصفحة المضيفة لهذه الدولة وبها أخذت مكانتها في التاريخ الإسلامي واستحق الحمدانيون بذلك الشاء الذي أغدقه

عليهم المؤرخون والشعراء وخلدوا به ذكرهم أمثال أبي الطيب المتنبي والشاعر الحميداني أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، وهو الذي أسر في إحدى الغزوات وظل فترة لدى الروم . وإن كان يجب علينا أن نلاحظ أن هذا الدور بولغ فيه أحياناً لاشتراك الشعراء في تفخيمه .

وكان سيف الدولة علامة بارزة في هذا الجهاد ، فيذكر عنه المؤرخون أنه غزا في بلاد الروم نحو أربعين غزوة ^(١) وكان قد دأب طوال غزواته على نفوذ الغبار من ثيابه بعد كل غزوة في إناء وجمع منه شيئاً وعمل منه لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده ، فنفذت وصيته في ذلك ^(٢) .

ولا شك أن جهاد الحمدانيين قد عوق التقدم الرومي في وقت كانت فيه الدولة العباسية مشغولة بالحروب الداخلية في عصر نفوذ الأتراك والعصر البويهى ، وكانت مصر مشغولة بدفع الضغط الفاطمي عليها أثناء حكم الإخشيديين من ناحية المغرب ، واستغل الروم الفرصة للضغط على الحدود الإسلامية والنيل منها ، وتصدى الحمدانيون بقوة للهجوم الرومي ، واشتبكوا معهم في معارك كثيرة وكانت الحرب سجال بين الطرفين .

ولم تسقط الدولة الحمدانية إلا بسبب الضغط عليها من العراق ومصر من البويهيين والفاطميين ، وفي وقت كانت الحدود الإسلامية في حاجة إلى قوة تردع المعتدين وبعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ تفككت الأسرة الحمدانية وخاصة أن ناصر الدولة أخا سيف الدولة توفي بعده بعام ، فوقعت دولتهما في صراعات داخلية أدت بهن إلى الانحراف عن المهمة الثغرية في قتال الروم ولذلك سقطت تحت الضربات الفاطمية سنة ٣٩٤هـ .

(١) أبو الغسان ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ ، وحسن محمود ، ص ٤٤٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ ، وابن العمار الحنبلي شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

ورثة الحمدانيين :

يقول ابن خلدون ما ملخصه أنه بعد انتهاء دولة الحمدانيين من الجزيرة وشمال الشام استبد في هذه النواحي بعدهم بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة وكلهم من عامر بن صعصعة من مضر ، وبنو طيء من كهلان وانتشروا ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات ، وكانوا من قبل كالعرايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون معهم في الحروب ثم استفحل أمرهم عند فشل الحمدانيين وساروا إلى ملك البلاد^(١) .

بنو عقيل : أما بنو عقيل فهم قبيلة عربية كبيرة مهدهم الأول في البحرين وهي إحدى القبائل الخمس التي يتكون منها بنو كعب المتفرعون من مضر في الجزيرة العربية من فرع عامر بن صعصعة كان لهم بطون في سوريا والعراق وشمال أفريقيا والأندلس وفي بداية الدولة العباسية كان العراق مملوءاً بالعقيليين ، فلما انقرضت الدولة الحمدانية بالموصل استقل بنو عقيل بالموصل سنة ٣٨٦هـ وامتد حكمهم إلى مناطق أخرى بالعراق وعندما أتى السلاجقة استولوا على الموصل سنة ٤٨٩هـ وعاد العقيليون بعد انقراض دولتهم إلى البحرين مهدهم الأول .

بنو كلاب : وأما بنو كلاب فقد أسسوا دولة في حلب سنة ٤١٤هـ حيث حكم صالح بن مرداس^(٢) الكلابي وأعلن العصيان على الفاطميين ، وقتل الفاطميون صالح هذا سنة ٤٢٠هـ وخلفه ابنه شبل الدولة نصر ، وقتله الفاطميون أيضاً سنة ٤٢٩هـ وانقرضوا سنة ٤٧٢هـ بسبب صراعهم مع بني عقيل والفاطميين .

بنو أسد : كان بنو أسد يتمركزون حول الحلة ، وتنتسب إلى أسد بن خزيمه من مضر بن نزار ، وكانت مساكنهم في نجد مجاورة لطيء قبل أن يهاجروا إلى

(١) العبر ، ج ٤ ، ص ٣٢٦ .

(٢) ويسون أيضاً ببني مرداس .

العراق ويتمركزوا في الحلة وجهاتها ، وكانت أهم بطونهم بنو مزيد ، وكان بنو دبيس من عشائريهم ، وكان لهم ملك بالحلة من العراق ^(١) وأولهم سند الدولة أبو الحسن علي بن مزيد الذي كان يعمل والياً للبويهيين ، ثم شق عصا الطاعة على بهاء الدولة وأعلن استقلاله سنة ٤٠٣هـ وتوفي سنة ٤٠٨هـ ، وتولى بعده نور الدولة دبيس الأول (ت ٤٧٤هـ) ثم بهاء الدولة أبو كامل المنصور (ت ٤٧٩هـ) .

وقد بني "سيف الدولة صدقة الأول" وهو رابع بني مزيد مدينة "الحلة" لتكون مقراً لحكمة ، وتقع الحلة في مواجهة مدينة الجامعين على نهر الفرات بالقرب من خرائب بابل القديمة وكان بناؤها في سنة ٤٩٥هـ وسميت بحلة بني مزيد ، وكان صدقة يحمل كأجداده لقب ملك العرب وقتله السلاجقة سنة ٥٠١هـ وخلفه ابنه دبيس الثاني وهو الذي قتله السلطان محمد السلجوقي سنة ٥٢٩هـ ، وفي عهد الخليفة المستنجد بالله العباسي سنة ٥٥٨هـ أمر بإزالة قبائل بني أسد من العراق وقتل منهم أربعة آلاف فانسحبوا من العراق واستولى بنو المنتفق على جزء من بلادهم وانتقل حكم بلادهم إلى بني زنكي ^(٢) .

(١) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٧٤-٣٧٥ .

(٢) لين بول وغيره ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة أحمد السعيد ، ج ١ ، ص

دولة مصر والشام في العصر الأيوبي

تنسب هذه الدولة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي أرسله نور الدين محمود (حاكم حلب) إلى مصر مع عمه (شركوه) لقمع الثورات التي كانت تتلاحق بها ، وعينه الخليفة الفاطمي (العاقد) في آخر أيامه وزيراً في مصر سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) وتلقب (بالملك الناصر) فقبض على زمام الأمور في الدولة الفاطمية وعزل العاقد الذي كان في مرض موته سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) واستقل بحكم مصر تابعاً لسيدته نور الدين .

وحول صلاح الدين الخطبة في مصر للخليفة العباسي ، وورث عن نور الدين الاهتمام بالمذهب السني ، فوجه اهتمامه بالقضاء على المذهب الشيعي في مصر بإنشاء المدارس السنية ، وعزل قضاة الشيعة الإسماعيلية واسند وظيفة قاضي القضاة في مصر إلى (صدر الدين عبد الملك بن درباس) الشافعي .

وقد تم هذا التغير الكبير في هدوء تام لأن شعب مصر لم يعترف في قرارة نفسه بتلك الخلافة لأنها كانت شيعية إسماعيلية في حين أن الغالبية من أهل مصر من السنة والجماعة ، وكان الفاطميون عندما دخلوا مصر أعطوا أهلها أماناً يعطيهم الحق في التمسك بمذهبهم السني وما يتعلق به من إقامة الشعائر الدينية على المذهب السني وما يتبع ذلك من تقاليد قومية عرفها المصريون منذ دخولهم في الإسلام^(١) .

ومصر عرفت بأنها وسط في كل شيء في العقيدة والفكر والموقع الجغرافي وهذا الموقع الجغرافي المتوسط جعل مصر (واسطة عقد الأمطار) كما وصفها المؤرخ المصري ابن دقماق في كتابه : "الانتصار لواسطة عقد الأمصار " ولعل هذه الموهبة الطبيعية هي سر حيويتها على مر العصور سواء كانت مستقلة أو تابعة لقوة كبرى ، ومنذ أن

(١) د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣٠٨ .

فتحتها الإسلام وهي تواصل بشدة ونشاط في مجال الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية.

وعلى الرغم من أن الفاطميين أرادو في فترة حكمهم (٣٥٨-٥٦٧هـ) أن يجعلوا من مصر دولة شيعية إسماعيلية لكن طبيعتها الوسط في الفكر والاعتقاد أبت إلا أن تكون على مذاهب أهل السنة والجماعة حتى في أيام الفاطميين أنفسهم فقد كانت تعيش فيها الأفكار السنية جنباً الى جنب مع الأفكار الشيعية الاسماعيلية .

وعندما توفي نور الدين سنة ٥٦٩هـ أعلن صلاح الدين استقلاله بمصر سنة ٥٦٩هـ . وابتداء من العصر الأيوبي ، تبدأ دولة مصر والشام في الظهور فعلا بمظهر دولة واحدة ، وذلك بعد أن نجح صلاح الدين في ضم مصر الى جبهة الجهاد الإسلامي، بعد استخلاصها من أيدي الفاطميين ، ومنذ أن استقر صلاح الدين في مصر أصبحت قاعدة هذه الوحدة السياسية في مصر ، وأضحت دولة مصر والشام حقيقة واضحة ووحدة تاريخية قائمة بذاتها بحيث من العسير التأريخ لمصر وحدها أو الشام وحدها أو بلاد الجزيرة وحدها خلال العصر الأيوبي كله .

وتوسعت مصر جنوبا في عهد صلاح الدين فوصلت حدودها إلى دنقلة بالنوبة وسواكن على البحر الأحمر ، كما وصلت حدودها إلى برقة في ليبيا وتوسعت في الحجاز واليمن كما سبق أن ذكرنا ذلك في حديثنا عن الجزيرة العربية ، وبدأ صلاح الدين في بناء قلعة بالقاهرة على جبل المقطم سميت فيما بعد (قلعة صلاح الدين) .

وورث صلاح الدين ما كان للفاطميين من نفوذ في الحجاز واليمن وشرع في فتح سورية ، فدخل دمشق سنة ٥٧٠هـ ، ووسع بلاده برغم معارضة آل زنكي حتى بلغت في الفترة من سنة ٥٧٠هـ إلى سنة ٥٧٢هـ نهر الفرات ، ولكنه لم يستول على حلب إلا بعد وفاة الملك الصالح ابن نور الدين في سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) .

وكان الصليبيون قد هجدوا على الشام منذ عام ٤٩٠هـ - (١٠٦٩م) بالحملة الصليبية الأولى وتوسعوا في بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس ، فانقض صلاح الدين على الصليبيين في الشام فانتصر عليهم في معركة (حطين) سنة ٥٨٣هـ - (١١٨٧م) واستولى على مدينة القدس من يدهم ، وقضى على المملكة المسيحية التي كانت متوطنة في القدس .

وبعد هذا النصر الكبير وما تلاه من دخول بيت المقدس استكمل صلاح الدين سلطانه على بلاد الشام فأخذ كل بلاد مملكة بيت المقدس ، ووقع في أسره ملك بيت المقدس ، ونفر من فرسان الصليبيين من بينهم (أرناط) وهو صليبي شديد التعصب ضد الإسلام ، وكان يتطلع إلى السير جنوبا والهجوم على الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة ، ولم تكد عين صلاح الدين تقع عليه حتى أمر بقتله في الحال ، عقابا له على ما أقدم عليه ، من جرأة التفكير في العدوان على الحرمين الشريفين ، أما بقية الأسرى فقد افتدوا أنفسهم وعاملهم صلاح الدين بكل إنسانية .

وتوفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ - (١١٩٣م) وبعد وفاته اقتسم أبنائه وأخوته البلاد التي كانت تحت حكمه ، إلا أن أخاه العادل سيف الدين تمكن من توحيد ملك صلاح الدين مرة أخرى في سنة ٥٩٦هـ - (١١٩٩م) حتى وفاته سنة ٦١٥هـ - (١٢١٨م) وكان مركز حكمه في القاهرة .

دولة مصر والشام في عصر المماليك :

وقد عمل الأيوبيون في مصر في فترة ضعفهم أيام الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ) على استجلاب المماليك الأتراك للاعتماد عليهم في حروبهم ، وكان هذا الأمر هو الذي فتح الطريق لحكم المماليك الأتراك سنة ٦٤٨هـ ، فبعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ تولى ابنه (توران شاه) الملك فقتله

الممالك ، ثم تولت شجرة الدر أرملة الصالح الملك بالاشتراك مع المملوك (عز الدين أيك) الذي تزوجها ثم لم يلبث أن خلعها .^(١)

ينقسم عصر الممالك الى عصرين : عصر الممالك البحرية أو الأتراك من سنة ٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ (١٢٥٠م - ١٣٨٢م) وأصل هؤلاء الممالك في مصر أنهم عبيد أتراك أو جركس نشأوا أول ما نشأوا في كتائب الحرس الخاص وحرس القصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد ، ولما كانت ثكنات الممالك الذين أقاموا الدولة التركية بمصر واقعة في جزيرة الروضة بالنيل فقد قيل لهم (الممالك البحرية) ، وقيل لهم أيضاً بالنظر إلى جنسهم (الممالك الأتراك) أو على حد تعبير بعض المؤرخين (الملوك الترك) وقد انقرضت دولة الأيوبيين بمصر بعد أن شاركت زوجة الملك الصالح شجرة الدر الممالك في قتل زوجها (توران شاه) سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ومع أن شجرة الدر اعتلت في العام نفسه عرش الأيوبيين إلا أن (أيك التركماني) الذي كان من ممالك الصالح أيوب وكان يشغل في أيامه بعض المناصب العالية ، كان يقبض فعلاً على أزمة الأمور بوصفه أتابكاً ونائب سلطنة ، ولم يكن لشجرة الدر إلا الخطبة على المنابر وذكر اسمها في السكة ، ثم ما لبثت شجرة الدر أن عزلت بعد ثلاثة أشهر لأسباب كثيرة منها اعتراض الخليفة العباسي في بغداد على أن تلي امرأة مقام السلطنة وتم حل الإشكال بأن تزوجها الأمير أيك التركماني بعد ذلك حتى إذا كانت سنة ٦٤٨هـ اعتلى أيك عرش مصر بمساعدة الممالك البحرية ولقب نفسه (بالمملك المعز) وبالسلطان أيضاً .

وهكذا يعتبر أيك هو مؤسس دولة الأتراك الممالك في مصر حيث يقول بن إياس في كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" : "وكان أولهم المعز أيك التركماني

^(١) لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د . أحمد السعيد ، ج ١ ، ص ١٤١ .

الصالحى النجمي" ^(١) ونكن لين بول وغيره من الكتاب الأوربيين يعتبرون شجرة الدر أول ملوك المماليك البحرية .

ومع ذلك فقد رأى أيك أنه من الضروري إجلاس أحد أعضاء الأسرة الأيوبية على العرش من قبيل السياسة فانتخب لذلك الأشرف موسى وهو من أحفاد الملك الكامل محمد وكان لا يزال في السادسة من عمره وعين سلطاناً من الناحية الشكلية ويذكر اسمه مع أيك في الخطبة والسكة وهذه المسألة علامة السلطنة الرئيسية.

وأظهر أيك قوته عندما استولى على دمشق وأجبر الملك الناصر يوسف وهو من أيوبية حلب على الفرار بعد أن كان يزحف على القاهرة وزاد هذا النصر من شهرة أيك وعظمته وخصوصاً بعد أن نعى الملك الأشرف موسى سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) وصار سلطاناً منفرداً مطلقاً في مصر ولكن وقعت بينه وبين شجرة الدر بعض المشاكل التي تتعلق بالغيرة بينها وبين زوجة أيك الأمر الذي دفعها إلى قتله سنة ٦٥٥ هـ ولم تزل ضررها أن قتلها بعد ذلك بأيدي جواربها .

لكن هذه المشكلة لم تقض على دولة المماليك البحرية حيث تولى بعد أيك مملوك قروي هو (سيف الدين قطز) الذي قام بهزيمة المغول في معركة "عين جالوت" سنة ٦٥٨ هـ .

وفي هذا العصر تم القضاء على كل ما كان للصليبيين من أملاك على سواحل الشام وبقيت دولة مصر والشام التي ورثها المماليك عن الأيوبيين بحدودها التي ذكرناها قائمة في مصر والشام وبلاد الحجاز وسواحل اليمن وبرقة وبلاد النوبة . وفي النصف الأول من القرن السابع الهجرى اجتاحت الأعصار المغولى المدمر بلاد الشام الشرقية الآسيوية ، فكانت كارثة عطلت سير الحضارة الإسلامية وتطورها الثقافي الهادىء في دنيا الاسلام وحطم الكيان السياسى للدولة العباسية وفي سنة

(١) ابن الجاس، ج ١، ص ٩٠ .

٦٥٦هـ - اقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو في وحشية مدمرة متعطشة للدم ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وداسوا التراث الاسلامى بأقدامهم عندما جعلوا من الكتب والمصاحف جسرا يعبرون عليه نهر دجلة .

وكان ذلك بسبب ضعف المسلمين وتنازعهم وانقسامهم ، فقد أضحي الجزء الشرقي من بلاد المسلمين ألعوبة في يد الأتراك المتغلبيين الذين زرعت حروبهم المتواصلة الدمار والخراب في الدولة الاسلامية ، فأضعفت بذلك الخلافة الاسلامية ، وصار الخليفة في بغداد ألعوبة في يد الأتراك أيضا فسقطت بغداد في يد المغول لقمة سائغة وفريسة هينة .

وطلب المغول من حكام مصر (المماليك) الاستسلام فردوا عليهم بهجوم ساحق شنوه عليهم في فلسطين ، وأنزلوا بهم هزيمة حاسمة في معركة (عين جالوت) قرب الناصرة سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) وتمكن المماليك بقيادة (سيف الدين قطز) بذلك من إيقاف الزحف المغولى عند حده وأنقذوا الحضارة الانسانية وباتبقى من الحضارة الاسلامية في مصر والمغرب من عبث المغول .

ودخلت الخلافة الاسلامية بعد سقوط بغداد في يد المغول في طور جديد من أطوارها ، فبعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس في العراق عمد السلطان (الظاهر بيبرس) المملوكى الى اقامة الخلافة العباسية من جديد في القاهرة عاصمة دولة المماليك رغبة منه في أن يخلع على حكمه صفة شرعية وكان للمكانة التى نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة أثر كبير في رفعتها فاتجه العالم الى مصر ورضى أن تكون دار الخلافة بها بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد .

وقد شغل منصب الخلافة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦هـ الى سنة ٥٦٩هـ ، وقد رأى المسلمون أن عملية اقامة خليفة مهما يكن ضعفه فإنه رمز للوحدة الاسلامية وربما يصبح الرمز حقيقة في يوم من الأيام .

فاستدعى ر الظاهر بيبرس (رجلا من نسل بنى العباس سنة ٦٥٩هـ سمي بالمستنصر وقلده الخلافة في القاهرة ، ولم يكن للخليفة العباسي في مصر شيئا من السلطة في ظل سلاطين المماليك من سنة ٦٥٩-٩٢٣هـ فقد أدى نظام الخلافة الاسلامية في هذه الفترة الى الانهيار . فانفصلت السلطة الزمنية السياسية عن السلطة الدينية ، حيث تقلد سلاطين المماليك السلطة الزمنية السياسية وتركوا للخليفة العباسي السلطة الدينية مثل الظهور في بعض الاحتفالات الدينية بمطلع العام الهجري والمولد النبوي الشريف ورؤية أهلة الشهور العربية والاحتفال بالعيدين وتنصيب أحد سلاطين المماليك بعد تغلبه على السلطة وحصوله عليها بالغلبة فيأتي بعد ذلك دور الخليفة من الناحية المظهرية فحسب .

ومهما يكن من شيء فإن سلاطين المماليك استفادوا من وجود الخليفة بالقاهرة، فقد أسبغت عليهم هذه المسألة قوة وصيتا في العالم الاسلامي وجعلت منهم سلاطين على العالم الاسلامي عامة لا سلاطين مصر وحدها ^(١) .

أما العصر الثاني فهو : عصر المماليك البرجية أو السلاجقة من سنة ٧٨٤هـ -٩٢٢هـ (١٣٨٢م-١٥١٧م) وتم إطلاق البرجية عليهم لأن ثكناتهم كانت في قلعة القاهرة وكان يقال لهم الجراكسة نسبة إلى أصلهم من الشركس وكانوا كالمماليك البحرية يلقبون بالسلاطين ، ولم تنتقل السلطة فيما بينهم بالوراثة إلا نادراً وكانوا في الغالب ينتخبون أقواهم لولاية السلطنة وقد ولي أول السلاطين الجراكسة وهو الظاهر برقوق الحكم للمرة الأولى سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) .

وكانت دولة المماليك في عصرها (البحرية والبرجية) تضم القسم الأكبر مما نسميه الشرق الأوسط الآن حيث كانت تسيطر على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن) والحجاز ثم اليمن في أخريات أيامها وبعض الجزيرة الفراتية

(١) الامام محمد أبو زهرة ، الوحدة الاسلامية ، ط ٢ ، ص ٢٢٢ . وانظر للمؤلف : كتاب العالم الاسلامي في

التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٠-١٢ .

وإقليم العواصم والشنور وهو القسم الجنوبي من آسيا الصغرى وكانت هذه أجزاء كثيراً ما تدخل في سلطان ملوك مصر في معظم العصور الإسلامية ، وكان بنو رمضان الذين تسلطوا في (طرسوس) وما يليها يولون من قبل المماليك .

ولذلك كان سلاطين المماليك يديرون ملكاً واسعاً في مصر والأقطار التي تتبعها وكان لسلاطين المماليك الزعامة بين ملوك المسلمين وذلك لأمرين :

أولهما : أن سلاطين المماليك كانوا يقومون بخدمة الحرمين الشريفين وحمايتهما وعلى الرغم من اهتمامهم بالألقاب الدينية ومنها لقب (خادم الحرمين) فقد تولوا من هذا الملك الواسع السلطة الزمنية فقط وتركوا ما عداها للخليفة العباسي في التهمة إلا أنهم اهتموا بلقب خادم الحرمين الشريفين أو كما كان يقال أحياناً (حامي حرمي الحرمين الشريفين) .

ثانيهما : وجود الخلافة العباسية في القاهرة منذ سقوطها في بغداد وصارت للمماليك بذلك زعامة معترف بها في جميع الأقطار الإسلامية ، ولم يكن أحد ينازعهم هذه الزعامة حتى أن العثمانيين أنفسهم وهم من أقوى الممالك الإسلامية في العالم يومئذ كانوا يقرون للمماليك بهذه الزعامة ، ومن يطلع على الرسائل المتبادلة بين سلاطين آل عثمان ومماليك مصر يدرك تلك الحقيقة ^(١) .

وتمكن سلاطين المماليك من تشييد كثير من القصور والمساجد والمدارس والخانقوات والأسبلة والأسواق ، وجعلوها في أبهى زينة وما زالت آثار عصرهم ماثلة أمامنا إلى اليوم دليلاً واضحاً على ثراء عصرهم ومن هذه العماير الباقية مدرسة السلطان المنصور قلاوون وقبته وبقايا يمارستانة بالنحاسين بحي الجمالية الحالي بالقاهرة ومجموعة ابنه السلطان الناصر محمد بجانبها ومدرسة السلطان حسن ابن

(١) كثير من تلك الرسائل محفوظة في "منشآت السلاطين" التي جمعها فريدون بك في القرن الحادي عشر الهجري وبعضها في كتاب ساطم الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٠ - ٢٦ .

الناصر محمد بالعلقة ، زمدرسة السلطان برقوق ومجموعة السلطان قانصوة الغورى
(الجامع والقبة والمكتب والسبيل بالغورية) بالقاهرة .

وكان السلطان الغورى من أعظم البناه للعمائر الإسلامية بالقاهرة وغيرها
من أجزاء مملكته فكان مولعاً بتشيد العمائر والتأنق فيها ، تدل على ذلك آثاره
الباقية ، فقد أنشأ بجانب المجموعة السالفة جامعاً عند القلعة ، وبنى خان الخليلي وخانا
وأحواضاً في طريق الحجاج عند العقبة ورباطاً ومارستانا في مكة وقصرأ عند مقياس
النيل بالروضة ، وأنشأ الميدان الكبير عند قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وهو الميدان
المعروف بميدان الرملية ، وأضاف إليه أحواضاً وأبنية ، وعمر قاعة البيسرية وقاعة
العوامدية والدهيشة بالقلعة وغير ذلك، من الأبنية الحربية والقلاع والحصون في مصر
والحجاز والشام .

والذي مكن الممالك من إقامة تلك الحضارة الزاهرة في العصور الوسطى ،
ذلك الثراء الدلج بسبب تمكنهم من السيطرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب
فجنوا بذلك أرباحاً طائلة مكنتهم من إقامة العمائر الزاهرة وتكوين الجيوش القوية ،
ومن ثم خفت وطأهم على الشعوب التي حكموها لاعتمادهم على موارد خارجية بل
أن شعوبهم أدلت بدلوها هي الأخرى في مجال التجارة العالمية فعندما راجت
التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى عن طريق البحر الأحمر اشتركت
فيها الأوساط الشعبية أيضاً وخاصة في منطقة الشرق الأوسط فأخذ الأفراد
يستثمرون أموالهم في هذه التجارة عن طريق نظام المضاربة الإسلامي فقد كان التجار
يمولون من مجموعة الأفراد أصحاب رؤوس الأموال وهؤلاء الممولين نصيب في الربح
غير محدد عند عودة التاجر من تجارته .

وتزخر مجموعة وثائق الجيزة^(١) بالعديد من الوثائق التي هي عبارة عن عقود تجارية على نسق نظام المضاربة الإسلامي عقدت بين التجار والممولين الذين اشتركوا في نقل هذه التجارة العالمية مما يدل على أن هذه التجارة العالمية في العصور الوسطى عاد نفعها على الشعوب بعد الحكام . وأحدثت رواجاً اقتصادياً مرموقاً في منطقة الشرق الأوسط .

ولكن فترة حكم المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ) ١٣٨٢-١٥١٧م اتسمت بعدم الاستقرار في الحكم ، فقد كثر تعاقب سلاطين المماليك على الحكم في سرعة فائقة ، حتى أن بعضهم ما كاد يعتلى العرش أياماً حتى يعزل مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذي أصاب سلطنة المماليك في ذلك العصر ، بل أن أحد سلاطين المماليك لم يبق سلطاناً سوى ليلة واحدة ، فسمع أن خاير بك اعتلى العرش سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨م) بعد عزل (قربغا) ، وكان اعتلاؤه العرش في المساء وتم عزله في الصباح التالي ، مما جعل ابن إياس يطلق عليه "سلطان ليلة"^(٢) .

ولم تستقر الأوضاع في عصر سلاطين المماليك الجراكسة إلا في عصرين هما :

١- عصر السلطان الأشرف قايتباي ٨٧٢-٩٠١هـ (١٤٦٨-١٤٩٦م).

٢- عصر السلطان قانصوة الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ (١٥٠١-١٥١٦م).

(١) مجموعة وثائق الجيزة عبارة عن عشرة آلاف وثيقة حفظها اليهود في معبدهم بالفسطاط ومقرهم بالبساتين ، نترية من القاهرة لمدة قرون طويلة قبل أن تأخذ طريقها إلى مكتبة جامعة كامبرج وغيرها من مكاتب الغرب الأوروبي ، وهي ترجع إلى العصور الوسطى ، الفاطمية والأيوبية والملوكية وقليل منها من بداية العصر العثماني ويرجع إلى العصرين الفاطمي والأيوبي . وتغطي فترة زمنية طويلة تمتد من ٣٥٨-٩٤٥هـ / ٩٦٩-١٥٣٨م أي ما يقرب من ٦٠٠ سنة انظر د. حسين ربيع ، وثائق الجيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض ، إبريل ١٩٧٧م .

(٢) ابن إياس ، الزهور ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٨-٨٩

وتسببت هذه النفوضى المملوكية في سوء أحوال المملكة المصرية ، وبدأ ذلك في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد قُدر له أن يحكم حتى جاوز الثمانين من عمره واستبد به المرض في شيخوخته ، وعندما توفي قايتباي في سنة ٩٠١هـ عاد الصراع وكثر القتال على الحكم بين المماليك ، ولم تهدأ الأحوال إلا عندما اعتلى قانصوة الغوري كرسي السلطنة في سنة ٩٠٦هـ (١٥٠١ م) ولعل الميتة الوحشية التي تعرض لها كثيرون من سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هي التي جعلت قانصوة الغوري يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء وامتنع عن تولي السلطنة وبكى ^(١) بيد أنه قبل في النهاية ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه ^(٢).

ولم يكد السلطان الغوري السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوي صلب العود على الرغم من أنه كان قد جاوز الستين من عمره ^(٣) وعلى الرغم من اعتقاد المماليك أنه ضعيف يمكن التلاعب به عمل بسرعة منذ اللحظة الأولى على إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة بسبب اعتراض البرتغاليين للتجارة الشرقية ، واعتدائهم على السفن الإسلامية التي كانت تحمل هذه التجارة . وعلى الرغم من أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى المال بعد أن نضب معين التجارة في عصر الغوري مما اضطره إلى فرض كثير من الضرائب لمواجهة البرتغاليين وتحصين ثغور البحر الأحمر وإعداد أسطول قوي لمجابهة البحرية البرتغالية المتقدمة ، على الرغم من ذلك إلا أنه يؤخذ على الغوري جمع المال بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، واتباع سياسة تعسفية في إشباع خزانة الدولة ، فجمع

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٢٥ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٥ .

ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضي والخوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ، ودواب النقل حتى الأوقاف الخيرية هذا إلى جانب أنه تلاعب في العملة لتستفيد الخزنة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضراراً بالغة .

وأثقلت تلك الإجراءات كاهل الشعب المصري والشامي والحجازي في وقت بدأت المنافسة البرتغالية للتجارة المصرية في البحار الشرقية تلقي بظلمها على الحياة الاقتصادية داخل دولة المماليك ، وعلى الرغم من ذلك فإن الغوري ظل يصرف كثيراً من الأموال على مظهر بلاطه ، وفخامته ولم يقلع عن أسلوب الفخخة والعظمة حتى في أحلك الظروف الاقتصادية وأصبحت ممالكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالس الأدبية التي ضمت الشعراء والأدباء والعلماء^(١)

وفي هذه الفترة بقيت حدود الدولة المملوكية في مصر والشام على ما هي عليه خلال العصرين الأيوبي والمملوكي الأول وزادت عليها أيام السلطان (برسبای) ضم قبرص ورودس .

(١) انظر بحثاً قيماً عن مجالس السلطان الغوري للدكتور عبد الوهاب عزام .

الباب الثالث

الحركات الانفصالية في المشرق

الفصل الأول

الدويلات التي نشأت في فارس والمشرق

- الدولة الطاهرية .
- الدولة الصفارية .
- الدولة السامانية .
- الدولة الطبرية الزيدية .
- المغول في فارس .
- المغول في العراق .

الحركات الانفصالية في المشرق

كان المشرق الإسلامي هو البيئة الصالحة التي اعتمدت عليها الثورة العباسية واستمدت منها قوتها فتوجهت إليه الدعوة العباسية في فترة التحضير للثورة على الدولة الأموية ، وكانت جماهير المشرق الإسلامي هي التي التفت حول الدعوة للرضا من آل محمد عليه الصلاة والسلام ، والدعوة العباسية حين اتجهت إلى المشرق إنما كانت تتجه إلى بيئة شيعية حرثها العلويون من قبل .

فقد كان العراق مركز الشيعة منذ كانت الكوفة عاصمة الخلافة في عهد علي بن أبي طالب ، وقد اتسم الصراع الذي قام بين علي ومعاوية بمظهر الصراع الإقليمي بين العراق والشام ، وقد ازداد النشاط الشيعي في المشرق كنتيجة لانضمام الموالي الفرس للشيعة ، وقد وجد التشيع أرضاً خصبة في بلاد فارس لاعتقاد الفرس أن نسل الحسين بن علي يحمل حق بيت النبوة وحق الحكم في آل ساسان ، وذلك لأن الحسين بن علي تزوج شهربانو ابنة (يزد جرد الثالث آخر ملوك آل ساسان) . .

فيذكر ابن خلكان في ترجمة علي زين العابدين بن الحسين نقلاً عن الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار" أن الصحابة لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان فيهم ثلاث بنات ليزد جرد ، وأمر عمر ببيعهم فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق ، فقال له عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يُقَوِّمَنَّ ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فرضي عمر بخطته ورأيه فقومن ودفع علي ثمنهن وأخذهن ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين ، والثالثة لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولد عبد الله بن عمر أمته (سالمًا) ، وأولد الحسين بن علي من أمته شهربانو ولده (علي زين العابدين) ، وأولد محمد بن أبي بكر من أمته ولده

القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزدجرد (١) ، واستناداً إلى هذا أصبح الأئمة من الشيعة من نسل الحسين وشهربانو من ابنتهما (علي زين العابدين) لا يمثلون حق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضاً من حيث كونهم يتمتعون بالحدادهم من أصل مزدوج من بيت الرسالة ومن آل ساسان (٢) .

ولهذا فقد رحب الفرس بدعاة الشيعة ، وقد أصيبوا بخيبة أمل عندما اكتشفوا في النهاية أن العباسيين قد استغلوا الثورة لصالحهم دون العلويين . وعلى الرغم من أن الفرس حققوا مكانة طيبة في الدولة العباسية فكان منهم وزراء الدولة وقوادها ، لا أن ميرلهم الشيعة ظلت واضحة في كثير من وزراء الدولة العظام أمثال آل برمك وآل سهل وغيرهم . وبدأت طموحاتهم مبكرة في تحقيق الانفصال عن الدولة العباسية وتحقيق كيان مستقل عنها إذا جاز لنا هذا التعبير .

ولقد ساعد على هذا أن الوجود العربي في فارس بعد قيام الدولة العباسية أصبح معدوماً أو نادراً ، وذلك بسبب أن الألو ف من العرب الذين استقروا في إيران ساروا مع الجيوش العباسية غرباً للقضاء على الدولة الأموية عندما قامت الثورة العباسية ولم يعودوا إلى خراسان مرة أخرى (٣) وهذا هو الذي أضعف العنصر العربي في إيران وما يليها شرقاً ، ولما كان العرب هم خميرة التعريب فقد تراخت حركة التعريب بل توقفت في المشرق .

وفي المقابل بدأت الروح الإيرانية تنتعش ودبت الروح في اللغة الفارسية والحضارة الإيرانية مرة أخرى وأخذت الحركة صورة رد فعل معاد للعرب عرف

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٢) محمد إسماعيل جمال الدين ، دولة الإسماعيلية في إيران ، ص ٨ ، وبديع جمعة وأحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٣) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٢٣١ .

بالشعبوية وأيد ذلك كله أن الدولة العباسية وهي دولة عربية قامت في محيط إيراني خارج النطاق العربي ، فبدأت الفارسية تحل محل العربية أو تشاركها في البداية ، وبدأت سيطرة الفرس على الوزارة ودواوين الدولة .

وتراخت الدولة العباسية مع حكام النواحي في إيران وما يليها شرقاً ما داموا يظهرن الولاء للبيت العباسي ويؤدون الأموال وبذلك ظهرت الدول الإيرانية التي سنتناول نشأتها بالبحث والدراسة ^(١) .

وهكذا بعد إبعاد العنصر العربي عن القيادة وجد العباسيون أنفسهم مكشوفين منفردين أمام الموالي الطامحين إلى الاستبداد بهم والاستقلال عنهم .

غير أن المشرق يختلف تماماً عن المغرب فبينما كانت الحركات في المغرب تتجه إلى الانفصال التام عن الخلافة العباسية كانت أقاليم المشرق في اتجاهها نحو تكوين ولايات وراثية تحرض على البقاء متصلة بالخلافة معترفة بسلطانها عاملة في مجال التعاون معها بل حرصت على أن يكون قيامها بتأييد من الخلافة العباسية نفسها ، ولم تكن دولة من هذه الدول التي نشأت في المشرق ترى سلطاناً شرعياً إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي حتى الأمراء الذين استغلوا الخلافة فيما بعد واستبدوا بالخلفاء حرصوا أشد الحرص على أن تصدر لهم الخلافة براءة التقليد ، ولم يسعوا قط في إقامة ملكهم بعيداً عن سلطان الخلافة الإسمي على الأقل .

وأمام هذا الولاء العميق للخلافة العباسية ظلت الخلافة قائمة على الرغم من فترات الضعف الشديد التي مرت بها ووقوعها تحت أيدي المستبدين بها من الأتراك والديلم والسلاجقة ، وكان من الممكن أن تسقط الخلافة العاجزة وينقسم المشرق إلى دول عديدة منفصلة تماماً لولا هذا الاحترام الذي يكنه الشرق الإسلامي للخلافة ، وكان خلفاء بني العباس في عصر ضعف الخلافة يقفون مجردين إلا من مركزهم

(١) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٣١-٢٣٢ .

الديني السامي ، وهو المركز الذي أبقي الخلافة قائمة هذه المدة الطويلة ، ولم تسقط إلا على يد عدو شرس لا يدين بالإسلام وهو العدو المغولي .
وتجدر الإشارة إلى مصطلح تاريخي كثيراً ما يرد في كتب المؤرخين المسلمين وهو لفظ (المتغلبون) أو حكام ولايات الأطراف الذين يتغلبون على هذه الولايات ، والواحد منهم متغلب أو صاحب طرف والفرس يطلقون عليه (طرف دار)^(١) وهو مصطلح مكون من لفظتين : الأولى : عربية وهي كلمة "طرف" والثانية : فارسية وهي لفظة "دار" بمعنى ماسك أو مدير أو محافظ فيكون معناها محافظ الطرف أو الثغر أو مديره .

وولاية تلك النواحي يحكمون إما عن طريق التغلب ويطلبون من الخليفة تقليداً بتوليتهم على النواحي التي تغلبوا عليها والخليفة هنا يقر الأمر الواقع ولم تكن الخلافة في العادة تؤخر هذا التقليد إلا إذا كانت قادرة على إرسال الجيوش لاسترداد ما تغلب عليه المتغلب ، أما إذا شغلت بشيء أو عجزت فهي ترسل إليه التقليد .
والنوع الثاني : من ولاية الأطراف هم ولاية التفويض ففي حالة ولاية التفويض فإن الخليفة يختار بنفسه رجلاً من وجوه قواده الموثوق بهم والمشهود لهم بالكفاءة فيوليه ولاية من الولايات ويصدر إليه تقليداً ، فيكون طرفدار بالتفويض ، وعلى ذلك قولاية النواحي نوعان : ولاية تغلب بمعنى الاستيلاء^(٢) وولاية تفويض .

(١) انظر من مصادر المصطلحات التاريخية : ١- ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨هـ) ، المصطلح الشريف ٢- تقي الدين عبد الرحمن المحي (ت ٧٨٦هـ) ، تنقيف التعريف بالمصطلح الشريف ٣- أبو العباس القلقشندي (ت ٨٢١هـ) صبح الأعشى ٤- تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٦هـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٥- علي مبارك (١٣١١هـ) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ٦- د. أحمد السعيد ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبري من الدخيل . وللمؤلف : الموسوعة المصطفية في المصطلحات التاريخية .

(٢) المؤرخون المسلمون يشيرون إلى هذا النوع بقولهم (تغلب) فلان على ناحية كذا و (استولى) فلان على إقليم كذا ، و (استبد) فلان بولاية كذا ، ولا يستعملون مصطلح استقل بإقليم كذا لأن هذا مصطلح عرف في التاريخ الحديث عند محاولة الدول المستعمرة الاستقلال القومي والوطني عن الاستعمار الذي كان يدير بلادهم عن طريق الوصاية أو الانتداب، ومن الخطأ استعمال المصطلحات الحديثة في التاريخ الإسلامي، وذلك مثل (الإمبراطورية=

وسنرى فيما يلي أمثلة لكلا النوعين ونحن في استعراضنا لكلا النوعين في المشرق نسير فيه بحسب سير الحوادث زمنياً .

الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى (طاهر بن الحسين) أحد قواد المأمون أثناء حربه مع أخيه الأمين ، وقد ولاه المأمون على خراسان ^(١) ولاية تفويض بعد أن استقرت أوضاع المأمون في بغداد سنة ٢٠٥هـ ، وطاهر بن الحسين إيراني الأصل ولكنه كان مستعرباً ، وكان جده مصعب يلقب (بالخزاعي) لأنه كان كاتباً (لسليمان بن كثير الخزاعي) صاحب دعوة بني العباس ، ومن هنا لقب بالخزاعي فهي نسبة ولاء لانسبة نسب كما يقول ابن خلكان .

ويذكر ابن الأثير أن المأمون أضاف إليه أعمال المشرق كلها من مدينة السلام (بغداد) إلى أقصى عمل المشرق وكان قبل ذلك يتولى الشرطة في بغداد وبعد توليته على خراسان استمرت ولاية الشرطة لأبنائه ومن أجل محافظتهم على صلتهم القوية بالدولة العباسية لم يعتبرهم بعض المؤرخين من الدول المنفصلة ولكننا اعتبرنا استمرار حكمهم الوراثي في المشرق وصراعهم مع القوى الناشئة هناك كالصفاريين والطبرستانيين من أجل المحافظة على كيافهم من الأسباب الكافية لاعتبار دولتهم أول الدول التي نشأت في المشرق .

=الإسلامية) وذلك لأن كلمة إمبراطورية مأخوذة من اللفظة (imperialism) ومعناها بناء الإمبراطورية الاستعمارية .

(١) مصطلح (خراسان) هنا يتسع فيشمل المشرق كله ، وكلمة خراسان في الفارسية معناها المشرق ، فهي مؤلفة من (خور) بمعنى شمس و (آسان) بمعنى شروق . (العبادي، ص ١٤٩) وكان هذا الاسم في صدر الإسلام يـ : بوجه عام على جميع الأقاليم الشرقية الإسلامية في شرق العراق حتى حد جبال الهند ، وخراسان بهذا المدلول الواسع كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر التي في الشمال الشرقي ، إلا أن خراسان الحقيقية لم تكن تمتد إلى أبعد من نهر جيحون . وتشمل نيسابور ومرو وهرات وبلخ [انظر : لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية] .

وقد اتخذ طاهر بن الحسين من (نيسابور) قاعدة له ، ونيسابور هي بوابة إيران الشرقية ، وهي إحدى المدن الأربع السالفة التي كانت تتبادل الأهمية وبعد الفتح الإسلامي الأول لخراسان كانت (مرو) العاصمة إلا أن الطاهريين جعلوا العاصمة نيسابور . ومعناها في الفارسية (موضع سابور الطيب) ، ونسبت إلى سابور الثاني أحد حكام آل ساسان ، ثم أصبحت عاصمة للسلاجقة منذ سنة ٤٢٩ هـ ، وبعد أن خربها المغول في القرن السابع الهجري تحولت إلى قرية صغيرة لا يزيد تعداد سكانها عن ١٢٠٠٠ نسمة وحلبت محلها مدينة (مشهد) وهي طوس القديمة والتي بها ضريح الإمام علي الرضا (الإمام الثامن عند الإمامية) الذي كان ولاء المأمون ولياً لعهدده ثم توفي في طوس ، ومزارعة من أهم مزارات الشيعة في إيران ^(١) . غير أن طاهر لم يستمر في ولايته طويلاً ، فقد توفي في سنة ٢٠٧ هـ فولى المأمون مكانه ابنه (عبد الله بن طاهر) . غير أن عبد الله كان والياً على (الرقعة) من بلاد الجزيرة ، فأرسل المأمون أخاه (طاححة بن طاهر) مكانه إلى حين حضور عبد الله من الرقة ، وهذا مما يدل على حرص المأمون على خدمات هذه الأسرة .

ولابد من طباطبا في الفخري رواية تذكر أن طاهر مات مسموماً فيذكر أن المأمون لما ولي طاهر على خراسان استشار فيه وزيره أحمد بن أبي خالد فصوب أحمد الرأي في تولية طاهر ، فقال المأمون لأحمد إني أخاف أن يغدر ويخلع ويفارق الطاعة ، فضمن ذلك أحمد .

فلما تولى قطع اسم المأمون من الخطبة قبل ذلك المأمون فقال لأحمد بن أبي خالد أنت الذي أشار بتولية طاهر وطلب منه أن يتدخل في الأمر لإصلاح الوضع .

(١) لسترنج ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢٣-٤٣٠ ، وموريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، ص ٥٥ .

فقال أحمد يا أمير المؤمنين طب نفساً ، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه ، فأهدى أحمد لطاهر هدايا فيها بعض الطعام المسموم فأكل طاهر منه فمات (١) .

وقد قابل الطاهريون ثقة المأمون بالإخلاص والتفاني في خدمة الدولة ، وحرصوا على التعاون معها والاعتراف بسلطانها ، وكان عبد الله بن طاهر على جانب كبير من الكفاءة والإخلاص للدولة العباسية .

وقد ولاه المأمون على مصر بالإضافة إلى خراسان سنة ٢١٠هـ وكانت تغلب بالفتن فأصلح أحوالها وحاول القضاء على ما بها من فتن ، ولما كان للعلويين نشاط كبير في مصر في هذه الفترة ، وكان المأمون يعرف ميل الطاهريين إلى العلويين كغيرهم من الفرس فقد أراد يوماً اختبار إخلاص (عبد الله بن طاهر) ، فدرس له من يسبر غور نفسه ، وذلك بأن يدعو إلى أحد العلويين بمصر ، ففطن ابن طاهر إلى خطورة هذا العرض فرد على الرجل قائلاً : "تجئ إلي وأنا في هذه الحال : لي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب (يعني مصر) وفيما بينهما أمرى مطاع ، ثم لا ألتفت عن يميني ولا شمالي وورائي وأمامي إلا رأيت نعمة لرحل أنعمها علي ، ومنه ختم بها رقبتي ، وبدأ بيضاء ابتدأني بها تفضيلاً وكرماً ، تدعوني إلى أن أكفر بهذه النعم وهذا الإحسان ، وتقول أعذر بمن كان أولاً لهذا وآخر ، وأسعى في إزالة خيط عنقه ، وسفك دمه وأن أعذر به وأكفر بإحسانه وأنكث بيعته (٢) .

ووصل هذا الرد الذي يظهر فيه عبد الله بن طاهر الاعتراف بالجميل للمأمون فأمن له ورضي عنه ، هكذا تدعمت الثقة بين العباسيين وبنى طاهر ، وقد تتبع الطاهريون الحركات العلوية في المشرق يقضون عليها ، وفي أي مكان تصل أيديهم إليه استجابة لرغبة العباسيين ، وكذلك تعاون عبد الله بن طاهر مع الخلافة تعاوناً صادقاً في قمع الخارجين عليها ، فعندما عاد إلى خراسان سنة ٢١٤هـ وخرج

(١) الفخري، في الآداب السلطانية ، ص ٢٢ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ، ص ٢٧٧ .

(المازيار بن قادن) صاحب جبال طبرستان على الدولة أيام المعتصم بتحريض من الأفشين استطاع عبد الله بن طاهر كشف المؤامرة التي تمت بينهما وأطلع المعتصم عليها وأرسل جيوشه إلى قتال المازيار حتى قبض عليه وأرسله إلى سامرا .

وكان حكم الطاهريين للمشرق حكماً صالحاً ، قد اهتموا بأمر رعاياهم ، وأصلحوا الأحوال الاقتصادية للبلاد وأقروا الأمن ، كما تعهدوا عماهم بالنظر والمراقبة ، فكانوا يضربون على يد كل من يعسف بالرعية ^(١) كما تعهدوا أهل العلم والمعرفة ، وأصبحت (نيسابور) في عهدهم مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية .

وحافظوا على الثغور الشرقية ودعموا نفوذ الإسلام في بلاد الترك بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين كانوا قد دخلوا في طاعة المسلمين ، وبعد وفاة عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠هـ خلفه ابنه طاهر الذي توفي سنة ٢٤٨هـ ثم حفيده محمد بن طاهر الذي حكم حتى سنة ٢٥٩هـ ويعتبر محمد بن طاهر آخر من تولى من أسرة الطاهريين إذ خلفه على حكم خراسان (يعقوب بن الليث الصفار) مؤسس الدولة الصفارية .

وقد قدر العباسيون خدمات الطاهريين ومالوا إلى جانبهم في نزاعهم مع الصفاريين ، وأبقوا شرطه بغداد في أيديهم حتى سنة ٣١٠هـ على الرغم من زوال سلطتهم في خراسان .

ولعل السبب في ذلك أن آل طاهر كانوا قد اندمجوا في المجتمع العربي لدرجة أن بعضهم كان يقول الشعر ويؤلف بالعربية مثل (عبيد الله بن عبد الله بن طاهر) الذي ولي شرطة بغداد وله مؤلفات باللغة العربية ^(٢) وإليه انتهت رئاسة أهله ^(٣) .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩٨-٢٠٣ .

(٢) منها : ٩- الإشارة في أخبار الشعراء ٢- ورسالة في السياسة الملوكية وكتاب : مراسلاته لعبد الله بن المعتز ، وكتاب البراعة في الفصاحة ، وغير ذلك (ابن خلكان ، وفیات ، ج ٣ ، ص ١٢٠) .

(٣) وتوفي عبید الله بن عبد الله بن طاهر سنة ٣٠٠هـ وكانت ولادته سنة ٢٢٣هـ ودفن بمقابر قريش وكانت مدة ولايته للشرطة عشر سنين (ابن خلكان) .

وكان بيت الطاهريين في القرن الثالث الهجري ثاني بيت في الدولة الإسلامية بعد بيت الخلفاء العباسيين وبلدكر الثعالبي في "يتيمة الدهر" أن آخر سلالة الطاهريين أصبحوا في خدمة السامانيين في بخارى عندما علا نجمهم ، وكان الطاهريون قد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ، وكان منهم شاعر يخدم آل سامان جهراً ويهجوهم سراً وينطوي على بغض شديد لهم [ج ٤ ، ص ٧ وما بعدها ، وانظر : آدم متر ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٧٥] .

الدولة الصفارية (٢٥٣-٢٨٧هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى (يعقوب بن الليث الصفار) الذي كان يعمل هو وأخوه عمرو في بداية حياتهما في صناعة النحاس الأصفر ويعيشان من كسب عملهما فيه بإقليم سجستان في جنوب إيران ، ثم التحقا بفرق المجاهدين المتطوعة التي تكونت لقتال الخوارج الذين خرجوا على الدولة العباسية في تلك النواحي بسبب اختلال أوضاع الدولة بسيطرة الأتراك عليها .

وقد أظهر يعقوب حماسة وجلداً في حربه مع المتطوعة وقد كان يعقوب ذا مواهب عالية فما لبث أن ظهر أمره بين رفاقه حتى وصل إلى (قيادة فرقة المتطوعة - سنة ٢٣٧هـ) وقد برهن يعقوب منذ اللحظة الأولى في القيادة على مقدرة وكفاءة ، فقد ضبط أمور الجند وحارب بهم الخوارج ، وغلب على إقليم سجستان ، وأظهر التمسك في بداية أمره بطاعة الخليفة ، وعمل تحت راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تلك النواحي فأطاعه الجند وكثر أتباعه وكان على جانب كبير من الدهاء وعرف بالتسرع إلى سفك الدماء^(١) وكاتب الخليفة وأظهر أنه يعمل بأمره .

ولم يقنع يعقوب بما أحرزه من مكاسب في سجستان وإنما طمع في خراسان التي كانت تحت سلطة الطاهريين فتحرك في سنة ٢٤٨هـ : سجستان متجهياً إليها

(١) ابن خلكان ، وفیات ، ج ٦ ، ص ٥٧ .

واشتبك مع جيش الطاهريين فهزمهم في عدة معارك واحتل مدينتي هراة وبوشنج سنة ٢٥٣هـ^(١) ولم يكتف يعقوب بما وصل إليه وإنما تقدم فاحتل كرمان^(٢) سنة ٢٥٥هـ وضمها إلى سجستان وسار إلى إقليم فارس فدخله واحتل عاصمته (شيراز) سنة ٢٥٧هـ وبادر بإرسال الهدايا إلى الخليفة فدخله وأظهر أنه يعمل تحت طاعة الخليفة ، فأرسل لآلئه الخليفة ينهاه عن احتلال فارس ، فقفل راجعاً ، غير أنه لم يستقر له قرار فاتجه إلى أقاليم بلخ^(٣) وطخارستان فهزم من اعترضه في تلك النواحي وحاول أن يظهر بمظهر المدافع عن حدود الدولة في هذا الثغر فكتب إليه الخليفة بولاية بلخ وطخارستان^(٤) سنة ٢٥٧هـ إلى هذا الحد كان يعقوب يعمل تحت دائرة طاعة الخلافة ويحرص على إرضائها ويسعى لتأييدها ويرسل بين الحين والآخر رسله إليها بالهدايا والتحف وقد استجابت الخلافة فمنحته التقليد على ما تغلب عليه ، لكن كثيراً مما وضع يده عليه كان تحت نفوذ الطاهريين الذين تعطف عليهم الخلافة ، وتعتمد لإخلاصهم في خدمتها وطاعتهم ها ، وكانت تحركات يعقوب نحو هذه الجهات تهديداً خطيراً للطاهريين ، وإضعافاً لهم ، في الوقت الذي كانوا يقاتلون فيه العلويين في طبرستان ومنطقة قزوین .

وقد أدت انتصارات يعقوب من ناحية وانتصار العلويين في طبرستان من ناحية أخرى إلى اضمحلال أمر محمد بن طاهر والي خراسان فلم يبق في يده إلا بعض الأقاليم في خراسان .

(١) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٣٨ .

(٢) كرمان : اسم لإقليم ومدينة ، وهو الإقليم الذي يقع على ثنية الخليج العربي بجانب المغارة الكبرى التي تقع في الشمال ، وسجستان من الشمال الشرقي ومكران في الشرق والخليج في الجنوب .

(٣) بلخ : من أجل مدن خراسان وأوسعها غلة وتقع على نهر جيحون ويقال لجيخون لهذا نهر بلخ أحياناً ، وكانت بلخ عاصمة خراسان في بعض الأحيان ولكن آل طاهر نقلوا العاصمة إلى نيسابور غرباً وهي أكبر المدن .

(٤) طخارستان اسم لناحية في شرق بلخ ممتدة بمحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيحون .

وتقدم شمالاً إلى (طبرستان) فحارب هناك الزيدية الذين كانوا قد كونوا بها دولة تحت قيادة (الحسن بن زيد العلوي) منذ سنة ٢٥٠هـ وهزمه في عدة معارك ، وكانت قسرات الطاهريين قد عجزت في القضاء عليه وظن يعقوب أن الخلافة سترضى عنه ، ولكنها قابلت فعله هذا بالحدز وخشيت جانبه .

لكن يعقوب أغراه نجاحه وأحس بقوته ووجد الفرصة مواتية له ليضم المشرق كله تحت لوائه وخاصة حين أدرك ضعف الطاهريين ، فتقدم إلى نيسابور سنة ٢٥٩هـ عاصمة خراسان ومركز الطاهريين واحتلها وقبض على محمد بن طاهر وأهل بيته وحبسهم وأرسل إلى الخليفة يرر عمله ويشرح له ما آل إليه حال خراسان من تغلب الخوارج عليها وضعف محمد ابن طاهر أمامهم وزعم أن أهل خراسان قد كاتبوه واستعانوا به فسار إليهم وخلص خراسان من الفوضى .

وهنا أدركت الخلافة خطورة يعقوب عليها فأرسل إليه الموفق رسالة يقول له فيها : "إن أمير المؤمنين لا يُقرُّ يعقوب على ما فعله وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره فليرجع فإنه إن فعل كان من الأولياء ، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين ^(١) " .

لكن يعقوب تحدى الخلافة معتمداً على قوة جيشه وطاعة جنده فتقدم نحو فارس واحتلها وثبت سلطانه بها ، واستغل في ذلك كله الفراغ الذي تركه الطاهريون ، ولكن الخليفة واجهه بدعاية خطيرة تقضي عليه وخاصة أنه كان يشيع دائماً أنه يعمل لصالح الخلافة ، فاستغل الخليفة عودة حجاج المشرق وأمر أحد رجاله بجمعهم وقرأ عليهم كتاباً للخليفة في شأن الصفار والطنين فيه وأنه خارج على الدولة وأنه عزله ، وعمل من هذا الكتاب ثلاثين نسخة ، ودفع إلى أهل كل منطقة صورة من هذا الكتاب إذاعة الأخبار ضده في هذه الآفاق ، وهذه الدعاية سيكون لها تأثير سيئ في حروبه وستكون سبباً في تفريق رجاله عنه ، وهم الذين تجموا أصلاً

(١) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث عام ٢٥٩هـ .

للدفاع عن الخلافة ضد احمـارجين عليها ، وكتاب الخليفة يعلن أنه من اـخارجين على الدولة ، ومن هنا سيضمحل شأنه ^(١) . فلما علم يعقوب بما قامت به الخلافة من دعاية ضـدّه اشتد غيظه وعزم على حرب الدولة في عقر دارها فبدأ يزحف على العراق ، فتقدم إلى الأهواز وأرسل إلى الخلافة يطلب ولاية خراسان وفارس وكل ما كان مضموماً إلى الطاهريين وشرطي بغداد و (سر من رأى) ويعطيه أيضاً ولاية طبرستان وجرجان والري وأذربيجان وقزوین وكرمان وسجستان والسند ، ورأت الخلافة أن تمادنه ريثما تعد عدتها ، فأرسلت إليه تقليداً بولاية خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وتعيينه أميراً على شرطة بغداد وبذلك حققت له جميع مطالبه .

لكن يعقوب أصر على أن يجمع الخليفة الحجاج الذين أعلن نفيهم عزله رعيـايته خروجه إلى الخلافة ، وأن يذيع فيهم كتاباً آخر يعلن رضاه عليه لإبتلال الأثر الذي تركه الكتاب الأول ، وقد أجابه الموفق أحمد إلى ما طلب وكان الأمر بيده .

والسبب في هذا التساهل مع يعقوب أن الدولة كانت تحارب ضد الزنج فكانت راقعة بين قوتين ولم تشأ أن تواجههما في وقت واحد ، وكانت تخشى اتفاقهما عليها ، ولما كان الموفق آخر الخليفة يستعد لقتال صاحب الزنج فإنه بذلك هادن يعقوب ، ليكسب ولاءه وليبعده عن المعركة .

ومن ناحية أخرى شجعت الخلافة قوة موالية لها في إقليم ما وراء النهر الذي كان خاضعاً من قبل لولاة خراسان وجعلت هذا الإقليم إقليماً قائماً بنفسه وعهدت بولايته إلى (نصر بن أحمد الساماني) (٢٦١-٢٧٩هـ) وقد كان السامانيون من قبل عمالاً لبني طاهر ، وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية وراء الصفار تستخدمها عند اللزوم .

(١) ابن خلکان ، وفیات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٤١٢-٤١٣ .

لكن يعقرب غره تساهل الدولة معه وبدأ يهاجم جيش الخلافة وواصل زحفه إلى العراق ليرغم الخلافة على الإذعان لقوته ، ويحتل في بغداد مركز الأتراك من قبل عصر الموفق ، واضطرت الخلافة تحت قيادة (الموفق) ، وخرج الخليفة مع الجيش ليحدث وجوده التأثير الروحي على جند الصفارحين يروونه وذلك سنة ٢٦٢هـ^(١). وأحرز الصفار نصراً مبدئياً في المعركة ، لكن هذا النصر ما لبث أن تحول إلى هزيمة ساحقة حين رأى جند الصفار الخليفة على رأس الجيش يحارب يعقوب الذي كان في أول أمره جسدياً مع المتطوعة يحارب الخارجين على الخليفة ، فعند ذلك انضموا إلى الخليفة وحاربوا معه ضد الصفار ومن ثبت معه في القتال ، فانهزم يعقوب تاركاً في الميدان غنائم كثيرة . ولعل السبب في هزيمته أنه جعل الأموال والأسرى معه كثيراً من الأثقال ، ولم يكن على معرفة جيدة بالأماكن التي زحف عليها ودارت بها المعارك وبها كثير من المستنقعات والأفمار ، وسار بجنوده مسافات طويلة ، ولم يرتاحوا بالطريق قبل المعركة وذلك كله بدون أدلة ، بجانب أنه كان يتوهم أن الخليفة لن يحاربه وإنما سترد الرسل عليه لمصالحته^(٢) هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من جنوده انضم إلى جيش الخلافة فأصبحت هذه نكسة كبرى . وأصدرت الخلافة مكتوباً آخر بلغه واعتباره خارجاً على أمير المؤمنين منكرأ للنعم ساعياً في الأرض بالفساد .

وكان من نتائج هذه المعركة تحرير (محمد بن طاهر) من الأسر وتعيينه إلى منصب رئيس شرطة بغداد ، وعاد يعقوب مهزوماً إلى البلاد التي سبق له أن تغلب عليها ، ولما لم تكن الخلافة متفرغة لقتاله فلم تتبعه قواتها وسارت على سياسة الاستمالة كسباً للوقت ، ولم يلبث يعقوب أن مات في سنة ٢٦٥هـ ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٧-٨ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٤١٥ .

وهكذا امتد طموح يعقوب إلى القضاء على الخلافة ومحاربتها بعنف ، وكان هذا هو السبب في قصر أجل هذه الدولة .

وبعد وفاة يعقوب اختار الجند أخاه عمرواً خلفاً له ، وفي سنة ٢٧٠هـ تفرغت الدولة للقضاء عليه بعد القضاء على صاحب الزنج ، فأصدر الخليفة المعتمد قراراً بعزل عمرو الصفار عن البلاد التي ولاه عليها من قبل ، وقلد محمد بن طاهر أمر خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر ^(١) .

وسار الموفق بنفسه إلى قتال عمرو بن الليث في فارس واضطره إلى التقهقر إلى سجستان بعد أن ألحق بقواته الهزيمة ^(٢) ، وعندما تولى المعتضد سنة ٢٧٩هـ حاول عمرو ترضيته فأرسل إليه بالهدايا ومعها كتاب يعلن فيه ولاءه للخلافة ، لكن المعتضد ضرب عمرو بقوة السامانيين النامية في إقليم ما وراء النهر ، فألحقوا بعمرو هزيمة حاسمة سنة ٢٨٧هـ وأسروه وأرسلوه إلى الخليفة الذي سجنه حتى مات في بداية حكم المكتفي ٢٨٩هـ .

وأخذت الخلافة ترسل جيوشها متوالية حتى استطاعت القضاء على بقية الصفاريين وانتهت هذه الدولة بعد أن حكمت نحو ٣٦ سنة على الرغم من قوة جيشها وحسن تدريبه وتسليحه وضبطه ، وذلك لأن الصفاريين اتجهوا إلى محاربة الدولة في الداخل ، وزاد طموحهم لدرجة القضاء على الخلافة ، ووسعوا ملكهم على حساب دولة كانت توالي الخلافة ، وتقوم بمهمة كبيرة في المشرق وهي الدولة الطاهرية .

وهكذا فإن الدولة الصفارية وجهت رماحها إلى صدور المسلمين في داخل الدولة الإسلامية وساهمت في عوامل الفرقة والتمزق ، ومن ثم فهي دولة لم تحقق هدفاً ولا كانت ذات رسالة واضحة في التاريخ الإسلامي .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٦٢ .

الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ) :

قامت هذه الدولة في منطقة ما وراء النهر^(١) ، ولكنها ما لبثت أن امتدت إلى المنطقة الإيرانية ، فبسطت سلطانها على بلاد خراسان وطبرستان والري والجبل وسجستان ، وكانت عاصمتهم في بخارى .

والسامانيون ينتسبون إلى إحدى أسر الفرس التي كان يعمل جدهم كاهناً من كهان (الديانة السمنية) المنتشرة في بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام ، ويطلق على كاهن هذه الديانة "سامان" [وهم ينسبون أنفسهم إلى ملوك الفرس شأنهم في ذلك شأن الأسر الفارسية التي حكمت في إيران] ، وقد ظهر أمر هذه الأسرة في عهد الخليفة المأمون ونالت حظوة كبيرة عنده منذ أن تولى المأمون شئون المشرق ، وكان رأسهم (أسد بن سامان) ، الذي اعتنق واده سامان الإسلام وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في أواخر عهد الأمويين^(٢) ، وقد خنف أسد هذا أربعة أبناء كلهم كانوا في خدمة المأمون وحكاه في هذه البلاد ، فولي (نوح بن أسد) على سمرقند في سنة ٢٠٤هـ و (أحمد بن أسد) على فرغانة و (يحيى بن أسد) على الشاش وأشروسنة ، و (إلياس بن أسد) على هراة ، ولما تولى طاهر بن الحسين على خراسان أقرهم في هذه الأعمال^(٣) .

وظل السامانيون في بلاد ما وراء النهر يتعاونون تعاوناً صادقاً مع الطاهريين ، ويحسون هذا الشغل الشرقي ، كما شاركوا في الصراع الذي قام بين الطاهريين والصفاريين ، وكانوا يشدون أزر الطاهريين الأمر الذي جعل الطاهريين دائماً يقرون

(١) بلاد ما وراء النهر : مصطلح أطلقه المسلمون على منطقة حوض نهر جيحون وسيجون ، وهذه المنطقة خضعت لسيادة القبائل التركية على الرغم من أنها آرية ، وكان جيحون هو الحد الفاصل بين إيران وتوران والاسم الروسي لهذا النهر هو (أمودريا) ، والحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية ، وسمى العرب بلاد ما وراء النهر بلاد الهياطلة أيضاً .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣-٤ ، وحسن إبراهيم ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣-٤ .

السامانيين في بلاد ما وراء النهر ، ولما ضعف أمر الدولة الطاهرية واستولى الصفاريون على إقليم خراسان ، قدرت الخلافة للسامانيين إخلاصهم ، فجعلت بلاد ما وراء النهر إقليماً منفصلاً عن خراسان وأقرت عليه السامانيين ، وعينت عليه (نصر بن أحمد الساماني سنة ٢٦١هـ) وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية لها وراء الصفار ، وكان السامانيون يسدون هذا الثغر من ناحية الشرق ويمدون من نفوذ العالم الإسلامي في جبهتهم .

وابتداء من ولاية السامانيين على بلاد ما وراء النهر أخذت ظاهرة انسياح الأتراك في خراسان والدولة الإسلامية تزداد فكان الأتراك يؤلفون حرس إمارة بخارى ، وكان يتم استخدامهم على نطاق واسع ، وكانوا يبلغون مراكز قيادية في الدولة الإسلامية ، وفي عهد المأمون كان أمير خراسان من الطاهريين يقدم لحكومة بغداد ضريبة على شكل ألقم مملوك تركي ، والذين كانوا يشكلون حرس الخليفة الشخصي ، ولكن قيادة هذا الحرس لم يعهد بها للأتراك في عهد المأمون ولكن ارتقى بعضهم في عهد أخيه المعتصم لرتبة القيادة ، وكان (أحمد بن طولون) ابناً لمملوك تركي قدم من بخارى واستطاع أن يؤسس أسرة حاكمة في مصر ، أما (الإخشيد) وهو عبد تركي من فرغانة فقد تمكن من أن يصبح بدوره مؤسس أسرة في مصر في سنة ٣٢٣هـ^(١) وكان يقوم أساس ثروة المدن السامانية الكبرى على تجارة الرقيق ، مثل (مرو) و (نيسابور) و (الري) و (بلخ) و (بخارى) و (سمرقند) ، والتي كانت تتاجر برقيق الصقالبة الذين كانوا يجلبون إليها عن طريق خوارزم ، والرقيق الهنود عن طريق كابل ، ولا سيما الرقيق الترك الذين كانوا يجلبون بواسطة ثغور الحدود ، وكان يعاد بيع الكثير من هؤلاء العبيد بعج خصيمهم أو بعد تدريبهم عسكرياً^(٢) .

(١) موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، ص ٧١ من الترجمة العربية لعبد الرحمن حميده .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١ .

علاقة السامانيين بالخلافة :

والدولة السامانية تختلف في الطبيعة والتكوين عن الدولة الصفارية ، فإذا كانت الدولة الصفارية دولة أسرة عسكرية طامعة في الرياسة والأموال فحسب ، فإن الدولة السامانية كانت دولة إيرانية الروح والاتجاه ، فإن سلاطينها كانوا يزعمون أنهم من أصل إيراني عريق ، وينسبون أنفسهم إلى (بهرام جور) ملك فارس الساساني، وهو أمر معروف مغزاه بطبيعة الحال، وهو أن لهم حقاً في وراثة الملك، وهو ما يقولون عنه بأنه الحق المقدس لهذا النسل في الحكم وليس لأحد أن ينازعهم في هذا الحق . ومن ثم كان للسامانيين إحساس إيراني واضح ، فقد جعلوا الفارسية لغة لهم وناصروا الأدب الإيراني، ولكن اللغة العربية كانت لغة الفكر في عصرهم، وبها كتب المفكرون الذين ظهوروا في عصرهم وعاشوا في ظلهم، وعاشوا على أموالهم ، وأكبرهم (أبو بكر الرازي) الطبيب ، و (ابن سينا) ولكن الأدب الفارسي ظهر في أيامهم ، فتمسك عاشر في ظلهم (الفردوسي) ^(١) ، ولهم ألف الشاهنامه بالفارسية وبالفارسية أيضاً كتب (البلعمي) صاحب مختصر تاريخ الطبري ^(٢) .

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على المودة والسامانيون لم يستجھوا بأطماعهم إلى البلاد الداخلية في العالم الإسلامي كما فعل الصفاريون ، وإنما امتدوا بنشاطهم إلى المجال الخارجي في الشغل التركي إلى أواسط آسيا ، أما امتداد سلطتهم إلى الداخل فلم يكن دافعه الطمع وإنما كانوا في الحقيقة يسدون فراغاً حدث على إثر ضعف الطاهريين ، وكانت كل قوتهم مركزة في التركستان وفي

(١) هو حكيم فارسي كان من دهاقين طوس ، له ملك في ضيعة ويظلمه عامل الضيعة ، فذهب إلى السلطان محمود بن سبكتكين (الغزنوي) لدفع ظلم العامل ، وانتهى به الأمر إلى أن ينظم له "الشاهنامه" في سبعين ألف بيت بالفارسية في تاريخ ملوك الفرس ، مشتملاً على الحكم والمواعظ بعبارة فصيحة ، فكافاه عليها ، وقيل أنه نظم بعضها للسامانيين (الغزنوي ، آثار البلاد، ص ٤١٥-٤١٧) .

(٢) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ص ٢٣٢-٢٣٣ .

أواسط آسيا ، واستطاعوا أن ينشروا الحضارة الإسلامية والإسلام في تلك البلاد الوثنية ، فدخل على أيديهم عدد كبير في الإسلام ، فصارت تركستان سندا للإسلام بعد أن كانت مصدر خطر عليه .

وكان السامانيون يدخلون الحرب مع جيرانهم من المسلمين مضطرين إما دفاعاً عن أنفسهم أو دفاعاً عن مصلحة الخلافة وحفاظاً على أملاكها ، ويتبين هذا واضحاً من العلاقات بين السامانيين والصفاريين ، وبينهم وبين العلويين في طبرستان .

فأما علاقتهم بالصفاريين : فإن عمرو بن الليث الصفار بعد أن ولته الخلافة على خراسان طمع في بلاد ما وراء النهر ، وطلب من الخليفة ولايتها ، فأجابته الخلافة مضطرة إلى ذلك وكان بها السامانيون ، فلم يترك عمرو السامانيين بها كما كان يفعل الطاهريون ، وإنما سار إليها ليأخذها منهم بالقوة وكان عليها (إسماعيل بن أحمد الساماني ٢٧٩-٢٩٥هـ) ، فأرسل إليه إسماعيل في سنة ٢٨٧هـ يقول له :

"إنك وليت دُنيا عريضة ، وإنما في يائي ما وراء النهر وأنا في ثغر ، فاقنع بما في يديك واتركني في هذا الثغر ^(١) ولكن عمرو بن الليث رفض وسار إليه بتواته فهزمه إسماعيل وأسرّه في سنة (٢٨٧هـ) وأرسله إلى دار الخلافة حيث حبس حتى مات سنة ٢٨٩هـ ، وبهذا سقطت الدولة الصفارية وعهدت الخلافة إلى إسماعيل بن أحمد الساماني بولاية ما كان في يد الصفار .

وأما علاقة السامانيين بالعلويين : في طبرستان فإن (محمد بن زيد العلوي) طمع في خراسان بعد أسر عمرو الصفار فنهاه إسماعيل وترك له جرجان علي ألا يتقدم نحو خراسان ، ولما أبي إلا العداء سار إليه إسماعيل وقتله سنة ٢٨٧هـ واستولي علي طبرستان وضم قزوين والري ، وبذلك أعاد طبرستان إلى أملاك الدولة العباسية ^(٢) حتى سنة ٣١١هـ .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٨ .

وغدت بخاري في الراقع هي حاضرة المشرق بأسره في مرو ونيسابور والري وآمل وقزوين وأصفهان وشيراز وهراة وبلخ ، وبدأ إسماعيل على توحيد بلاد ما وراء النهر مع خراسان ونجح بسبب ما كان يتمتع به من ملكات إدارية ، وبفضل انتصاراته الحربية ، وظهر اتحاد هذه الولايات المشرقية أشد رسوخاً مما كانت عليه من قبل واستمر هذا الاتحاد نحو قرن من الزمان .

وإن بخارى التي اشتهرت أيام الزرادشتيين بأنها "مناجاة العلوم كلها" اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم في ظل الإسلام وسرعان ما أصبحت تعرف باسم "بخارى الشريفة التقية" وكان النشاط العقلي السائد في ذلك الوقت وقفاً على علوم الدين والذي كان البخاري شيخ المحدثين المسلمين من أعظم رجالها (٢٥٦هـ) . ولما كان إسماعيل بن أحمد معروفاً بالتقوى ، ورعاية العلماء ، فإن كثيراً من العلماء توجهوا إلى بخارى ليستكملوا دراستهم في مدرسة بخارى التي تذر بالعلوم والمدارس التي أوقف عليها إسماعيل ومن أتى بعده الأوقاف^(١) .

ولم يلبث الشعور القومي الفارسي أن نما في ظل السامانيين وخطا أول خطوة لإحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد ، وانتعش اللسان الفارسي الذي كان في طريقه إلى الزوال بعد مضي أكثر من قرنين من الزمان ، وظهر الأدب الفارسي في أيامهم مكتوباً بالحروف العربية ، ظهر الشاعر الفردوسي الذي كتب الشاهنامه في سبعين ألف بيت في تاريخ ملوك الفرس^(٢) بالفارسية ، وبالفارسية اختصر البلعمي^(٣) تاريخ الطبري ، لكن العربية ظلت لغة الفكر في عصرهم كتب بها الرازي وابن سينا وغيرهم .

وظل السامانيون مخلصين للخلافة العباسية حتى كان العصر البويهى (٣٣٤-٤٤٧هـ) فطمع البويهيون في البلاد التي في أيدي السامانيين ، فاشتبك الطرفان

(١) أرمينيوس ، تاريخ بخارى ، ص ١٠٦ .

(٢) القزويني ، آثار البلاد ، ص ٤١٥-٤١٧ .

(٣) هو محمد بن عبيد الله البلعمي كان وزيراً لنصر بن أحمد الساماني .

في حروب من سنة ٣٥٦ هـ إلى سنة ٣٦١ هـ وانتهت. بصالح بين الأمير (منصور الأول بن نوح الساماني) وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة بن بويه ، ثم تصاهر البيتان وتزوج ابن منصور بابنة عضد الدولة ، وبذلك استقر السلام بين الطرفين^(١). وقد تعرضت الدولة السامانية لضغط متزايد من كل الجهات فمن الشمال والغرب تعرضت لضغط الديلم والعلويين والبويهيين ، ومن الشرق تعرضت لضغط خانات الأتراك الذين دخلوا الإسلام على يد السامانيين ، ثم بدأوا يتطلعون إلى الاستقلال والحلول محلهم ، كما تطلع (الغزنويون) الذين كانوا يحكمون المنطقة الجنوبية الشرقية من طرف السامانيين إلى الحلول محل السامانيين بعد أن بدأت أمورهم تضطرب ، وانتهى الأمر بسقوط الدولة السامانية (٣٨٩ هـ) . وانقسم ملكها إلى قوتين : قوة الغزنويين : التي اتخذت من الثغر الهندي مجاًلاً لنشاطها ، وقوة خانات الأتراك الذين تولوا أمر الثغر الشرقي في بلاد ما وراء النهر، وهما من أسرتين تركيتين .

ولقد أدى السامانيون دورهم من الناحيتين السياسية والحضارية ، أما من الناحية السياسية : فقد حافظوا على إقليم ما وراء النهر ومدوا النفوذ الإسلامي إلى بلاد الترك ، وجعلوا من بيئة ما وراء النهر بيئة صقل وتغذيب للعنصر التركي الذي أسلم منه على أيديهم الكثير ، وبدأ يتحول على أيديهم إلى عنصر مفيد بالنسبة للعالم الإسلامي . وانتش من ذلك الدور الذي قُيأ للترك لخدمة العالم الإسلامي في العصر السلجوقي ، والذي سنتحدث عنه فيما بعد .

أما في المجال الحضاري : فقد أقام السامانيون في عصرهم مراكز ثقافية في إقليم ما وراء النهر في (سمرقند) و (بخارى) و (طشقند) وغيرها من مدن ما وراء

■

(١) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٨ .

النهر ، وكانت هذه المراكز الثقافية عاملاً هاماً في صبغ الترك بالصبغة الإسلامية وتهيئتهم للقيام بدور فعال لصالح العالم الإسلامي في الداخل والخارج .

وكان بلاط السامانيين في بخارى محط رحال العلماء والأدباء ، وكانت لهم (دار الكتب) في بخارى فيها كثير من فروع المعرفة قال عنها ابن سينا بأنها :

"ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة (بعضها على بعض) في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيت من قبل ، ولا رأيت أيضاً من بعد ، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه " (١) .

وقال ابن خلكان عن هذه المكتبة : "كانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا يُسمع باسمه فضلاً عن معرفته " (٢) .

وقال المقدسي عن إقليم ما وراء النهر في عهدهم :

"إنه أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير وستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقيه درجة الملوك (٣) وإن كان المقدسي (٤) لا يفرق بين خراسان وما وراء النهر ويطلق على الإقليمين معاً إقليم المشرق ، فكلامه هنا يشمل خراسان وما وراء النهر في عصر السامانيين .

(١) طبقات الأطباء ، ٢/٢ ، وأحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٥٧-١٥٩ في ترجمة ابن سينا واسمه الحسين بن عبد الله بن سينا ، وكان من أهل بلخ انتقل أبوه إلى بخارى واشتغل بالعلوم وتحصيلها .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢٩٤ وما بعدها ، وأحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٤) المقدسي الجغرافي هو محمد بن أحمد الخوافي ٣٨٠ هـ .

وقد أخرجت هذه البلاد ما لا يحصى من رجال الحديث والفقه في عصر السامانيين خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصي البلدان يأخذون العلم من أهله حيث كان ، وكان على رأس هؤلاء الإمام البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري) (٢٥٦هـ) والإمام مسلم وهو (مسلم بن الحجاج القشيري) (٢٦١هـ) وهو من نيسابور ، والإمام النسائي (أحمد بن علي بن شعيب النسائي) (٣٠٣هـ) وهو من نسا من أعمال خراسان ، وابن ماجه محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (٢٧٥هـ) من قزوين في طبرستان وأبو داود (سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني) (٢٧٥هـ) والترمذي (محمد بن عيسى السلمي الترمذي) (٢٧٩هـ) من ترمذ من بلاد نهر جيحون .

وهكذا كلما قرأت في كتب المحدثين والفقهاء راعتك كثرة ما ترى منهم ودلالة نسبتهم عليهم : كالبخاري والفارابي والخوانساري والترمذي والنسائي والسمرقندي والشاشي والنيسابوري والهروي والفرغاني والزمخشري (زمخشري قرية جامعة من قرى نواح خوارزم) والبيهقي والدبوسي (ت ٤٣٠هـ) وغيرهم .

التقاليد العسكرية السامانية :

يرجع الفضل في إنشاء نظام عسكري وتربوي للمالِك الأتراك إلى الدولة السامانية ، فقد اعتمدت الدولة السامانية على المالِك الأتراك في جيشها على الرغم من أصلها الفارسي ، ووضعت لهم نظاماً عسكرياً إسلامياً يقوم على التدرج والترتيب في تنشئتهم من أجل اكتساب الخبرة اللازمة في شئون الحرب .

ويحدثنا الوزير نظام الملك الطوسي في كتابه "سياست نامه" (كتاب السياسة)

عن هذا النظام العسكري فيقول :

"إن القاعدة المتبعة في تدريب المالِك في عهد السامانيين أنهم يرقون تدريجياً

بناء على خدمتهم ولياقتهم وفضلهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه .

بحيث أنهم إذا ابتاعوا مملوكاً استخدموه في الركاب سنة وهو راجل فيسير مرتدياً قباء من القطن يسمى زندنجي^(١) بجوار سيده الممتطي صهوة جواده ، ولم يكن يؤذن لهذا المملوك في ركوب الخيل طوال تلك السنة إن سراً وإن جهراً ، فإذا نما إلى علمهم أنه يفعل ذلك عوقب ، فإذا أتم المملوك عامه الأول على هذا النحو أخبر عريف الدار بذلك الحاجب .

حينئذ يعطونه في العام الثاني قباء وجواداً تركياً له سرج من جلد خام ولجام من معدن .

وفي السنة الثالثة يقلدونه سيفاً معقوفاً يشده إلى وسطه .

وفي السنة الرابعة يمنح قوساً وكنانة يشدها إذا ركب .

وفي العام الخامس يمنح سرجاً أجمل ولجاماً مزيناً بنجوم وكواكب ويخلعون عليه رداء من القطن المخلوط بالحرير يسمى "القباء الداري"^(٢) وشده إلى حلقة سرجه دبوساً .

وفي السنة السادسة أمروه بالسقاية مع صاحب الخيل وشده إلى وسطه قدحاً .

وفي السنة السابعة يمنح ثياباً أفخم تسمى ثياب الشرف .

وفي السنة الثامنة يمنح خيمة ذات ستة عشر وتداً ، ويعطونه ثلاثة من الممالك ممن اشتروهم حديثاً ، وعندئذ يستحق لقب "عريف الغلمان" ويرتدي قلنسوة من لبد أسود موشى بالفضة ، ويخلعون عليه قباء أفضل من الحرير يسمى "القباء الكنجوي"^(٣) .

(١) الزندنجي : قماش من قطن ينسج في زندنه وهي مدينة من أعمال بخارى مشهورة بالملابس القطنية ، سياسة نامه ، ص ١٤١ لنظام الملك ، ترجمة د. السيد محمد العزاوي .

(٢) الداري : قماش من القطن المخلوط بالحرير .

(٣) نسبة إلى كنجه في إقليم شيروان على ساحل بحر قزوين ، بجمهورية أذربيجان الآن ، وكانت مركزاً لتجارة الحرير ، (العبادي ، ص ١٥٥) .

ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقى عاماً بعد عام ، وتزداد حاشيته تدريجياً
 ويزداد جاهه إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل وحاجب الحجاب .
 ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من
 الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج ، وسن التزوج في العادة
 هو سن الخامسة والثلاثين ^(١) .

ويلاحظ أن هذا النظام التربوي العسكري الساماني كان الأساس الذي سار
 على منهجه بعد ذلك عدد كبير من الدول الإسلامية مثل الدولة الغزنوية والدولة
 السلجوقية وكان نظام الملك الطوسي وزيراً للسلاجقة في عهد السلطان ملكشاه
 وكتب له كتابه (سياست نامه) سنة ٤٨٤هـ باللغة الفارسية على هيئة نصائح وحثه
 على الأخذ بنظام السامانيين في بناء الجيش ^(٢) وما كان متبعاً على أيامهم في تنشئة
 المماليك تنشئة عسكرية قاسية ، وظل هذا النظام متبعاً أيام السلاجقة والأتابكة
 والأيوبيين الذين نقلوه إلى مصر والشام ، وزاد فيه (الصالح نجم الدين أيوب) آخر
 السلاطين الأيوبيين في مصر ، وتمخض عن قيام دولة المماليك المصرية الذي تبلور
 وازدهر فيها النظام بشكل راسخ متين مكنها من صد الزحف المغولي ، والانتصار
 على المستعمر الصليبي ^(٣) .

ولقد كان لهذا النظام العسكري أثره في الحياة المصرية في شتى المجالات ،
 وظل هذا الأثر إلى العصر الحاضر وكان يلاحظ في شئون الزراعة لدى الباشاوات
 الذين هم من أصل مملوكي أو تركي .

(١) نظام الملك ، سياست نامه ، ترجمة د. السيد محمد الغزالي ، ص ١٤٠-١٤١ وأحمد مختار العبادي ، ص
 ١٥٤-١٥٥ .

(٢) انظر أيضاً في نظام نشأة المماليك في بلاط السامانيين كتاب : بارثولم : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو
 المغولي ، ص ٣٥٥ نقله إلى العربية من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ١٤٠١ . (١٩٨١م) .

(٣) أحمد مختار العبادي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥

الدولة الطبرية الزيدية (٢٥٠-٣١٦هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى إقليم جغرافي هو طبرستان ، وإلى مذهب من المذاهب الشيعية وهو المذهب الزيدي .

أما نسبتها إلى طبرستان : فترجع إلى قيام الدولة والحركة الزيدية في هذه المناطق الجبلية المنيعّة التي تقع جنوب شرق بحر قزوين ، وتفصل هضبة إيران العالية عن بحر قزوين ، و (طبر) في لغة تلك البلاد معناها الجبل ، و(ستان) بلاد ، فطبرستان بذلك معناها : بلاد الجبل ، ويطلق على هذا الإقليم أيضاً ألبُرز^(١) ومعناها في الفارسية الجبل العالي ، ويطلق على هذا الإقليم أيضاً اسم (مازندان) ، وقمم جباله لا يفارقها الثلج في جميع فصول السنة .

وكان هذا الإقليم آخر جزء من أجزاء الدولة الساسانية قبل الإسلام ديناً ، وقد بدأ اتصال المسلمين به منذ خلافة عثمان بن عفان ، وظل ملوك هذا الإقليم مستقلين في بلادهم زمناً طويلاً ، ويضربون نقودهم ويمنحون الرموز الفهلوية حتى منتصف المائة الثانية ، كما ظل الدين الجوسي يهيمن على غابات الجبال في هذا الإقليم ، وعاصمة هذا الإقليم (آمل) وهي التي ولد بها المؤرخ الكبير (محمد بن جرير الطبري)^(٢) .

وأما نسبتها إلى الزيدية : فترجع إلى أن هذه الدولة كانت تحت زعامة أئمة الزيدية ، فقد بدأ أهالي هذا الإقليم يدخلون الإسلام على المذهب الزيدي في إقليم طبرستان إلى هذه الفترة المبكرة من دخولهم الإسلام وذلك عندما فر (يحيى بن عبد الله بن الحسين) أخو محمد النفس الزكية من وجه العباسيين عقب معركة فخ

(١) يلاحظ التقارب اللفظي بين لفظة (ألبُرز) هذه ولفظة (ألبُرت) التي تطلق على جبال البرانس بين فرنسا وألمانيا ؛ يدل على أن أصلهما واحد .

(٢) باقرت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٧-٥٨ ، وانظر أيضاً : كي - لوتنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٠-٤١٧ ، وحسن محمود : ص ٤٨١ .

سنة ١٦٩هـ- إلى منطقة طبرستان ، ومنذ هذا التاريخ بدأ الإسلام يدخل هذه البلاد على يد الشيعة الزيدية .

وظلت منطقة طبرستان وبجوارها منطقة الديلم قبله لهجرات الزيدية إليها ، وصار أهل هذه النواحي يدافعون عن المبادئ الشيعية بصفة عامة وعن مبادئ الزيدية بصفة خاصة وقد وجد الزيدية في جبال طبرستان المنية ملجأ لهم فلم يستطع الطاهريون والسامانيون والصفاريون إلحاق هزيمة حاسمة بهم ^(١) .

والزيدية (هم أتباع زيد ^(٢) بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يقولون بأن الإمامة في أولاد فاطمة بصفة عامة ، فكل فاطمي عالم شجاع سخي خرج يطلب الإمامة ، فطاعته واجبة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين، وعلى هذا جوزوا إمامة محمد وإبراهيم إبننا عبد الله بن الحسن الذين خرجا أيام المنصور وقتلا كما جوزوا إمامة أخيهما يعي الذي فر إلى طبرستان وهو يحيي سالف الذكر وجوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الشروط ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة .

والزيدية لا يتبرأون من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر مع قولهم بأن علياً أفضل منهما ، أي أنهم يميزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل على عكس الإسماعيلية والإثني عشرية فهم يرفضون إمامة الشيخين .

وفي منتصف القرن الثالث الهجري أضحت بلاد طبرستان والديلم ^(٣) شيعة زيدية يدافعون عن دعاة الزيدية ، ولم يبق أمامهم إلا أن يختاروا أحد العلويين ليكون

(١) كي لسترنج ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٤ / ٤١٧ .

(٢) قتل (زيد بن علي) بالكوفة عندما خرج على الأمويين سنة ١٢٢هـ . ثم قتل ابنه يحيى بالرقي سنة ١٢٥هـ ويذكر القزويني أن أهل الرقي من الشيعة يكرهون هرسورين لأن جثة يحيى بن زيد غسلت فيه فلا يقرهونه وقيل غسل فيه السيف الذي قتل به يحيى .

(٣) بلاد الديلم في جنوب بحر قزوين وتعرف ببلاد جيلان وطالقان واشتهرت هذه البلاد في التاريخ بكونها موطن بني بويه الديلمية وقد تأثر هذا الإقليم بالزيدية، ويقع في شرقه إقليم طبرستان وفي المائة الرابعة=

إمامهم ورئيساً لحركتهم فاتصلوا بالعلويين الموجودين (بالري) ^(١) فنهض لرياستهم علوي من الري هو (الحسن بن زيد) بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ويعرف بالداعي العلوي ، فرأس ثورتهم ، وقامت بثورته هذه دولة زيدية في طبرستان تعرف بالدولة الطبرية الزيدية سنة ٢٥٠هـ .

واستطاع الحسن بن زيد هذا أن يحتل مدينة (آمل) عاصمة طبرستان ثم مدينة (سارية) وانضم إليه أهل جبال طبرستان وما يليها من بلاد الديلم ، وما زال يتوسع حتى ضم إليه (قزوين) أيضاً و (جرجان) ، وكان العلويون مبشرين في هذه المناطق ، وكانوا يظهرون عندما تتقدم الجيوش الطبرية وبذلك تقع القوات الطاهرية بين نارين فتضطر إلى التراجع ، وقد أقام الزيدية كثيراً من القلاع المنيعة بهذه الجبال العالية .

ولم يستطع الطاهريون أصحاب الشأن في هذه المناطق أن يتصدوا لهذه الدولة الناشئة ، وذلك لأنهم ما كهم بدفع الخطر الصفاري ، كما أن الخلافة كانت مشغولة بحركة الزنج ، فلم تكن في إمكان الخلافة أن ترسل قوات قوية لمساعدة الطاهريين أو القضاء على الحركة الزيدية .

وقد توفي الحسن بن زيد سنة ٢٧٠هـ بعد أن تدعمت دولته وخلفه أخوه (محمد بن زيد) ، وفي عهد محمد واجهت الدولة الطبرية عداء الصفاريين وأطماعهم من الجنوب كما واجهت الدولة السامانية من الشمال والشرق ، ولما نجح (إسماعيل بن أحمد الساماني) في القضاء على (عمرو بن الليث الصفار) سنة ٢٨٧هـ وأسرته وبعث به إلى الخليفة طمع محمد بن زيد في خراسان ، فنهاه عنها إسماعيل وترك له

= أصبحت أقاليم طبرستان وجرجان وقومس داخلية ضمن إقليم الديلم ، وقصبة بلاد الديلم (روذربار) أو (براون) ولا أثر لها الآن (كمي لسترنج) .

(١) الري عاصمة إقليم الجبال في إيران وكانت على مقربة من طهران الحالية وزارها ياقوت سنة ٦١٧هـ فرآها قد ضرمها المغول ، ويذكر أن أهلها كان نصفهم شيعة والباقي سنة وكانت الحروب دائمة بين أهلها بسبب ذلك ، ولما خربوا المغول، قامت على مقربة منها طهران وأخذت مكانها ، وكانت قبل أن تصبح عاصمة للقباج قرية من قرى الري .

جرجان : فلم يقبل محمد بن زيد فوقعت الحرب بينهما ، وقتل على أثرها محمد بن زيد سنة ٢٨٧هـ و صارت طبرستان وجرجان مرة أخرى في ملك السامانيين حتى سنة ٣٠١هـ .

وقد نجا من المعركة التي قتله فيها محمد بن زيد شخص من أهل بيته يسمى (الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر) بن زيد العابدين ، ويلقب (بالناصر) ويعرف (بالحسن الأطروش^(١)) ، وقد تركزت جهود العباسيين وأنصارهم بعد سقوط الدولة الطبرية على تعقب الناصر ومطاردته ولكنه نجح في الإفلات منهم إلى بلاد الديلم ومنها قاد عدة حملات عسكرية تهدف إلى استعادة طبرستان ، وتصور المصادر الإسلامية الحسن الأطروش في صورة الرائد الأول الذي نشر الإسلام بين الديلم^(٢) ويبدو أن المصادر الإسلامية أعطته هذا الدور نظراً للأعداد الهائلة التي انتقلت الإسلام بفضل جهوده ، وهذا لا يتفي بالضرورة جهود السابقين له في مجال نشر الإسلام^(٣) ، وقد مكث الحسن الأطروش ١٣ سنة يجاهد في بلاد الديلم وطبرستان ويعيد تجميع الزيدية من جديد ويدعو إلى الإسلام في هذه المناطق ، فاجتمع حوله خلق كثير وبني فيهم المساجد وقري شأنه بهم فدخل بهم في صراع مع عامل الدولة السامانية ، وبعد محروب طويلة وكفاح نجح بفضل شجاعتهم في إعادة طبرستان إلى الزيدية مرة أخرى سنة ٣٠١هـ وشيد بها كثيراً من القلاع المنيع .

ويثني الحسن الأطروش على (شجاعة الديلم) وقوة عقيدتهم وحماسهم وإقدامهم لنصرة الإسلام فيقول في إحدى خطبه :

(١) يقال إنه لقب بالأطروش لأنه كان قليل السمع أي أنه كان يعاني من ضعف سمعه . (د. حسين مؤنس - من مقال له في مجلة أكتوبر حول تنقية أصول التاريخ الإسلامي، رقم ١٩ ضمن سلسلة مقالات ، العدد ٦٧٠ ، الأحد ٢٧ أغسطس آب ١٩٨٩ م .

(٢) المسعودي ، ج ٤ ، ص ٣٧٣-٣٧٥ .

(٣) حامد غنيم ، انتشار الإسلام حول بحر قزوين ، ص ١٢٩-١٣٠ .

ثم قاموا بنصري وناصروا آباءهم وأبناءهم وأكابرهم الحرب في هواي واتباع أمري في نصرة الحق وأهله ، لا يولي أحد منهم عن عدوه ولا يعرف غير الإقدام ، فلو لقيت منهم ألف جريح لم تر مجروحاً في قفاه وظهره ، وإنما جراحهم في وجوههم وأقدامهم ، يرون الفرار من الزحف إذا كان معي كفراً ، والقتل شهادة وغنائماً^(١) .
وتوفي الحسن الأطروش سنة ٣٠٤هـ وظلت الإمامة في عقبه حتى سنة ٣١٦هـ .

الدولة الزيارية : وآل الحكم بعد سنة ٣١٦هـ إلى دولة زيدية لا إمام لها وهي الدولة الريارية التي أسسها (مرداويج بن زير) سنة ٣١٦هـ ، والياً على الكرخ الواقعة في جنوب همدان ، وكان بويه والد على رئيس قبيلة مقاتلة في جبال الديلم ، وفي سنة ٣١٨هـ التحق بخدمة مرداويج^(٢) .

وكان الدور الذي قامت به الدولة الزيارية يختلف عن الدور الذي قامت به الدولة الطبرية ، فإن الدولة الطبرية كانت دولة زيدية غير معترفة بالخلافة العباسية ، ولهذا فإنها اقتطعت لنفسها قطعة من الأرض وأزست فيها قاعدة الهجرة الديلمية في الشمال وأنشأت حكومة قوية تشمل طبرستان وجرجان والديلم ودافعت عنها ضد الخلافة العباسية أو القوات الموالية لها من الطاهريين ثم السامانيين^(٣) ، فكانت لذلك علاقتها بالدولة العباسية علاقة عدا ، أما الدولة الزيارية فإن دورها كان عبارة عن توسيع هذه القاعدة ، فمدت خط الهجرة الديلمية نحو الجنوب واستولت على أصفهان والري ونهاوند وهمدان ، وهذا الإقليم هو المعروف بإقليم الجبل أو الجبال ، ومع كونها دولة شيعية زيدية المذهب ، إلا أنها استغنت عن الإمامة الزيدية ، واتصلت بالخلافة العباسية واعترفت بها ، وقبلت التقليد من الخليفة العباسي .

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٢) ينحدر مرداويج من أسرة حاكمة قديمة في هذه المنطقة .

(٣) ابن مندوت ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٩-٣٤ .

والدولة الزيارية هي التي مهدت تمهيداً قوياً لامتداد الهجرة الديلمية إلى مركز العالم الإسلامي بالعراق ، وهي الهجرة التي تولاهما البويهيون ، فإن الدولة البويهية التي تفرعت عن الزيارية هي التي تقدمت بأمواج الهجرة نحو الجنوب ^(١) .

وبعد القضاء على الدولة الزيارية سنة ٤٧٠هـ في طبرستان والديلم استولى على كثير من قلاعهم الحسن الصباح من الإسماعيلية وكانت نحو خمسين قلعة على قمم الجبال وأمنعها قلعة (ألموت) وهي عاصمتهم وقد خربها المغول واتخذها الصفويون في القرن العاشر الهجري سجناً في أيام سليمان الصفوي ، و(قلعة ألموت) على ستة فراسخ من قزوین وفي سنة ٤٨٣هـ صارت ألموت في حوزة (الحسن الصباح) الملقب بشيخ الجبل ، ولبت هذه القلعة بعد ذلك مائة وإحدى وسبعين سنة أمنع حصون الإسماعيلية ثم استولى هولاكو خان المغول عليها وأمر بتخريبها سنة ٦٥٤هـ وبعد سقوطها سرعان ما انهارت مقاومة قلاع الحشيشية الواحدة تلو الأخرى ^(٢) .

(١) حسن محمود ، ص ٤٨٦-٤٨٨ .

(٢) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٥٥-٢٥٧ .

المغول (الإلخانيون) في فارس

نشأ المغول في بداية أمرهم كشعب بدوي في منطقة منغوليا وكانوا ينتجعون مواطن الماء والكأ في القسم الشمالى من صحراء غوبى الواقعة في منغوليا ، ويعيشون على الصيد والقنص ويتغذون باللحم ولبن الحيل ، وكانوا في بداية أمرهم خاضعين للصين . حتى ظهر من بينهم قائد قوي هو جنكيزخان المولود في سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٥م .

وترجع قوة جنكيز خان العسكرية الى الجيش الذى كونه بنفسه وقضى به على الثورات الداخلية خلال ثلاثين عاما ووطد حكمه في قبائله والقبائل المجاورة حتى بسط سلاطانه على جميع القبائل القاطنة شمالى صحراء غوبى في أقصى شرق منغوليا ونصب نفسه " الملائك الأعظم " أو " ملك الملوك " سنة ٦٠٢هـ - (١٢٠٦م) في مجلس رؤساء القبائل ، في (قره قرزم) عاصمة المغول ومعناها " الرمال السوداء " وذكر أن السماء هى التى أضفت عليه هذا الاسم ، وكان اسمه قبل ذلك " تموجين " وكان يومئذ في الواحدة والخمسين من عمره و وضع لشعبه دستوره المعروف (باليساق) .

وفي سنة ٦٠٧هـ - (١٢١١م) شرع في فتح الصين ، وبعد فتح الصين انطلقوا لفتح تركستان الشرقية وأصبحوا على حدود دولة خوارزمشاه الإسلامية القوية التى تعرضت بدورها لهجماتهم وتبين أنهم أضعف من المغول ، ثم انطلقوا إلى خراسان وأفغانستان وأذربيجان والكرج وجنوب روسيا .

وفي أثناء هذه الفتوح توفى جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ - / ١٢٢٧م عن اثنين وسبعين عاما ، وكان قد وزع على أولاده الأقاليم التى فتحها وعين عليهم ابنه الثالث أوكتاى أو (أوغداى في نطق آخر) خانا أعظم مكان والده .

وقد عرف تاريخ آسيا أربع إمبراطوريات مغولية كبرى هي: المعروفة بإمبراطوريات بلاد الأعشاب :

الأولى : هي إمبراطورية جنكيزخان سالفة الذكر التي نشأت في صحراء جوبي والأراضي الممتدة منها إلى صحراء منغوليا ثم غزا بلاد الصين وأتجه إلى منطقة خوارزم الإسلامية .

الثانية : إمبراطورية مغول القبلية الذهبية أو مغول القفجاق والفلجا .

الثالثة : إمبراطورية قوبلاي خان في بلاد الصين وكان بها الخان الأعظم ، ومنها أنطلق (هولاكو) وغزا بغداد وأزال الخلافة العباسية وأنشأ إيلخانية فارس وتقدم شرقاً فغزا حلب وشمال الشام وخرب دمشق ولكن قائده كتبغا إهزم أمام قوات المماليك في معركة (عين جالوت) سنة ١٢٦٠م .

الرابعة : إمبراطورية تيمورلنك وسمى التي قامت سنة ١٣٦٠م وهو يزعم أنه حفيد جنكيزخان وكان مسلماً إماماً ظاهرياً ولكنه كان على طريقة جنكيز خان في الإرهاب والتدمير وغزا الدولة العثمانية وغزا الهند أيضاً وبلاد إيران^(١) .

وإذا كان المغول قد غلبوا العالم الإسلامي عسكرياً فإن المسلمين غلبوهم عقائدياً وحضارياً وتلقف المغول الإسلام وخدموه بعدئذ أذلوهم، لكن هذا أخذ وقتاً طويلاً وجهداً من دعاة المسلمين وتنافس أتباع الديانتين المسيحية والإسلامية في اجتذاب المغول إلى دينهم ولما هذأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالوثنية وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى .

يطلق على كل حاكم من حكام المغول في إيران (إيلخان) ، وتدل على أن حاملها داخل في الطاعة التامة للقاآنات ومدين لهم بالولاء ، وقيل للأسره كسلها

(١) دكتور حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص ٢٤١ .

"الإيلخانيون" ، وتنسب إلى مؤسسها أحياناً فيقال "هولاكيون"

وكانت الإمبراطورية التي أسسها هولاكو تضم بجانب العراق وإيران إمارات الجزيرة والأناضول والممالك المسيحية بجنوب القوقاز في أرمينيا وجورجيا ، وتمتد من نهر جيحون إلى البحر المتوسط ، ومن القوقاز إلى المحيط الهندي ، وقد سمي هولاكو نفسه بالخان الكبير (خاقان بزرگ) ، وحكمت أسرة هولاكو داخل هذه الحدود حكماً مستقلاً استقلالاً تاماً زهاء قرن من الزمان ، وكان الإيلخانيون يحرصون على أن يقتدوا بولادة إيران القدماء في حبههم للعلوم والفنون ، وكان هولاكو يقيم في "تبريز" عاصمته بعد فتحه بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وذلك أن أذربيجان كانت تسكنها قبائل من أصل تركي من قرون مضت قبل الغزو المغولي ، وهذه القبائل تغلغت وسط السكان الأعاجم ، وقدمت ابتداء من القرن التاسع الميلادي الإمدادات العسكرية للخلفاء العباسيين في بغداد ، وكان أكثر من نصف جيش هولاكو يتألف من الأتراك الذين احتذبتهم تلك المنطقة اجتذاباً كلياً ، وأصبحت العاصمة تبريز حيث استقر الخان ، واستفاد الإيلخانيون من العلوم الإسلامية والعربية وذلك بتشجيع هذه العلوم أو على الأقل بعدم وضع العراقيل أمام انتشارها (٢).

ديانة هولاكو وخلفاؤه :

كان هولاكو يميل إلى البوذية ، وقد استقر في بلاط هولاكو عدد من الكهنة البوذيين ، وهذا الدين قد أخفق في مد جذوره وتثبيتها في آسيا الغربية ، لكنه أصبح مألوفاً للمغول في الصين ، ولما كانت زوجة هولاكو قد اعتنقت الديانة المسيحية كان الإيلخان غالباً ما يشترك في الأعياد المسيحية بنفسه ويحضر القداس ، وقد سمح ببناء كنيسة صغيرة في البلاط الملكي ، وأوقف الأوقاف لمصلحة الكنائس ، كما فضل المسيحيين على المسلمين في المعاملة ، وقد تمتعت الطوائف المسيحية الأخرى وهي

(١) لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

(٢) بارتولد ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٥٨ .

أسريان واليعاقبة والأرمن وإلى حد ما الأرثوذكس في جورجيا بعطف الحاكم أيضاً .
فقد تضاعفت أبرشياتهم (كنائسهم) ، وزاد نفوذهم وتعاظم ، وأصبح لهم الحق في
السير في مواكبهم علناً ، وأن يؤسسوا كنائسهم وأديرتهم ويوسعوها ، بينما لم يكن
المسلمون يجاز لهم مثل هذه الأعمال ، وتوفي هولاء سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) .

وقد تنافس المسلمون والمسيحيون لتحويل المغول إلى دينهم ، وكانت عامة
المغول تدين بالديانة الشامانية التي كانوا يعبدون فيها آلهة شريرة ، وكانوا يتقدمون
إليها بالقرابين والضحايا ، رغم اعترافهم في نفس الوقت بآله واحد عظيم قادر لا
يؤدون له الصلوات ، وكانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها
ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم ، ولم يكن دينهم يستطيع مقاومة الإسلام الذي
يملك قوة الإقناع على يد دعاة (١) .

وتنافس أتباع المسيحية والإسلام لتحويل المغول إلى دينهم ، وكان السبق في
البدائية للمسيحية بسبب أن "جنكيز خان" تزوج من إحدى بنات رئيس قبيلة
مسيحية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال ، على حين تزوج ابنه "أقطاي" من نفس
الأسرة ، وكانت القوى المسيحية في الشرق والغرب تتطلع إلى المغول لمساعدتها في
حروبها الصليبية مع المسلمين ، وكان ملك أرمينيا "هيتون Hayton" المسيحي
هو العامل الرئيسي في إقناع المغول بإرسال الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاء
سنة ٦٥٦هـ (١٢٦٥م) ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية
وجورجيا الدين المسيحي ، وتبادل الخان الأعظم والبابا الرسائل الودية ، وكان البابا
يحث زعماء المغول على التحالف من أجل القضاء على الإسلام (٢) .

ولكن ظهور الاختلافات الدينية المسيحية بين اللاتين والإغريق والنسطوريين
والأرمن ، وامتدادها إلى معسكر المغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلاً في إحراز نجاح

(١) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٥٠-٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ ، وبارتولد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨-٥٩ .

أكبر من ذلك النجاح ، وبينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح ، وبينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها ، كان الإسلام يوطد قدمه بين المغول ، وكانت "البوذية" قد أحرزت تقدماً في مجال المغول الذين دخلوا الصين ، وبذلك أخفقت حركة التبشير التي قامت بها الإرساليات المسيحية بين المغول ، هذا بالإضافة إلى سلوك دعاة المسيحية الأخلاقي الذين كانوا يشربون الخمر ويتصفون بالجشع والفسق ، وكان القساوسة يتاجرون بالمناصب الدينية ، ويجمعون الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة ، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين .

وقد ارتفع شأن الشيعة على السنة ، ولم يتورع الشيعة عن الاستفادة من هب بغداد غداة سقوطها في يد المغول ، وذلك لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبين أهل السنة ، وبدأوا يبنون لأنفسهم تنظيمات خاصة ، وينشطون في نشر عقيدتهم بين أهل السنة الذين كانوا يتفوقون عليهم عددياً .

وبعد هولاكو حكم أخوه "أباخان" (٦٦٢-٦٨٠هـ) (١٢٦٥-١٢٨١م) الذي تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية مع أنه لم يتخذ المسيحية ديناً له ، لكن امتلاً بلاطه بالقساوسة من المسيحيين ، وكان يرأس "لويس" ملك فرنسا و "شارل" ملك صقلية ، وغيرهم من المسيحيين يطلب إليهم التحالف معه ضد المسلمين^(١) .

لكن أخاه "تكودار-أحمد" الذي حكم بعده (٦٨٠-٦٨٣هـ) اعتنق الإسلام ، وبعث نبأ إسلامه إلى سلطان مصر المملوكي "المنصور قلاوون" ، والتمس محالفة مصر^(٢) ، وقد قامت ثورة في وجه تكودار أحمد على رأسها ابن أخيه أرغوان الذي دبر قتله ، ثم خلفه على عرش فارس وما حولها ، وفي أثناء حكم أرغوان

(١) توناس أرنولد ، مرجع سبق ذكره ص ٢٦٠ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج ٨ ، ص ٦٥-٦٨ .

(٦٨٣-٦٩٠هـ) استرد المسيحيون مكانتهم ولقي المسلمون الاضطهاد ، ومنعوا من شغل الوظائف الهامة التي كانوا يشغلونها ، وظل خلفاؤه على وثيتهم حتى دخل "غازان" (٦٩٤-٧٠٣هـ) في الدين الإسلامي في سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٥م) وجعله دين الدولة الرسمي في فارس ، فتشجع رجاله واعتنقوا الدين الإسلامي ووزع المنح عليهم وزاد في عدد المساجد ، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي ، ويذكر ابن بطوطة في رحلته أن سيرة ذلك الملك كان لها تأثير كبير في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس وتوابعها ^(١) ، وبقي جميع حكام إيران الذين أتوا بعده من المغول مخلصين لهذا الدين .

وعندما أصبح "غازان" مسلماً كان عليه أن يختار إما أن يكون من أهل السنة أو من الشيعة ، فاختار أهل السنة ، وهذا هو المذهب الذي اعتنقه جميع أفراد الشعب تقريباً ، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح ، ولم يظهر أي تعصب أعمى كان يتسم به أهل السنة غالباً في معاملتهم للشيعة في خلال التاريخ الإسلامي ، ويقول بارتولة بأن غازان أتبع ذلك الموقف المغولي القديم وهو "عش ودع الآخرين يعيشون" ^(٢) .

ولكن الحقيقة أن "غازان" كان في داخله يضمّر الصداقة والحب للشيعة رغم إعلان نفسه من أهل السنة ، فقد كان يؤيد بنشاط كثيراً من المؤسسات الشيعية ويزور عتبات كربلاء المقدسة ، وكان هذا في الغالب سياسة منه كحاكم عليه إرضاء الجميع .

غير أن وضع البوذيين أصبح مهدداً باعتناق غازان للإسلام ، إذ أن نسبة كبيرة من المغول قد اعتنقوا الإسلام وتبعهم غيرهم ، وهكذا لم تعد ترتفع أية قوة لتأييد ودعم البوذية ، فقد حولت المعابد البوذية إلى مساجد وأعيدت الأملاك

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٥٧ ، وتوماس أرنود ، ص ٢٦٥ .

(٢) العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٢٢ .

الإسلامية إلى أصحابها ، وقد جُرد الكهنة البوذيين الذين لم يبق منهم إلا القليل في البلاد من امتيازاتهم السابقة ، وأما المسيحيون فقد نالهم قسطٌ من العذاب إذ كان عليهم أن يكفروا عما جنت أيديهم من التجاوزات بتحمل الاضطهاد على أيدي مواطنيهم المسلمين ، وهذا رد فعل طبيعي ، وانتهى نفوذ البطريك النسطوري "ياها لاها الثالث" في البلاط ، وأودع هذا البطريك في السجن رداً من الزمن ^(١) .

وتوفي غازان سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) وهو في الحادية والثلاثين من العمر ، ويعد أهم حاكم مغولي حكم إيران بعد هولاكو ، وتولى بعد غازان أخوه "أولجايو" الذي اتخذ لنفسه اسماً إسلامياً إيرانياً هو (خدا بنده محمد) وكان مسيحياً في صباه ، وقد اهتم بالعلوم وعلى الأخص التاريخ ، لأن التاريخ من العلوم التي تخدم الحكام في إعلاء شأنهم ، ومن أهم الكتب التي ألقت بعنايته وعناية أخيه غازان كتاب : "جامع التواريخ" الذي ألفه الوزير رشيد الدين فضل الله ، وهو من أشهر رجال الإدارة المغولية ، وكتب كتابه هذا بالفارسية والعربية في الوقت نفسه ^(٢) ، وقد اعتمد فيه على السجلات المغولية ، وبه معلومات مفصلة عن تلك الفترة من تاريخ إيران .

وفي سنة ١٣٢٠م (٧١٠هـ) تحول خدا بنده محمد إلى المذهب الشيعي ، وزاد عدد الشيعة في إيران في تلك الفترة وفي بلاد ما وراء النهرين ، وتحسن وضعهم ، وتوفي سنة (٧١٦هـ) ١٣١٦م ، فتولى بعده ابنه أبو سعيد الحكم ، وأعاد نفوذ أهل السنة والجماعة ذلك المذهب الذي اعتنقه هو ورجاله ، وهو أول حاكم مغولي يحمل اسماً إسلامياً عربياً ، وكان قاصراً ، وفي أوائل سلطنته أخذت دولة الإيلخانيين في الانهيار ، وذلك بسبب تدخل كثير من الأمراء والقواد والوزراء في الحكم ، وتوفي أبو سعيد سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) ، وبعد موته وقعت الدولة في مشاكل

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) نشر هذا الكتاب بالفارسية في ثمانية مجلدات ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

وعدم الاستقرار ، وهي فترة الخانات المتخاصمين استمرت حتى سنة ٧٣٧هـ^(١) ، وزالت بعدها دولة الإلخانيين .

ثم تسولى الحكم في إيران والعراق الجلائريون سنة ٧٣٧هـ وظلوا يحكمون حتى سنة ٨١٤هـ (١٤١١م) ثم خلفهم حكام من التركمان حتى اجتاحت تيمور لك إيران والعراق سنة ٧٨٦هـ وحكم هو وأولاده وأحفاده زهاء قرن من الزمان حتى مطلع القرن العاشر الهجري حيث ظهر إسماعيل الصفوي ، واستولى على إيران والعراق من يد التيموريين والتركمان وغيرهم من الدويلات ، وأسس الدولة الصفوية سنة ٩٠٧هـ^(٢) .

العراق تحت حكم المغول الإيلخانيين

حكم المغول الإيلخانيون في العراق من سقوط بغداد ٦٥٦هـ حتى سنة ٧٣٦هـ ، وتلقب هؤلاء بعد دخوله بغداد بلقب "إيلخان" ، أي، الخان الكبير ، وعصار هذا اللقب وراثياً ، وأصبحت العراق تحت حكم الإيلخانيين ولاية مثل أي ولاية من الولايات التي كانت تخضع للمغول ، وكانت "تبريز" في أذربيجان هي العاصمة .

وكان الإيلخان يوجد في "تبريز" ويولي ولاية له في بغداد ، وكان الوالي يلقب بلقب "صدر" و "صدر الديوان" ، وكان يتمتع بسلطات واسعة حيث يمثل شخص الإيلخان ويقدم الأموال المقررة إلى خزانة السلطان في تبريز ، وقد عم الفساد الإداري ولاية العراق في هذه الفترة ، وزادت المصادرات .

(١) لين بول ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

ما عدا فترة السلطان "محمود غازان" الذي اعتنق الإسلام (٦٩٥-٧٠٤هـ) وهو الذي شق الترع للري بين دجلة والفرات ، وأنشأ المدارس لدراسة العلوم الإسلامية في تبريز ، وأنشأ الأوقاف للفقراء والمساكين .

ونظراً لأن "هولاكو" دمر الحياة الزراعية في العراق بتخريبه للسدود والأنهار ، وتعذر إصلاحها ، فالأنهار أصبحت مطمورة بسبب تكاثر الطمي الذي كون ما يعرف في العراق بالبطائح (المستنقعات) التي تنمو فيها الغابات من البوص والغاب أو ما يسمى أحياناً بالقصب ، ويطلق على هذه الغابات الصغيرة المحاطة بالمياه الكثيرة "الأهوار" ^(١) ، وكان هذا سبباً في ضعف النشاط الزراعي ، وقد تسبب هذا أيضاً في مشاكل للعراق الحديث وتحتاج إلى جهود مضيئة للتغلب عليها ^(٢) ، وقد انتهت فترة الإيلخانيين سنة ٧٣٦هـ .

وتولى الحكم بعدهم "الجلالريون" الذين حكموا سنة ٧٣٦هـ ، وتولى أول حاكم منهم سنة ٧٣٦هـ ، وهو حسن بن حسين ، فاستقل بالعراق وجعل بغداد عاصمته ، وكان الجلالريون يتبعون المذهب الشيعي ، وتعززت العراق في هذا العصر لعاصفة مغولية أخرى قادها "تيمورلنك" أحد القواد المغول الكبار الذي ظهر على أسوار بغداد سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) ، ونجح في اقتحامها سنة ٨٠٤هـ ، ونالها من التدمير شيء كثير ، فأعاد الخراب الذي سبق أن قام به هولاكو ، ولم يستطع آخر حكام الجلالريون الصمود وهو أحمد ، ففر إلى مصر لاجئاً لدى السلطان برقوق سنة ٨٣٥هـ .

(١) الأهوار جمع هُوْر ، والهَوْر : بحيرة يفيض فيها ماء غياض تتسع ويكثر ماؤها . انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان .

(٢) د. أحمد شليبي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٧٥٧-٧٦٢ .

العراق تحت حكم التركمان :

التركمان قبائل أصلها من تركستان الغربية ، وكان جدُّ هذه الأسرة يعمل في خدمة "أويس بن حسن الجلائري" وبعد وفاة أويس سنة ٧٧٦هـ استولى جدهم وهو "بیرام خواجه" على الموصل وبعض المناطق المجاورة لها وأصبح حاكماً حتى وفاته ٧٨٢هـ .

وكانت هذه القبيلة تعني بتربية الخراف السود ، ولذلك تعرف بالـ "قراقوينلو" ، أي الخراف السود ، فسميت بذلك والتصقت بها هذه التسمية ، وكانت "تبريز" عاصمة لهم ، وبغداد عاصمة تابعة لولايتهم العراقية التابعة لهم ، وقد حكمت هذه الأسرة بغداد حتى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) ، وانقرضت باستيلاء فصيلة أخرى من التركمان على العراق بزعمارة أوزون حسن (أي حسن الطويل) ، سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) ، وكانت تعرف باسم نوع آخر من الخراف البيض التي يربونها في مراعيهم وهي "الآق قوينلو" .

وكان رعاة الخراف البيض عشيرة تركمانية كبيرة هاجرت من تركستان إلى أذربيجان ثم إلى نواحي ديار بكر ، ثم سكنت في النهاية الأراضي الواقعة بين آمد والموصل ، وكونوا دولتهم في أواخر القرن الثامن الهجري ، ومؤسس دولتهم الحقيقي هو بهاء الدين عثمان (٨٠٦-٨٣٨هـ) المعروف بـ "قراعثمان" .

ولما دخل تيمور لنك الأناضول إنحاز إليه قرا عثمان وصحبه في معارك بالشام والأناضول ، فكافأه تيمور على خدمته بأن أعطاه ولاية ديار بكر .

وفي ديار بكر نشأ الأربعة الأوائل من حكام هذه الأسرة ، وحكموا العراق حكماً سيئاً أكثر من قرن من الزمان ، ولم يعرف العراق الاستقرار خلال هذا العهد ، وكان التطاحن مستمراً بين أمراء هذه الدولة ، أما الجانب الحضاري فكان مهملاً تماماً ، وساد الجهل في أنحاء العراق ومجيت آثار حضارته السابقة ، وكثرت حروبهم

مع الفرع الآخر من التركمان القراقيونلو ، حتى سادت في النهاية "الآق قيونلو" وامتد حكمهم ، فشمّل بلاد العراق وفارس ، وديار بكر وأذربيجان .

وكان انضمام الآق قيونلو إلى تيمور في هجومه على العثمانيين سببا في عدائهم للعثمانيين ، ولذلك كان أساس علاقتهم بالعثمانيين العداء .

ثم بدأت العلاقات بينهم وبين أسرة شيعية ناشئة سيكون لها شأن في بلاد فارس والعراق هي الأسرة الصفوية ، وهذا ما نوضحه فيما يلي

العراق والصفويون :

بعد أن أرسى إسماعيل الصفوي قواعد دولته الشيعية في فارس ، بدأ يفكر في فرض سيطرته على العراق ، فاستولى على العراق سنة ٩١٤هـ لكي يفرض سيطرته على العتبات المقدسة للشيعية في كربلاء حيث يوجد قبر الحسين بن علي ، وفي النجف حيث يوجد قبر الإمام علي كرم الله وجهه .

وأصبحت العراق بذلك تابعة للصفويين ، ولا شك أن استيلاء الصفويين على العراق جعله يتخلص من حكم التركمان الذين كانوا أقرب إلى الوثنية منهم إلى الإسلام^(١) ، وبهذا بدأ الطابع الإسلامي الحقيقي يعود إلى العراق تحت الحكم الصفوي ، إلا أن الخطورة كانت تكمن في أن الفرس بدأوا يتجهون بالعراق اتجاهاً فارسياً ، وكان هذا الاتجاه على وشك أن يعيد العراق إلى ما كان عليه قبل الإسلام ، فارسي اللغة والتقاليد ، لكن الذي أنقذه من ذلك هو تحرك الدولة العثمانية باتجاه العراق ، وتم فتحه سنة ٩٤١هـ ، وبعد فتحه دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين .

العراق تحت الحكم العثماني :

ظل العراق مجال شد وجذب بين العثمانيين والصفويين حتى قام السلطان "سليمان المشرع" على رأس حملة على العراق سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) وأتم فتحه

(١) انظر: أتمد علي ، ج ٧ ، ص ٧٧٦ .

ودخل بغداد ، وحاول الحرص على عدم الإساءة إلى مشاهد الشيعة الإمامية بالعراق، ولذلك زار الكثير من مزاراتهم وعلى الأخص في كربلاء والنجف ، وأوقف عليها الكثير من مزاراتهم وعلى السليمانية على الفرات الأوسط لحماية العتبات المقدسة في كربلاء من مياه الفيضان في الربيع ، وزار قبر "الإمام علي" رضي الله عنه في النجف ، ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن إرضاء السنة كذلك .

وقبل أن يغادر السلطان سليمان العراق بعث إليه حاكم البصرة العربي بابنه "راشد" يحمل إليه مفاتيح البصرة رمزاً للخضوع ، وبذلك خضعت البصرة أيضاً للنفوذ العثماني ، ودخل أمراء كل من القطيف والبحرين في طاعة العثمانيين ، وهكذا خضع العراق من شماله إلى جنوبه للحكم العثماني ، على الرغم من عودة الإيرانيين إلى محاولة استرداده المرة بعد المرة ، ولم ينته الصراع بين إيران والدولة العثمانية إلا في عام ١٧٤٧م حين خضع العراق نهائياً للحكم العثماني ^(١) .

وكان العثمانيون يرسلون إلى العراق والياً يسمى الباشا على رأس الحكومة المحلية ، ويرسلون اقماضي رئيس السلطة القضائية والدفتردار رئيس الإدارة المالية ، وكان كل هؤلاء من الأتراك ، وكل هؤلاء أعضاء بديوان يمثل مجلس شورى الولاية. وظل العراق يحكم بالولاية القادمين من اسلامبول المعينون من طرف السلطان العثماني حتى سنة ١٧٤٩م حيث تولى الولاية زعيم المماليك الذين رباهم أحمد باشا وهو سليمان الذي كان نائب الوالي "كتخدا الباشا" ، وبه قامت دولة المماليك بالعراق عقب وفاة أحمد باشا ، واقتنى سليمان عدداً كبيراً من المماليك ، وألف منهم جيشاً مدرباً على حمل السلاح الحديث ، وعين كثيراً منهم في المناصب الإدارية واستبعد الموظفين العرب والأكراد من المناصب ، وبذلك ثبت حكم المماليك الذي استمر أكثر من ثمانين عاماً ^(٢) .

(١) انظر : للمؤلف ، الدولة العثمانية وعلاقتها بالعالم الإسلامي وأوروبا ، ص ٤٥ .

(٢) د. أحمد شليبي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٧٨٧-٧٩٣ .

وكان داود باشا (١٨١٧-١٨٣١م) آخر باشوات المماليك في العراق ، واتجه داود باشا الاتجاه الاستقلالي الذي بدأه سليمان باشا أول حكام المماليك ، وحارب النفوذ البريطاني والتسلط العثماني على العراق ، وانتهاز فرصة القضاء على جيش الانكشارية في اسلامبول ، فوضع خطة للقضاء عليهم في بغداد ونجحت هذه الخطة دون إراقة دماء .

فأدرك السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) أن ممالك العراق يتخذون طابعاً استقلالياً ، فاتخذ قرار بعزل داود باشا سنة ١٨٣١م ، وأرسل جيشاً بقيادة "علي رضا" استولى على بغداد وقبض على داود باشا وأرسل إلى اسلامبول ، أما بقية المماليك فدبر "علي رضا" مذبحة لهم شبيهة بمذبحة المماليك في مصر على يد محمد علي سنة ١٨١١م .

وحكمت الدولة العثمانية العراق بعد المماليك بمجموعة من الولاة بعد علم رضا ما يقرب من قرن من الزمان أغلبهم لا يستحق الذكر سوى "مدحت باشا" الذي كان يلقب بـ "أبو الدستور" ، وقد جاء مدحت باشا إلى العراق سنة ١٨٦٩م ، فأقام بها ثلاث سنوات قام فيها بكثير من الإصلاحات ، فأقام المنشآت والمستشفيات ودور العجزة والأيتام ، وشيد المدارس ومد خط ترام بغداد ، وأصدر أول جريدة عراقية هي "الزوراء" ، وأنشأ نظام البلديات للعناية بالإضاءة والمياه والنظافة والحراسة ، وأسس المجالس المحلية ، وفرض نظام التجنيد الإجباري ، وقسم العراق إلى ثلاث ولايات هي :

- ١- ولاية بغداد .
- ٢- ولاية البصرة .
- ٣- ولاية الموصل .

واهتم بتوطين القبائل الرحل ، ووزع الأراضي الزراعية عليهم ، لكن هذه الإصلاحات لم يكتب لها الاستمرار بسبب قصر مدة ولاية مدحت باشا^(١) .

ومدحت باشا السدي تولى بعد ولاية العراق سوريا لاحظ خلال ولايته الأضرار الناجمة عن نظام المركزية العثمانية المفرطة ، وشرح هذه الأضرار في تقاريره ، وطلب من الدولة العثمانية الإقلاع عن هذا النظام إلى نوع من اللامركزية .

إلا أن الدولة تمسكت بنظام المركزية ، بل صارت تزداد تشدداً فيه سنة بعد سنة ، فقضية المركزية واللامركزية لعبت دوراً هاماً في سياسة الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى^(٢) .

ويلاحظ أن مدحت باشا أثناء ولايته في العراق اهتم به بعيداً عن أسلوب المركزية المقيت ، وهذا هو الذي جعل مصر في عهد محمد علي تتقدم عن سائر الولايات العربية بعد انفصالها عن الدولة العثمانية في الشؤون الإدارية الداخلية .

(١) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٧٩٩-٨٠٠ .

(٢) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٤ .

الباب الثالث

الفصل الثاني

الدويلات في آسيا الصغرى وما وراء النهر

- الدولة الغزنوية .
- الدولة الأفغانية .
- الدولة الخوارزمية .
- الدولة العثمانية .

الدولة الغزنوية - ٣٥١ - ٥٨٢ هـ :

تنسب هذه الدولة إلى عاصمتها غزنة ، ومؤسسها مملوك تركي من ممالك السامانيين الذين تدرجوا في المراتب العسكرية إلى أن بلغوا مرتبة الإمارة وهذا الأمير يدعى (ألبتكين) فقد انتهت الدولة السامانية إلى ما انتهى إليه العباسيون من الاعتماد على الأتراك في إمداد جيوشهم ، وارتقوا تدريجياً إلى الرتب العليا في الجيش الساماني، ومن ثم انتقلوا إلى الإدارة المدنية حيث أمسوا بعد مدة وجيزة خطراً على الدولة ، ولقد عين ألبتكين في البداية قائداً عاماً في خراسان ابتغاء إقصائه عن العاصمة بخارى بعد أن عظم فيها نفوذه^(١) ثم تولى إمارة غزنة سنة ٣٥١ هـ من قبل السامانيين ، وبعد وفاته آلت الأمور في رئاسة الدولة إلى زوج ابنته ومملوكه ناصر الدين (سبكتكين) سنة ٣٦٦ هـ ، فقد اتفق الجنود عليه كما يقول ابن الأثير ، لما عرفوه من عقله وديبه ومروءته وكمال خلال الخير فيه ، فقدموه عليهم وولوه أمرهم ، وحلفوا له رأطاعوه ، فأحسن السيرة فيهم ، و ساس أمورهم سياسة حسنة^(٢) .

وترجع أهمية (سبكتكين) إلى أنه ولي جهوده العسكرية تجاه الشجر الهندي ، فحارب فيه باسم السامانيين أولاً فتوغل في سهول الهند الشمالية ، ولم يتجه بأعماله العسكرية إلى البلاد الإسلامية التي كانت تابعة للخلافة العباسية وتحت نفوذ السامانيين ، إلا عندما طلبوا معونته في هذا المجال لقمع حركات الخارجين عليهم في خراسان فقد انضم بقواته إلى (نوح بن نصر الساماني) لقتال الخارجين عليه في خراسان ، وفي قتال البويهيين الذين رغبوا في الاستيلاء على خراسان التي كانت في حوزة السامانيين ، واستطاع الغزنويون الانتصار على البويهيين وأعادوا إلى

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١١٨

(٢) الكامل ، ج ٧ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

السامانيين مدينة نيسابور ، وقد كافأ السامانيون (محمود بن سبكتكين) على جهده مع أبيه بأن عينوه والياً على خراسان .

و(محمود الغزنوي) بن سبكتكين هو الذي تولى السلطة في الدولة الغزنوية منذ سنة ٣٨٨هـ ، وبلغت قوة الدولة أوجها في عهده ، وعندما تولى سنة ٣٨٨هـ كانت الدولة السامانية قد مالت إلى الضعف بسبب الخلافات التي نشأت في داخل الأسرة السامانية فألغى محمود اسم السامانيين من الخطبة ، وخطب للخليفة العباسي (القادر بالله) الذي أنعم عليه بلقب (يمين الدولة) لأنه كان يرعى الركن الأيمن من المشرق الإسلامي ، ويعتبر محمود الغزنوي هو المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية .

وبظهور الدولة الغزنوية أصبحنا مع دولة تركية ، إيرانية الإدارة والثقافة لأن رجال الإدارة معظمهم من الفرس ، فالقائد وهو السلطان تركي والجيش من الأتراك في معظمه ، وكانت الدولة إيرانية الثقافة لأنها ترعى الكتاب الفرس ، وتتابع عمل السامانيين على الصعيد الثقافي .

وظهرت الدولة الغزنوية في المجال الإسلامي ظهوراً قوياً على عهد محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ) فهو الذي أحيى الجهاد الإسلامي في نجر الهند ، ويؤثر عنه أنه غزا في بلاد الهند إثنى عشرة مرة مدفوعاً بروح الجهاد في سبيل الله ، والرغبة في نشر الإسلام بين الهندو الوثنيين واتخذ محمود الغزنوي لنفسه لقب (سلطان)^(١) بعد أن كان يلقب بالأمير ، وظهر هذا اللقب على العملة التي كانت تحمل اسمه ، ولقب سلطان الذي اتخذه محمود الغزنوي هو اللقب الذي اتخذه السلاجقة وسار عليه الأتراك في الدولة الإسلامية واتخذه المماليك في مصر والعثمانيين بعد ذلك ، وكان ظهور هذا اللقب بصفة رسمية في بلاد الإسلام على يد

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٧٥-١٨٢ .

محمود الغزنوي ، أما الحكام من الفرس فقد اتخذوا لقب (ملك) كما فعل بنو بويه^(١) وكلا اللقبين أقل من لقب الخليفة الذي ظل أعلى ألقاب الدولة الإسلامية حتى زوال الخلافة العباسية من بغداد .

وحارب محمود الغزنوي من أجل الخلافة في سجستان سنة ٣٩٣هـ فاستولى عليها ، وأزال سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل سنة ٤٢٠هـ وملك قزوين ودان له بالطاعة أمراء هذه الجهات ، وقد أرضى محمود الخلافة العباسية حين تتبع المخالفين لها والخارجين عليها بالقتل والنفي من الرافضة والإسماعيلية ، والقرامطة وغيرهم ، كما نفى المعتزلة إلى خراسان وضيق عليهم وأحرق كتب الفلسفة والنجوم ، ورفض أن يستجيب للفاطميين الذين حاولوا استمالته تخفيفاً من حملته على أشياعهم^(٢) .

وفي كل ناحية كان محمود يفتحها كان يزيل كل المذاهب الخارجة على مذهب السنة والجماعة ، ومن هنا فقد قضى على كل أثر للتشيع أو الاعتزال وغيره في كل البلاد التي دخلها^(٣) .

واستطاع محمود الغزنوي أن ييسط سلطان الإسلام على ما وراء كشمير والبنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية قاعدتها مدينة (لاهور)^(٤) ويحكمها ولاية مسلمون من قبل الغزنويين ، ومن المعروف أن هذه الأقاليم الشمالية

(١) أما الرواية القائلة بأن البويهيين أخذوا لقب "سلطان" فإنها تستند إلى ظن خاطئ ، ولم يرد هذا اللقب على مسكوكاتهم ، وإنما ورد عليها لقب الملك والأمير ، [معجم الأسر الحاكمة ، لين بول وآخرين ، ج ١ ، ص ٢٨٨] .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٨٩ ، وحسن أحمد محمود ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧٤ .

(٣) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٤ .

(٤) تعني كلمة (لاهور) : بالأردية أرض الطهارة ، وقد دخل الإسلام مدينة لاهور على يد حملة بقيادة (محمد بن القاسم الثقفي) ، الذي غزا السند في أواخر القرن الأول الهجري ، وإبان الاحتلال البريطاني للهند كانت لاهور عاصمة لإقليم البنجاب ، وبعد ظهور دولة باكستان كانت لاهور عاصمة لباكستان الغربية (المؤلف ، العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ١٧٨) .

الهندية التي انتشر فيها الإسلام وهي السند والبنجاب والبنغال تكون ما يسمى الآن بدولة باكستان ودولة بنجلاديش .

وقد توفي (محمود الغزنوي) سنة ٤٢١هـ بعد أن أنشأ دولة شاسعة تضم معظم إيران وما وراء النهر وشمال الهند كله وكان يريد نقل عاصمته إلى (الكوجرات) ، وترك ابنه نائباً عنه في (غزنة) ، ولكن رجاله عز عليهم مفارقة موطنهم ، فصرفوه عن هذه الفكرة .

وألقى السلطان (محمود الغزنوي) كان غازياً مجاهداً أخذ على عاتقه نشر الإسلام في بلاد الهند والقضاء على الوثنية فيها ، وبلغ في فتوحه " إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تتل به سورة ولا آية ، فدحض عنها أجناس الشرك وبني بها مساجد وجوامع ، وأقام بدلاً من بيوت الأصنام مساجد الإسلام" (١) وقد جلب الفتح الإسلامي للهند منافع كثيرة ومكاسب عظيمة قد فتح أمام طبقة المنبوذين نافذة إلى التطلع والطموح والحرية ، لأن هذه الطبقة حرمت من الحقوق الإنسانية منذ أمد بعيد ، فدخلوا في الإسلام أفواجاً لأن الإسلام يسوي بين الطبقات ويفتح الأمل أمام كل فرد للتقدم لتحقيق حياة أفضل .

وقد اعترف بذلك جواهر لال نهرو في كتاب (٢) له قائلاً : "إن دخول الإسلام الهند له أهمية كبرى في تاريخ الهند إذ أنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوسي وأظهروا فروق الطبقات واحتقار المنبوذين وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان يؤمن بها المسلمون أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثرهم خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرّمهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية (٣) .

(١) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٥ .

(٢) هذا الكتاب بعنوان : the Discovery of India ، ص ٣٣٥ ، ص ٥٢٦ .

(٣) محمد اسماعيل الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، ص ٤٠-٤٢ .

وبدأت الحياة العلمية تزدهر في دولة الغزنويين وكان بلاط محمود الغزنوي موئلا للعلماء والأدباء ومنهم العتيبي له كتاب اليميني والمعروف بتاريخ العتيبي (محمد بن عبد الجبار) (ت ٤٢٧هـ) مؤرخ عصر السلطان محمود الغزنوي والبيروني (نسبة إلى بيرون بالسند) (محمد بن أحمد) (ت ٤٤٠هـ) صاحب كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردودة والفردوسي الشاعر صاحب الشاهنامه التي كتب جزءاً منها في بلاط الغزنويين .

ثم خلفه ابنه محمد الذي تغلب عليه أخوه مسعود سنة ٤٢٢هـ الذي استمر في سياسة أبيه ، وجعل له نائباً في الهند يقيم في لاهور ، وظلت الدولة الغزنوية تقوم برسالتها حتى انتهى أمرها على يد (الغوريين سنة ٥٨٢هـ) وبفعل ضربات السلاجقة الأتراك الذين كانوا إذ ذاك يتوسعون في هضبة إيران .

وتولى الحكم بعدهم (الغوريون) الذين كانوا من أتباع الغزنويين وكانوا يحكمون (إقليم الغور) وهو إقليم جبلي عبارة عن الجزء الجنوبي من بلاد الأفغان الحالية يمتد ما بين غزنة وهرارة ، وإذا كان (الغزنويون) هم أصحاب الفضل في تحطيم قوى أمراء الهند ، وفتح معظم الهندستان ، لأنهم كانوا يعتبرون بلاد الهند امتداداً لأملاتهم وكانوا دائماً يعودون إلى (غزنة) ، فإن (الغوريين) هم أصحاب الفضل في تثبيت أقدام الإسلام بالهندستان وكان سلاطينهم وقادتهم يقيمون في الهند بصفة دائمة مستخدمين من دلهي (دهلي) عاصمة لهم ، ولهذا فهم يعتبرون أول الدول الإسلامية في الهند ، وبهم يبدأ تاريخ الهند الإسلامية ^(١) .

تغلب محمد الغوري على آخر سلاطين الغزنويين عام ٥٨٢هـ وأقام سلطانه في أراضيهم وغزا الهند وافتتح دلهي وغيرها واستمر عهده حتى سنة ٦٠٢هـ ^(٢) .

(١) حسين مؤنس ، ص ٢٣٦ ، وتولى بعدهم دولة مماليك الهند سنة ٦٠٢هـ .

(٢) وقد لعب أبناء أفغانستان دوراً جهادياً ممتازاً في نشر الإسلام في الهند على أيام الغزنويين والغوريين ، وانتشر الإسلام في الهند بفضل جهادهم ونضالهم في هذه الأصقاع حيث كانوا عدة الحرب الطويلة التي خاضها كل من الغزنويين والغوريين .

وبرز في عهد محمد الغوري الممالك الأتراك الذين تولوا القيادة في عهده وأصبحوا أصحاب القوة من بعده فغدا (قطب الدين إيبك) سلطاناً في دهلي بعد وفاة محمد الغوري ، وأقام دولة عرفت في الهند بدولة ممالك الهند وانقرضت سنة ٦٨٨هـ^(١) .

ثم حكمت في الهند بعد الممالك دول ضعيفة - الخجليون والتغلقيون واللوديون حتى سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م وذلك عندما ظهرت الحاجة إلى حاكم قوي يوقف الصراعات ويوحد الهند أمام الأطماع البرتغالية التي بدأ نزولها في شواطئ الهند منذ ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) في كاليكوت وديو وجوا وبومباي .

وقد وجدت هذه الشخصية في (ظهر الدين محمد بن عمر شيخ مرزا الملقب بباير) ومعناها النمر ، وهو صاحب غزنة الذي اندفع بقواته إلى سهول الهند واستولى على دهلي وأسس إمبراطورية المغول في الهند سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م والتي استمرت حتى سنة ١٨٥٧م / ١٢٦٤هـ (وكان بابر ينحدر من سلالة تيمور لنتك) وهي السنة التي بدأ الإنجليز فيها يحكمون الهند ، وصارت تابعة للتاج البريطاني مباشرة وغدت مستعمرة بريطانية حتى الاستقلال سنة ١٩٤٨م .

وكانت الدولتان الغزنوية والغورية تركيتين ولكن قيامهما في محيط إيراني جعلهما تأخذان طابعاً إيرانياً ثقافياً ، فاللغة الفارسية كانت لغة الدولة والإدارة ومعظم النشاط الفكري ، وإذا كانت كتبت بعض المؤلفات في عصريهما بالعربية ولكن ذلك كان قليلاً واللغة الفارسية التي ازدهرت في عصريهما لم تكن هي الفارسية التي سادت أيام الساسانيين ، ولكنها كانت الفهلوية ، وهي الفارسية الجديدة المستعربة ، ومعظم ألفاظ الحضارة فيها عربية ثم أنها كتبت بالحروف العربية ، وأحسن ما كتب في تاريخ هاتين الدولتين ألف بالفارسية ، لأن الفارسية التي استفاقت كانت لغة شعر وملاحم ، ولا بد أن يمضي وقت حتى تصبح الفارسية لغة

(١) محمد السيد غلاب وآخرون : البلدان الإسلامية ص ٢٤٤-٢٤٩ .

تأليف علمي ، وهذا ما قاله أبو الريحان البيروني الذي عاش في ظل الغزنويين وألف لهم ولكنه كتب بالعربية ، وقرر أن العربية لا الفارسية هي لغة العلم والفكر والتأليف^(١) .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ وما بعدها .

وأفغانستان بلد جبلي ، تنزل على جباله الثلوج في الشتاء ، ويزل عليها المطر في الربيع مع ذوبان الثلوج ، فتتحد المياها من جبال أفغانستان - الواقع أغلبها في الوسط - في أنهار صغيرة وكبيرة ، وتجري مياهها عابرة أراضي أفغانستان إلى أراضي الدول المجاورة ، وجبالها غنية بالأحجار الكريمة مثل الياقوت واللازورد ، وبعض المعادن كالكحلحاس والحديد . وتبلغ مساحة أفغانستان (٦٥٠٠٠٠) كيلو متر مربع .

وتتكون أفغانستان الحالية من الأقاليم الإسلامية الرئيسية المعروفة ، وهي "كابل" ، و "قندهار" ، و "سجستان" ، و "تركستان" ، و "هندكوش" ، و "جيحون" ، و "هزارستان" ، وغير ذلك من المناطق الصغيرة ، وسكانها الحاليون أخلط من الأفغان والپرس (طاجيك) ، والأتراك والمغول والبلوش ، واختلطت تلك الأجناس اختلاطاً كبيراً ، فأصبح من الصعب تحديد العناصر المكونة لكل قبيلة . واللغة التي يتحدث بها الأفغانيون شعبة من اللغة الفارسية ، ما عدا إقليم جيحون الذي يتحدث أهلہ التركية .

ويدين الشعب الأفغاني كله تقريباً بالدين الإسلامي ، وعدد السكان في إحصاء عام ١٩٨٨ حوالي ١٦ مليون نسمة ، بنسبة ٩٩% من المسلمين ، أغلبهم على المذهب السني مع أقلية من الشيعة .

ولقد لعبت بلاد أفغانستان دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي ، فمنها انبعث
المسلم الإسلامي الكبير إلى بلاد الهند ، على أيام "محمود الغزنوي" وخلفائه (٣٨٨-٣٨٨-)

٥٨٢هـ) ، وأيام الغوريين من بعدهم ، واتخذ المغول المسلمون الذين تحولوا إلى الإسلام في أرض أفغانستان من (غزنة) في أفغانستان قاعدة لهم في غاراتهم على الهند، ففي عهد "بابر المغولي" الذي أسس إمبراطورية المغول في الهند سنة ٩٣٣هـ - (١٥٢٦م) ، وطد سلطانه في كابل ، وظلت "كابل" في يد خلفاء المغول نحو قرنين من الزمان .

وعليه فإن الفاتحين للهند على أيام الغزنويين والغوريين ، انحدروا من جبال أفغانستان العظيمة ، مع الأخذ في الاعتبار أن الحملات الأولى على الهند ، حدثت في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ، فكان من القواد الأوائل "الحارث بن مرة العبدي" الذي استشهد في أرض السند سنة ٤٢هـ ، وفي سنة ٩٣هـ أرسل "الوليد بن عبد الملك" "محمد بن القاسم" عن طريق "الحجاج بن يوسف الثقفي" في العراق إلى الهند ، فأرسى قواعد دولة إسلامية بها ، إلا أن التدفق الإسلامي الكبير على الهند حدث في عصر الغزنويين والغوريين .

فقد استولى "البكتين" على غزنة عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) من بلاد خراسان وأسس فيها دولة أخذت تتسع تدريجياً حتى ضمت كل أفغانستان الحالية وإقليم البنجاب من باكستان ، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة صهره "سبكتكين" الذي خلفه في الحكم (٣٦٥-٣٨٧هـ / ٩٧٦-٩٩٧م) وقد مد نفوذه إلى سائر خراسان وشمال بشاور ، واشتهر ابنه محمود (٣٩٠-٤٢١هـ / ٩٩٩-١٠٣٠م) بحملاته على بلاد الهند التي بلغ عددها ١٧ حملة خلال ٢٧ سنة ، مستفيداً من موقع عاصمته "غزنة" على هضبة مرتفعة تشرف منها على سهول شمالي الهند التي كان يحسن الوصول إليها عن طريق وادي كابل^(١) .

(١) د. محمد السيد غلاب ، ود. حسن عبد القادر صالح ، د. محمود شاكر ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، نشر جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٧٩م ، ص ٢٣٣ .

وهكذا شارك أسلاف الأفغانين في نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله بعد اعتناقهم له وحسن إسلامهم ، وثبتوا على دينهم طوال القرون في مختلف الظروف وما بدلوا تبديلاً .

ودخلت أفغانستان في حوزة إمبراطورية المغول أحياناً وإمبراطورية الصفويين في فارس أحياناً أخرى ، وقد اقتسمت الإمبراطوريتان الهندية والفارسية بلاد أفغانستان ، فكانت هراة وسجستان مع فارس ، وكانت كابل جزءاً من إمبراطورية المغول في الهند وتأرجحت قندهار بين نفوذ الفرس والمغول ، ولما توفي إسماعيل الصفوي سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) ، وتوفي بابر سنة ٩٣٧هـ (١٥٣٠م) وخلف بابر ابنه همايون ، وخلف طهماسب والده إسماعيل ، وظلت الدولتان تتنازع أراضي أفغانستان^(١) .

وأهم شيء أن الأفغان ظلوا يحاربون الدولتين الكبيرتين ، وكانت القبائل الأفغانية تزداد في العدد والسيطان باطراد ، وقد قُيأت الفرضة أمام الجنس الأفغاني للبروز ، ولم يتأثر الأفغان كثيراً في جباهم الشرقية بالغزاة الذين كان همهم الأول شق طريقهم عابرين الممرات إلى الهند ، ولما كان عددهم يتزايد شقوا طريقهم شرقاً إلى سهول الهند وبدءوا ينتشرون غرباً أيضاً ، والملاحظ أن هذه القبائل الجبلية ظلت تمارس حياة تكاد تخلو من أي نظام ، لكن شدة بأسهم كانت واضحة لدرجة أن الحكومة المغولية في كابل كانت تحكم بالاسم فقط ، ولها بعض السلطان في الوديان المكشوفة ، وقد تسبب الحكم المتقلب في بلاد أفغانستان بين الهند وفارس في تمكين القبائل القوية مثل : "الأبدالية" ، و "الغلزائية" ، و "نادرشاه" أن تظهر وتنازع على السلطان في أفغانستان .

فقد نجح (الأبدالية) قرب قندهار في الحصول على امتيازات من الشاه عباس الصفوي الأكسير ، واعترف بزعامة "سدو" الذي أصبحت أسرته السدوزائية هي

(١) انظر مادة أفغانستان في دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة المترجمة إلى العربية .

الأسرة الحاكمة ، وظهرت أيضاً قبيلة (غلزائي) ونازعتها السلطة بالقرب من قندهار، وظل سلطانها يزداد حتى اعتلاء الإمبراطور "شاه عالم الأول" العرش ، وهناك بدأ غلزائية قندهار يتآمرون معهم على الحكومة الفارسية ، وفي هذه الأثناء ظهر "ميرويس" الزعيم الغلزائي ، و "محمود بن ميرويس" الذي نصب نفسه حاكماً على قندهار ^(١) وبدأ يغزوا بلاد فارس .

فترة حكم الأفغان لفارس :

دخلت فارس في الفترة من ١١٣٥هـ حتى سنة ١١٤٢هـ (١٧٢٢-١٧٢٩م) تحت السيطرة الأفغانية وذلك عندما زحف "محمود بن ميرويس الأفغاني" على فارس ودخل أصفهان واستولى على المدن الفارسية الواحدة بعد الأخرى، وحاصر أصفهان مدة طويلة انتشرت بها المجاعة التي جعلت الناس يأكلون لحوم بعضهم البعض، مما جعل الشاه "حسين الصفوي" يتنازل عن العرش وتسليم المدينة سنة ١٧٢٢م، فكان ذلك إيذاناً بانتهاء الأسرة الصفوية التي حكمت فارس منذ سنة ٩٠٧هـ ^(٢) .

وأبقى "محمود الأفغاني" أوضاع الإدارة والموظفين الفرس مع إقامة بعض المراقبين من الأفغان ، ولكن كانت هناك قوى خارجية وداخلية تستعد للوثوب على الحكم الأفغاني في فارس : العثمانيون في الغرب ، والروس في الشمال ، ثم ولى العهد الصفوي طهماسب الذي كان يحاول تكوين قوة في الشمال للوصول إلى العرش .

وفكر "مير محمود" في القضاء أولاً على المطالب بعرش فارس ، ورغم أنه أرسل قوات كثيرة إلى الشمال إلا أنه لم ينجح في القضاء عليه ، ومر محمود بفترة عصيبة حيث أنه كان يجد صعوبة في جمع عدد كافٍ من القوات لعملياته العسكرية ، فأفغانستان أصغر بشرياً من فارس ، وغزو فارس استخدم "محمود" الغالبية العظمى

(١) المرجع السابق ، مادة غلزائي .

(٢) ستانلي لين بول ، تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د. أحمد السعيد ، طبعة دار

المعارف، القاهرة ١٩٦٩م ، ج ٢ ، ص ٥٤٦ .

من طاقة أفغانستان البشرية المستعدة للجنديّة ، وزاد من سوء مركز محمود ثورات كثير من المدن الفارسية ضده .

وزادت الأطماع الروسية في فارس ، فوجه الروس جيشاً ضد الأفغان في فارس في وقت كان العثمانيون يتربصون لفارس في الغرب ، فهدد العثمانيون روسيا بالتدخل، الأمر الذي جعل روسيا تميل إلى عقد اتفاقية مع العثمانيين في سنة ١٧٢٤م لتقسيم فارس ، وبمقتضى هذه الاتفاقية تستولي روسيا على المناطق الشمالية من فارس ويستولي العثمانيون على المناطق الغربية ، ونصت الاتفاقية على الاعتراف بولي العهد الصفوي الذي يحاول الوصول إلى العرش وهو "طهماسب" شاه أو ملكاً على فارس إذا اعترف بهيمنة كل من الروس والعثمانيين على المناطق التي استولوا عليها .

هذه الأخطار التي أخاطت بفارس وحاکتها محمود الأفغاني جعلته يندفع إلى إجراء مذابح للنبلاء وقوات الفرس والأسرة المانكة الصفوية وأخذ يفرض ضرائب جديدة وينهب متاجر الناس ، وكان الأولى به أن ينسحب بقواته عائداً إلى أفغانستان^(١) .

وأدرك كسبار رجال الأفغان أن السلطان محمود يفتقد قواه الدفاعية فاستدعوا ابن عمه الأمير أشرف من أفغانستان وأسندوا إليه ولاية العهد ، ثم رفعوه إلى العرش سنة ١٧٢٥م عندما أصيب محمود بالجنون التام .

ولما تولى أشرف حكم فارس بدأ عهده بإجراءات تصفية العناصر التي يخشى تأمرها ، فقتل حرس محمود وكبار الموظفين الذين كانوا شديدي الصلة بمحمود ، كما قتل الضباط الذين وضعوه على العرش ، ومن عجيب ما فعل من أعمال وحشية أنه سمل عيني شقيقه خشية منه أن يزاحمه على الحكم .

في هذا الجو الذي انتشر فيه الإرهاب ومظاهر الوحشية استأنف العثمانيون غزوهم لفارس سنة ١٧٢٦م مدعين أن هدفهم إعادة العرش إلى الشاه الشرعي

(١) د. محمود حسن صالح منسي ، معلم تاريخ الشرق الإسلامي في العصور الحديثة ، القاهرة ، سنة

"حسين" ، فسارع اشرف ، بقتل حسين هذا ، وعندما التقى جيشه بجيش العثمانيين قرب همدان أشاع الفوضى والاضطراب في صفوف العثمانيين عندما أعلن مؤكداً أنه مثل العثمانيين يدين بالإسلام على المذهب السني ويدعوهم للاتحاد معه ضد عدوهم المشترك الصفويين الشيعة ، وقد أحدثت هذه الدعاية ثمارها ، فقد انضم كثير من قوات الجيش العثماني إلى جانب الأفغان ، كما رفض الجيش العثماني الاستمرار في الهجوم ، وكان من نتيجة ذلك عقد صلح مع العثمانيين مقتضاه تنازل اشرف عن الجزء الغربي والشمالي الغربي من فارس للعثمانيين ^(١) .

أمّا ولي العهد طهماسب الثاني الذي كان يقيم في شمال شرق إيران في حماية قبيلة تركمانية تسمى قبيلة القجار ، وكانت تؤيده وتناصره بزعماء "نادرخان" الذي صار يسيطر على طهماسب ، واسترد نادر أصفهان سنة ١٧٢٩م ، واستدعى طهماسب ليتولى العرش الذي كان في يد الأفغان المغتصبين لمدة سبع سنوات ، ونجح نادر في هزيمة السلطان اشرف قرب شيراز ، وبذلك انتهى العهد الأفغاني في فارس .

ولكن "نادر شاه" اتخذ حيل القبائل الأفغانية عامة سياسة التراضي وجند أعداداً كبيرة منهم في جيشه والذي جعله يستميلهم هو أنه سني المذهب مثلهم واستجار بهم في فارس إلى الاتجاه شرقاً لاحتلال أفغانستان حتى أصبحت أفغانستان كلها في قبضته سنة ١٧٣٩م ، وظل بقية حياته يعتمد اعتماداً كبيراً على جنوده الأفغان ، ولم يعتمد إلا قليلاً على جنوده الفارسية الذي كان يتوجس خوفاً منهم بحكم أنه كان سني المذهب ^(٢) ، وهذا مما دفع الفرس القزلباشية ^(٣) إلى اغتيال "نادر شاه" سنة ١٧٤٧م .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، مرجع سبق ذكره ، مادة أفغانستان .

(٣) قزلباش : لفظة فارسية معناها أصحاب الرؤوس الحمراء ، وكانوا أتباع الصفويين ، فكان الصفويون يلبسون ألباعهم شفاء للرأس أحر اللون به ١٢ ثبة إشارة إلى الأئمة الإثني عشر من أئمة الشيعة الإمامية .

أفغانستان في عهد أحمد شاه دراني :

كان أحمد شاه دراني في بداية أمره قائداً من قواد نادر شاه ، وكان زعيماً لقبائل الأبدالية في جيش نادر شاه ، ولما اغتال الفرس والقرلباش نادر شاه لأنه كان يسيء الظن بالعناصر الشيعية في جيشه ويعطف على الأوزبك والأفغان وعلى الأبدالية بوجه خاص ، في هذه الفترة كان أحمد شاه قريباً من مكان حادث اغتيال سيده نادر شاه ، فهاجم في نفر من الأبدالية قافلة فارسية محملة بالأموال وجردها من النفائس التي كانت تحملها ، ثم ارتحل مع أتباعه إلى أفغانستان ودخل مدينة قندهار وأعلن نفسه ملكاً على أفغانستان بعد أن تم انتخابه من زعماء الأبدالية ، واشترك في انتخابه أيضاً زعماء من قبائل أخرى ، وكان أحمد شاه في هذه الفترة يطلق عليه لقب أحمد خان ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، ومنذ انتخابه أخذ يطلق عليه لقب شاه و (دراني) أي (درة الدرر) .

وبعد تنويجه توجه نحو كابل فدخلها ، بيد أن قندهار ظلت العاصمة له طوال حكمه ، وابتنى مدينة جديدة سماها " أشرف البلاد " مكان " نادر آباد " التي أنشأها نادر شاه ، وأخضع " غزنة " وأقام عليها حكاماً من قبيلة دران ، وكان أحمد شاه يعتبر نفسه وارثاً لأملاك نادر شاه الشرقية ، وهي البلاد الواقعة غربي نهر السند ، ولذلك وجه فتوحاته نحو الهند ، فاستولي علي " لاهور " سنة ١٧٤٨ م ، ثم رجع إلى كابل وشغل في السنوات الأربع التالية بشئون خراسان ، فاستولي علي هراة وتقدم نحو مشهد وفتحها وأقام عليها حفيد نادر شاه ، ونجح في عام ١٧٥٠ م في غزو " نيسابور " (١) .

وفي ذلك الوقت كان نفوذ القاجار الذين استولوا علي ملك الصفويين في فارس يزداد فصدوه ولم يتقدم إلي أبعد من ذلك ناحية الغرب ، ويمكن لنا أن نستدل علي ذلك بأن آخر عمله ضربها في مشهد كانت في سنة ١٧٥٠ م .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة أحمد شاه دراني .

وفي سنة ١١٠٦ هـ توجه أحمد شاه إلى الهند ودخل "دهلي" دون أي مقاومة ولم يمكث فيها سوى أربعين يوماً نهب فيها جنوده هذه المدينة ، وضربت عملة فضية وذهبية باسمه في سنة ١١٧٠ هـ (١٧٥٦-١٧٥٧م) تخليداً للذكرى هذا الفتح ، وعاد أحمد شاه إلى أفغانستان بعد أن قام ولده تيمور حاكماً على ملتان ولاهور .

وتوفي أحمد شاه دراني في "مرغاب" بالتلال القريبة من قندهار سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣م) تاركاً خلفه إمبراطورية مترامية الأطراف في أفغانستان وفارس والهند ولكنها غير مأمونة ، وكان تيمور شاه قد تولى في حياة أبيه مناصب ذات خطر مثل منصب "النظام" على لاهور وملتان وهو منصب تدل عليه شواهد من مجموعة معمايزة من العملة ، ولما توفي أحمد شاه كان ابنه تيمور في هراة ولم يستطع أن يستولي على قندهار العاصمة إلا بعد أن قبض على أخيه سليمان الذي كان ينافسه وقتله ونقل عاصمته إلى كابل وحكم عشرين عاماً غالية من الأحداث اضمحلت فيها قوة المملكة وتزعزع استقرارها ، وكان سلطان الحكومة المركزية على الولايات القائمة في الأطراف واهية ، ففي سنة ١١٩٦ هـ (١٧٨١م) ازدادت قوة السيخ واستولوا على "ملتان" ، ولكن تيمور استردها في السنة نفسها .

وتوفي تيمور شاه سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٣م) وخلفه ابنه "زمان شاه" الذي ظل في الملك حتى خلعه أخوه "محمود شاه" سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م) وبدأت المنافسة بين محمود وأخيه شجاع الملك تضعف من قوة أفغانستان ، فبينما كان محمود يرقى عرش "كابل" كان شجاع الملك يتنادي بنفسه ملكاً في بشاور سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م) .

أفغانستان من ١٨٠٠-١٨٢٤م :

في هذه الفترة التي يقع معظمها في القرن التاسع عشر الميلادي بدأت أطماع الإنجليز تمتد إلى أفغانستان من الشرق ، وبدأت أطماع روسيا تمتد إليها من الشمال في وقت اشتد فيه الصراع بين أبناء تيمور شاه على الملك في أفغانستان وعلى

الأخص بين محمود وأخيه شجاع الملك ، فقد اعتلى محمود وشجاع الملك العرش ثم تزلوا عنه غير مرة بسبب ما كان بينهما من تنافس ، فقد جلس شجاع الملك على العرش سنة ١٨٠٠ م ، ثم انتزعه محمود منه سنة ١٨٠١ م ، ثم كر شجاع الملك على محمود مرة أخرى سنة ١٨٠٣ م ، وأخذ الملك منه ، وعاود محمود الكرة سنة ١٨٠٩ م وأخذ الملك من شجاع الملك .

ودخل الصراع أخوان آخرون لمحمود وشجاع هما : "سلطان علي" و "أيوب" فقد استطاعا أن يليا الحكم بضعة أشهر في سنة ١٨١٨ م (١٢٣٣ هـ) .

الغزو الإنجليزي لأفغانستان :

بدأت أطماع الإنجليز تمتد إلى أفغانستان بحجة المحافظة على الهند وقاموا بحملة عليها سنة ١٨٣٩ م لأهم كانوا يتوجسون خيفة من الروس ومن أطماعهم فيها لقربها منهم . غير أن الأفغان قاوموا الاستعمار الإنجليزي بشدة ، وحاول الإنجليز مناصرة فريق علي آخر من الأخوة الطامعين في عرش البلاد وحاولوا إجلاس الشاه شجاع الملك على العرش سنة ١٨٣٩ م ، وكانت هذه هي المرة الثالثة الذي اعتلى فيها كرسي السلطنة .

لكن الأمر لم يستمر له طويلاً حيث قتله الشعب الأفغاني ، واتجه الأفغان بقوة إلى الجيش الإنجليزي سنة ١٨٤١ م وكان مكوناً من ١٧ ألف جندي وهزموه هزيمة منكرة لدرجة أنهم أفنوا هذا الجيش عن آخره وثبتوا ملكهم الجديد وهو "دوست محمد خان" على العرش سنة ١٨٤٢ م وظل فيه حتى سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ) ^(١) حيث توفي في الثانية والتسعين من عمره .

وتاريخ أفغانستان بعد "دوست محمد" هو تاريخ جهاد خلفائه في الاحتفاظ بالتاج والعرش وتوسيع البلاد وتنظيم الإدارة ، فقد حافظ دوست علي علاقاته الطيبة مع الإنجليز ، وكان دوست ملكاً صالحاً على الرغم من أخطائه وهو الرجل

(١) شكيب أرسلان ، ماضى الزمان الإسلامي ، المجلد الأول ، ج ١ ، ص ١٩٧-١٩٨ .

الذي استطاع أن يقيم في أفغانستان حكومة وطيدة الأركان ، وقبل وفاته في عام ١٨٦٣م كان قد عهد لخامس أبنائه وهو "شير علي" بالحكم ، إلا أن فتنة قد شبت بينه وبين أخويه الأكبرين "محمد أعظم" و "محمد أفضل" ومع "عبد الرحمن بن محمد أفضل" .

إلا أن "شير علي" تمكن من السيطرة على أفغانستان كلها ، واعترفت به حكومة الإنجليز في الهند ، على أنه لم يرض عن المعاملة التي عومل بها من الإنجليز ، وذلك أنه لم يستطع الحصول على وعد محدود بتأييده على الدول الأخرى وخاصة في نزاعه مع فارس على منطقة "سجستان" ، فقد قام ضابط بريطاني بالتحكيم في مسألة حدود "سجستان" وانتهى هذا التحكيم سنة ١٨٧٣م بمنح فارس جزءاً كبيراً من أخصب الأراضي^(١) .

كان هذا الموقف الانجليزي سبباً في اتجاه "شير علي" إلى الروس فبدأ يفاوضهم ورفض أن يستقبل سفير بريطانيا ، وأدت هذه الأمور إلى قيام حرب بينه وبين الجيش البريطاني استمرت من سنة ١٨٧٨م إلى سنة ١٨٨٠م . وانتهت باستيلاء الجيش البريطاني على "كابل" وهرب "شير علي" إلى "مزار شريف" حيث توفي سنة ١٨٧٩م بعد هزيمة جيشه على يد الإنجليز وأطلق الشعب سراح ابنه "محمد يعقوب" من السجن ونودي به أميراً على أفغانستان ، فتقابل الأسير الجديد مع القوات البريطانية المتقدمة وعقد معها معاهدة في ٢٦ مايو ١٨٧٩م تنازل بمقتضاها لحكومة الهند البريطانية عن أرض معينة بالقرب من ممر "بولان" ودادي "كوم" ووافق على أن يستقبل بعثة بريطانية في كابل .

لكن بعد أشهر قليلة شبت فتنة في "كابل" انتهت بذبح أعضاء هذه البعثة التي أرسلها الإنجليز ، وأدى ذلك إلى قيام الحرب من جديد ، فاستولى الإنجليز مرة

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مرجع سبق ذكره ، مادة أفغانستان .

آخرى على "كابل" وخلعوا "يعقوب خان" ونفوه إلى الهند ونصبوا مكانه عبد الرحمن بن محمد أفضل بن دوست .

ولقد عاش الأمير "عبد الرحمن خان" هذا قبل توليته منفيًا في "سمرقند" التي كانت تحت يد الروس ، وكان قد ذهب إلى هذه المدينة منذ سنة ١٨٧٠ م ، وكان يحصل سنوياً من الروس على ٢٥ ألف روبل كمساعدة ومعاش له ، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان متيقظاً عالماً بتاريخ الروس ويعلم جيداً أهداف ونوايا الروس في أفغانستان ، وكان يعلم أيضاً أن الاعتماد على الروس والصدقة معهم خطأ ، ومن ثم كانت أهم مساعيه منذ تسلم الحكم أن يمتنع عن الارتباط بأي نوع من العلاقات مع الروس وأعطى أوامره الصارمة إلى حراس الحدود الأفغان أن يراقبوا بشدة ذهاب وإياب الروس على الحدود ، وأن لا يأذنوا لأحد منهم مطلقاً أن يدخل الأراضي الأفغانية ^(١) .

وبعد تسولي "عبد الرحمن" الحكم بدأ الصراع بينه وبين ورثة "شير علي" ، فجاء ابن من أبنائه هو "أيوب" وجمع جيشاً وهزم به قوة إنجليزية هندية صغيرة ، إلا أن الجيش الإنجليزي هزمه ودعم موقف عبد الرحمن في البلاد ، وقد حافظ "عبد الرحمن" على وحدة أفغانستان واستقلالها على الرغم من المشاكل التي صدفته في الداخل والخارج ، فلما أدركته المنية سنة ١٩٠١ م سلم ابنه "حبيب الله" الحكم فأصبح ملكاً على أفغانستان لا ينازعه فيها منازع .

عصر حبيب الله خان (١٩٠١ - ١٩١٩ م) :

تسلم حبيب الله خان حكم أفغانستان بعد والده عبد الرحمن سنة ١٩٠١ م في وقت كان التنافس فيه بين الإنجليز والروس شديداً ، ولكن مما أزال المخاوف ظاهرياً أمام "حبيب الله" أن الدولتين الروسية والإنجليزية عقدت معاهدة بينهما ألا

(١) انظر كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" لمؤلف مجهول ، ترجمة د. عفاف زيدان ، مرجع سبق ذكره ،

تضم أي دولة منهما أراضي من أفغانستان أو تتدخل في شئونها ، ومن جانبه أيد الأمير في سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) المعاهدة التي سبق أن عقدها أبوه مع حكومة الهند البريطانية الأشراف على العلاقات الخارجية لأفغانستان نظير إعانة سنوية قدرها ١٦٠ ألف جنيه إنجليزي .

أما في الداخل فلم يعكر شيئاً تقريباً صفو السلام والأمن ، وحقق التعليم بعض التقدم ، والتزمت أفغانستان أثناء الحرب العالمية الأولى سياسة الحياد ، واجتهد "حبيب الله" ألا يقترب من الروس ، وكان الروس في هذه الفترة متجهين إلى إيران ، ونزلت قواته بكثافة في إيران ، ومع أن الإنجليز كانوا تعاهدوا بالحفاظ على إيران ، إلا أنهم غضوا الطرف عن العدوان وهذه التجاوزات ، ولم ينبسوا ببنت شفة ضد الروس^(١) .

أما بالنسبة لإيران وحقوق الإسلام وحقوق الجوار فقد كان الوضع كما هو عليه المسلمون الآن تجاه قضية أفغانستان ، ففي الوقت الذي ساء فيه الروس مشغولين بالقتل والعدوان والأعمال الوحشية ، كان المسلمون في كل أنحاء العالم في وضع المتفرج ، وفي بعض الأحيان كانوا يظهرون التأثير بالأقوال فقط ، هؤلاء هم المسلمون ينظرون والروس منصرفون إلى القتل والنهب ، وكأن الروس قد أدركوا هذا الوضع جيداً في ديار المسلمين منذ بداية ضعفهم والانصراف إلى أنفسهم وعدم الاتحاد والتعاون بينهم ، فكانت كل دولة بمفردها والآخرين منصرفون في غير اكتراث ولا مبالاة ، وكانت قوى الاستعمار تستفيد بكل ما كانت تملكه من مكر وحيل ، وضربت الدول الإسلامية ببعضها ، ثم أظهروا أنفسهم على أنهم أهل المروءة الذين يحرسون على عدم قلق المسلمين بالخدع والجرائم ، مع أن الاستعمار في ذلك

(١) العلاقات الأفغانية الروسية ، للمؤلف مجهور رمز إلى اسمه بـ "حق شناس" ترجمة د. عفاف زيدان ، نشر دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة سنة ١٩٩٢م ، ص ١٠١ ، وذكرت المترجمة بشأن إخفاء اسم المؤلف ما يلي : "اضطلع بتأليف هذا الجهد الكبير أحد المجاهدين بالقلم ، ولم يشأ أن يذكر اسمه وإنما استعار له اسماً هو : "حق شناس" ربما لظروف اقتضتها طبيعة الجهاد الأفغاني " ، ص ١٤ .

الوقت كان في خوف من الإسلام واتحاد المسلمين على نحو ما يحدث اليوم من القلق الذي ينتاب جميع أنحاء العالم خوفاً من صحوة الأمم الإسلامية ، وتعاون الدول الاستعمارية وتبذل أقصى جهدها في سبيل إضعاف المسلمين والقضاء على قوتهم^(١).

وزادت أساليب الجاسوسية وانتشرت للروس الحدود لإثارة الاضطرابات في عهد الأمير حبيب الله خان ، وإليك نماذج مختصرة من هذه الأساليب الاستعمارية :

حاول الروس نشر منظمات الجاسوسية للوصول إلى أغراضهم في أفغانستان وهيئة الأرض لتطبيق مخططاتهم الاستعمارية ، فبدأوا في التعرف على أوضاع البلاد وأحوال أهلها ، وأيضاً خصوصيات المجتمع والنواحي الثقافية والجغرافية ، ويحاولون تجنيد الأفراد لخدمتهم والتعاون معهم حتى الثقافة والجغرافية ، ويحاولون تجنيد الأفراد لخدمتهم والتعاون معهم حتى يكونوا في المستقبل مرشدين وفاقين الطريق لهم ، وهذا الأمر من بديهيات المدرسة الاستعمارية الروسية ، وتحت اسم التبادل التجاري تتوغل روسيا حتى تصل إلى المسائل الثقافية والاقتصادية والعسكرية ، ثم تهوى مخططات للانقلاب وتضرب المؤسسات الوطنية وتسقط الحكومات وتوصل العملاء المأجورين الذين أدوا الخدمة للروس عن طريق الجاسوسية .

ومن حملة الوسائل التي استفاد بها الروس في شباك الجاسوسية المال والنساء والرشوة والتظاهر باعتناق عقائد الآخرين .

وفي عهد الأمير "حبيب الله خان" استخدموا أساليب متنوعة في الجاسوسية كما يقول صاحب كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" ، فقد دخلوا إلى أفغانستان بطرق مختلفة وفي ألبسة متنوعة فقد نشرت مجلة "سراج الأخبار" ما يلي :

"من مدة يدخل الروس إلى أرض أفغانستان الدهرة بأشكال وهيئات مختلفة، ولما وجدوا أن أسهل طريق هو طريق الإسلام ، فقد احتالوا على الدخول باعتناق الإسلام مع أن اعتناق الروس للإسلام بعد الآن من المستحيلات ، إذن فقد كان

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

مقصدهم الوحيد أن يعبروا من تركستان حتى يلاحظوا بدقة الطرق والمعابر في وادي خيبر ، ويأخذوا معهم ما جمعوه من المعلومات اللازمة ، وفي غاية الراحة والسهولة كانوا يوفقون في تحقيق هذا المقصد ، لأنهم حينما كانوا يعبرون من نهر "آمو"^(١) كان الموظفون الأفغان يصحبونهم إلى كابل في ظل حراستهم"^(٢) .

وقد سقط عدد كبير من جواسيس الروس في قبضة أفغانستان ، لكن الروس كانوا يغطون هذا بالحيلة والمكر والدهاء حتى لا ترفع أفغانستان رأسها بالشكوى والعتاب ، وكانوا من آن لآخر ينشرون في جرائدهم أخبار كاذبة بالقبض على جواسيس أفغان في روسيا مدعين أن المتهمين كانوا يقصدون مد أفغانستان بالخرائط والنظم العسكرية للحدود .

وحقيقة الأمر أن الروس كانوا يقبضون في روسيا وتركستان على عدد من الأفراد الثائرين ضد الدولة الذين ينادون بالحرية ، ولهذا السبب كانوا يقبضون عليهم وأقل جزاء لهم هو النفي إلى سيبيريا .

وكانوا يتجسسون على علاقات الأمير "حبيب الله خان" بجيرانه والدول المجاورة حتى يعرفوا ماهية هذه العلاقات ، وكانت روسيا تريد أن تنفذ إلى التعليم في أفغانستان وخاصة التعليم العسكري ، لكن الجرائد الأفغانية كانت تقول :

"إننا لا نستطيع أن نتعلم العلوم والفنون الحربية والعسكرية من دولة مجاورة بأي وجهة ، ويجب أن نتصور أن جلب ضباط من هناك هو هلاك لأنفسنا ؛ لأن الفرق التي رباها الروس في إيران تعتبر درساً عظيماً وعبرة عظيمة "^(٣) .

(١) آمو : نهر عرفه اليونان باسم أكوس ، وعرفه العرب باسم "جيحون" ، وهو أهم الأنهار في آسيا الوسطى ، ينبع من جبال بامير ويصب في بحيرة أورال ، وقد أطلق العرب اسم "بلاد ما وراء النهر" على البلاد التي تقع خلف هذا النهر وهي البلاد الإسلامية المعروفة ببلاد التركستان ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٣ .

ولم يأس الروس ويبدلوا المساعي في عهد الأمير "حبيب الله خان" لإيجاد طريق إلى أفغانستان ، ومن بين هذه المساعي : العمل على إنشاء خط حديدي في أفغانستان يمتد إلى أوروبا ، وفي أكثر المشروعات كان كل من الإنجليز والروس يقترحون اقتراحاً وحيداً مشتركاً ، وكان ذلك دليلاً بارزاً على اتحاد نظرهما ومنافعهما المشتركة ، لكن هذه المخططات فشلت ومقترحاتهم ردت ، وكان الأمير "حبيب الله" صامداً في ثبات وصلابة أمام الروس ، فكان يقف ويقاومهم في صراحة وشجاعة ، وفشل الروس في عملهم الدؤوب للإيقاع بالأمير في الشباك والتسلل بين الناس .

لكن الروس استطاعوا أن ينتصروا في النهاية على الأمير عن طريق العلاقات التجارية ، وقد دعم الروس شبكات الجاسوسية الخاصة بهم عن طريق التجارة ، وأعطوا امتيازات كثيرة للتجار الأفغان ، وكانوا يعملون على تخفيف الضرائب والأموال التي تحببها الدولة من التجار ، وبهذا ارتفعت أرقام تجارة أفغانستان مع روسيا إلى أعلى رقم حتى أنه في عام ١٩٠٤م كان ميزان التجارة مع الروس قد وصل من حيث الواردات إلى خمسة ونصف مليون روبل ، ومن حيث الصادرات وصل إلى أربعة وعشرين مليون روبية ، أي ثمانية ملايين روبل ، وكانت السلع التي تصدر إلى الروس عبارة عن : الصوف ، والقطن ، والفاكهة الجافة والطازجة ، أما السلع التي كانوا يوردونها فهي عبارة عن القطع الحريرية الموشاة بالذهب ، والصوف والأزمنوم ، والزجاج ، والحلويات ، والعطور ، والأحذية الطويلة الخاصة بالثلوج ، والأحذية العادية ، وأشياء أخرى مثل الساعات وأمثالها .

ونظراً لصمود الأمير "حبيب الله خان" أمام المطامع الروسية والإنجليزية ، فقد تم اغتياله بصورة غامضة في مدينة "لقمان" يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٣٧هـ (٢٠ فبراير سنة ١٩١٩م) وكان في هذه الفترة في معسكره في قلعة "كوش" .

ويرى مؤلف كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" أن قتل الأمير حبيب الله مهما كان الدافع له والباعث عليه ، ومهما كانت يد الشخص التي نفذت هذا فإن بريطانيا وروسيا كلاهما قد اشتركت في هذه المؤامرة ، وكانت أهم البواعث على القتل هي الخوف من تنفيذ اتحاد الممالك الإسلامية ^(١) .

وصفوة القول أن الأمير "حبيب الله خان" كان أكثر الناس احتياطاً في علاقاته مع الروس ، واستفاد من الخبراء والمهرة والأترار في المشروحات العسكرية والصحية والاجتماعية والطباعة ، وحتى آخر دقيقة لم يسمح لأي روسي أن يدخل أفغانستان تحت اسم هذه الوظائف ، ولكن إقرار العلاقات التجارية مع الروس قد حطم هذا السد ، وهياً أجمل طريق وأحسن فرصة كان الروس في انتظارها منذ سنوات واستغلوا أبشع استغلال حيث كانت نهاية الأمير الخزنة والذي صمد في وجههم طويلاً .

وبعد اغتيال "حبيب الله خان" نادى أخوه "نصر الله" بنفسه خليفة له ، ولكن الابن الثالث للأمير الراحل واسمه "أمان الله" اعتقل عمه وسجنه وكان "أمان الله" قد حصل على تأييد من الجيش .

عصر الأمير أمان الله خان :

تولى "أمان الله خان" أريكة السلطان إبان الحرب الثالثة التي كانت دائرة بين الأفغان والإنجليز ، وكانت متاعب الأفغان على أشدها ، ووصل بؤس الشعب وشقائه إلى غايته ، لكن "أمان الله خان" سعى بعد شهر فقط من تعيينه إلى عقد هدنة مع الإنجليز ، واعترف الإنجليز رسمياً له باستقلال أفغانستان ، كما نجح في عقد معاهدة جديدة مع الاتحاد السوفيتي ، ومع ذلك استمر التوتر على الحدود الشمالية حتى سنة ١٩٢٢م ، وعلى الحدود الجنوبية الشرقية حتى سنة ١٩٢٤م ، وفي سنة ١٩٢٢م صدر الدستور الأفغاني في جمعية وطنية ، أعقبه في سنة ١٩٢٣م القانون

(١) المرجع السابق : ص ١١٥ .

الخاص بإدارة البلاد ، وفي سنة ١٩٢٤م قامت إجراءات لتوفير التعليم العالي للمرأة.

لكن قامت ثورة شعبية بزعامة "الملا عبد الكريم" ألغت إجراءات توفير التعليم للمرأة ، وعدلت قوانين التجنيد ، لكن الثورة أخذت في نهاية الأمر على أن الملك "أمان الله" اتخذ لقب الملك في ديسمبر سنة ١٩٢٦م^(١).

ولقد دعى "أمان الله خان" لعقد جمعية وطنية ثالثة بعد عودته من رحلة زار فيها كلاً من الهند وأوروبا والاتحاد السوفيتي وتركيا سنة ١٩٢٨م ، وتم إصدار دستور جديد للبلاد وإعلان برنامج للإصلاحات الاجتماعية والتعليمية .

وكان الأمير "أمان الله خان" نقطة تحول في تاريخ العلاقات السياسية الأفغانية الروسية ، فقد اتصل بالزعيم الشيوعي "لينين" عن طريق الرسائل والرسائل ، وبذلك هيا الفرصة لدخول الروس أرض أفغانستان وتحقيق أحلامهم القديمة ، وكان بذلك "أمان الله خان" أول حاكم لبلد إسلامي يبعث بمبعوث ومراسلات إلى موسكو بعثة برئاسة "محمد ولي خان" وغادرت هذه البعثة كابل في سنة ١٩١٩م ووصلت إلى موسكو في أكتوبر من العام نفسه ، واستقبلت البعثة استقبالا حافلاً من قبل مسئول الحزب عن الأمور الخارجية الذي قال لمحمد ولي خان : "إننا نعلم أنكم تحتاجون إلى المساعدة الخارجية الذي قال لمحمد ولي خان : "إننا نعلم أنكم تحتاجون إلى المساعدة ، وروسيا مستعدة أن تعاونكم " ، وأظهر محمد خان الامتنان في الجواب، وبعد إظهار التمنيات الطيبة من أجل "لينين" قال : "إننا محتاجون جداً لمساعدة روسيا ونعلم أن مسلمي روسيا يتمتعون بالحرية الآن"^(٢).

وفكرت روسيا منذ بداية عهد أمان الله خان في المساعدات العسكرية لكي تصل إلى جيش أفغانستان ، فأرسلت بعثة روسية إلى كابل ومعها مذكرة أبدى فيها

(١) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأمر الحاكم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٥٨ .

(٢) العلاقات الأفغانية الروسية ١٨٢٦-١٩٨٤م ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ .

الروس استعدادهم أن يمدوا أفغانستان بالمال والسلاح والمهمات والمساعدات العلمية على أن تكون أفغانستان مستعدة للتعاون والاشتراك مع الروس ضد بريطانيا، ولقد وصف صاحب كتاب العلاقات الأفغانية الروسية هذه الخطوة بقوله : "إن إقدام الروس على تلك البداية كان بمثابة الخيط المتين الذي كانت تهدف روسيا إلى أن تقيد به إقدام رجال الدولة في أفغانستان وتستفيد من أهل بلادنا في تشييد آمالها الاستعمارية في المنطقة ضد بريطانيا " .

وكان ميل "أمان الله خان" إلى الروس وآماله في الصداقة مع الاتحاد السوفيتي لا يرجع إلى حماية الروس لاستقلال أفغانستان ، ولكن لأن الروس في تلك الأيام برزت لهم مشاكل بعد الثورة ، وكان هذا الأمير المغرور المستبد يندفع فقط في عواطفه للقرب من الروس والصداقة معهم ، وكان يتظاهر باتخاذ موقف ضد الإنجليز وأرسل "لينين" رسالة أخرى لـ "أمان الله خان" ، وعين "براوين" قنصلاً لروسيا في أفغانستان ، وكان من الروس البيض (أي من روسيا البيضاء) ، ولم يكن متفائلاً بالنظم الروسية الجديدة ، وكان يحذر "أمان الله خان" من القرب من الروس ، واستقال من منصبه بعد عام وطلب الجنسية الأفغانية ، لكنه قتل في "غزنة" بتوصية من الروس وبمساعدة أفغانستان .

وفي الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٢١م وقع "أمان الله خان" أول معاهدة بين أفغانستان والاتحاد السوفيتي ، وفي السابع من نوفمبر ١٩٢٦م وقع "أمان الله خان" معاهدة أخرى تنص على حياد أفغانستان ، وكان الذي قام بعقد هذه المعاهدة وزير خارجية أفغانستان "محمود بك الطرزي" ، وسميت هذه المعاهدة بـ "معاهدة بقرمان للحياذ وعدم الاعتداء" ، ونصت المعاهدة في المادتين الثانية والثالثة على أن أي نوع من التدخل المسلح وغير المسلح وإلحاق الضرر العسكري والسياسي بأحدهما للآخر يعتبر مرفوضاً ، وأيضاً أبدت أفغانستان رسمياً في هذه المعاهدة رغبتها في بقاء الدول الإسلامية حرة ، ومنها "سلطنة خيوة" و "بخاري" ،

ولكن لم يمض زمن طويل حتى نقض الروس هذه المعاهدة واستولوا على "خيرة" و "بخاري".

وكان رد فعل "أمان الله خان" على احتلال بخاري الذي أغضب المسلمين في أفغانستان هو أنه أرسل المساعدات العسكرية لهذه الدولة ، ولكن هذه المساعدات كانت قليلة ، ولذلك لم يكن لها أي تأثير ، وأجبروا "سيد عالم شاه" ملك بخاري على أن يرحل إلى "كابل" وظل بها حتى مات (١).

أفغانستان بين العلمانية والإسلام :

أما علاقة "أمان الله خان" بالإنجليز فقد كان متفاهماً معهم ، وكان هو أحد ثلاثة في الشرق يعول عليهم الغرب ويعقد عليهم آمالاً كبيرة في التغير العلماني ، والثاني هو "مصطفى كامل" في تركيا الذي كان معاصراً له ، والثالث هو "رضا بهلوي" شاه إيران ، فقوى علاقته بهما ، ومنحه الإنجليز استقلالاً مزيفاً لأنه شجع العلمانية منذ عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) ، ومضى قدماً في تغريب البلاد ، فأعلن سفور المرأة ونادى بتحريرها ، وكان شاباً طموحاً لا يعبأ بالشعب .

واستاء الناس من "أمان الله خان" بعد فترة قليلة ، وأخذ إحساس الناس بالنفور منه يتزايد بعد أن شاع بينهم أنه كان له يد في مقتل أبيه ، ولكن كانت لديه براعة في الاندماج مع الناس ومحاربه للفوضى والفساد الإداري الذي كان قد ظهر في أواخر أيام والده "حبيب الله خان" ، وكل هذا هياً له الفرصة بالتمتع بمكانة خاصة عاماً أو عامين بين أهل "كابل" خصوصاً الشباب وطبقات المثقفين ، ولأنه اهتم بالمؤسسات التعليمية والتربوية .

وكان يحاول أن يقضي على مشاكل الناس عن طريق الأعراف والتقاليد القبلية ، ولذلك كون مجلساً كبيراً برئاسته ضم بعض قادة القبائل ، وقد أطلق على

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢-١٢٣ .

هذا المجلس "المجلس الكبير" ، ويضم أعضاء البرلمان وأعضاء مجلس القضاء الأعلى ومجلس الوزراء وقرارات هذا المجلس نهائية .

وسافر "أمان الله خان" إلى إيطاليا هو وزوجته الملكة "ثرية" عام ١٩٢٧م وسافر إلى الهند في نفس العام ومصر وفرنسا وسويسرا وبلجيكا وألمانيا وبريطانيا وبولندا وتركيا ، واستغرقت هذه الرحلة من ديسمبر ١٩٢٧م حتى يوليو ١٩٢٨م ، وبقي "أمان الله خان" في روسيا مدة طويلة ، وعند عودته أطلق يده في مشروعات سريعة وخطيرة عندما رأى التقدم العلمي والفني لدى هذه الدول ، وأسرع في النهوض بأعمال كان قبولها في المجتمع الأفغاني غير ممكن ، ولم يراع الظروف الاجتماعية في أفغانستان ، فعلى سبيل المثال :

- ١- اختياره ليوم الأحد ليكون إجازة بدلاً من يوم الجمعة مقلداً بذلك "مصطفى كامل أتاتورك" .
 - ٢- فرض التقويم الميلادي بدلاً من التقويم الهجري .
 - ٣- فرض على الناس أن يكون تجواهرهم في المدينة بلبس القبعة الأفرنجية .
 - ٤- أمر الناس بأن يكون رفع القبعة دليل على التحية بدلاً من السلام .
 - ٥- أمر بخلع الحجاب وهذا الأمر لم يستطع الناس أن يتقبلوه ، ورفعت الملكة "ثرية" النقاب عن وجهها ، وظهرت في المجتمعات بوجه عاري لأول مرة ، وأمر "أمان الله خان" أن يتخلى الناس جميعاً عن أزيائهم المحلية والدينية ويرتدوا الحلة ورباط العنق والقبعة .
- وفي أعقاب هذا الأمر قبض رجاله على كل من يرتدي العمامة ومزقوا عمامتهم ، وفي سلسلة هذه التغييرات أرسل عدداً من الفتيات للدراسة إلى الخارج .
- وتسببت هذه الأعمال في إثارة غض الناس ونفورهم ، واعتبروها خرجاً على قيمهم الوطنية ودينهم ، وبلغ ضيق الناس وترمهم منه إلى الذروة في جميع أنحاء أفغانستان .

ونتيجة لأعمال "أمان الله خان" التي تتنافى مع السنين والقيم والمقبولة اجتماعياً وكذلك محاكاته للتقاليد الأوربية التي لا أساس لها ثم التحلل من القيم الأخلاقية والاجتماعية ، نتيجة لذلك ثار ضده أهالي أفغانستان في "منجل" و "خدران" سنة ١٩٢٣م ، واستمرت ثورتهم عاماً كاملاً ، ولكن في النهاية قضى على ثورتهم ، وتم إعدام الكثير منهم ، وكانوا لا يملكون سلاحاً كافياً للمقاومة ، ولكن استمر غضب الناس وعصيانهم .

وفي شتاء عام ١٩٢٨م بدأت مدينة "جلال آباد" ومدينة "شينوار" في الثورة ، وامتدت الثورة إلى "بروان" و "كاييا" واحتل عدد من الفلاحين والعياريب مدينة "كابل" تحت قيادة زعيم لهم يسمى "حبيب الله كلكاني" ، وفي يونيو ١٩٢٩م دخلوا القصر الملكي ، وكان العلماء المجاهدون في أفغانستان هم الذين دعوا إلى الثورة ، وأول من رفع راية الجهاد ضده "الملا عبد الله" الأعرج ، ومعنى الملا في أفغانستان أي الشيخ ، و "محمد أفضل خان" ، ثم دخلت عائلة المجددي ساحة المعركة بقيادة المخفور له "محمد صادق خان المجددي" والمرحوم "محمد معصوم خان المجددي" وانضموا واتحدوا مع العالم المستفيد والفقير المعروف القاضي "عبد الرحمن خان اليغماني" الذي كان يرأس محكمة النقض ، فقاد هؤلاء الثورة ضد "أمان الله خان" وقد قبض عليهم جميعاً بواسطة جنود "أمان الله خان" وأحضروا إلى "كابل" ، وتم إعدام القاضي "عبد الرحمن خان" واثنين من أبنائه وابن أخته بصورة وحشية مفاجئة واستمرت محاكمة عائلة المجددي ، لكن هجم أهلهم وأنصارهم على "كابل" وأجبروا "أمان الله خان" أن يفرج عنهم ويعتذر لهم ، وبعد ثورة الأهالي ضد أمان الله خان التي صاحبها القمع والتعذيب والإرهاب والتي قتل فيها مئات من العلماء والفضلاء انضم الناس إلى صفوف قائد الثورة "حبيب الله الكلكاني" وفضلوه على "أمان الله خان" ، وترك "أمان الله خان" القصر الملكي وذهب إلى "قندهار" وظل فيها حتى وعده الروس بالمساعدة ، وأرسلوا إليه عدداً من الجنود مع سفير أفغانستان في "كابل" ، وقام

الروس بقصف نواحي "مزار شريف" و "حياة آباد" و "أبيك" و "تاشقر غان" ، وأصدر علماء الدين فتوى بالجهاد ، وعلى إثر هذه الفتوى بدأ الناس وطلاب المدارس يرتدون الأكفان ويذهبون إلى الجهاد مكتحلي الأعين معطري الأجساد مفتخرين بارتداء خلعة الشهادة .

وفضل العلماء ومشاهير أفغانستان "حبيب الله الكلكاني" على "أمان الله خان" وشرفوه بلقب خادم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعوا على رأسه تاج الملك ، وهرب "أمان الله خان" إلى روما وظل منفيًا بها ، ولكنه كان خاليًا من الخبرة ، وليس لديه تجارب كافية ، وجمع حوله عددًا قليلًا من الأفراد لديهم خبرة أو تجربة ، فلم يستطع أن يهدأ الأوضاع الثائرة في البلاد ، ولكن الذين أحاطوا به - وكانوا رفاقه ومساعديه في الثورة - قد أطلقوا أيديهم في أعمال أضرت بسمعته ، وعلى الرغم من أن "حبيب الله" كان واحدًا من العيارين في القرن العشرين الذين يثورون في وجه الطغاة الظالمين ، وكان النصر حليفهم ، ويرى البعض أن "حبيب الله" هو أول شخص وضع الأساس لثورة الشعب في أفغانستان ، لكن الروس والإنجليز عملوا على القضاء على نظام حكمه ، لأنه كان سيؤول إلى حكومة شعبية مستنيرة .

ولكن حبيب الله هذا كان مثل الشوكة في أعين الإنجليز ، ولهذا السبب كانوا يبحثون عن شخص جديد لا يستطيع أن ينفذ أوامر لندن ، ولذلك خلعوا "حبيب الله الكلكاني" بعد تسعة أشهر ، وأجلسوا "محمد نادر شاه" على أريكة الملك - وهو ابن "أمان الله خان" - الذي لم يستمر في الحكم طويلاً حيث اغتاله أحد طلاب الكلية الحربية ، فانتقل الحكم إلى ابنه الوحيد "محمد ظاهر شاه" وهو في سن المراهقة ، وفي عهد هذا الملك الصغير قويت علاقة أفغانستان مع روسيا ، حيث تولى رئاسة الوزراء رجل طموح هو "محمد داود" ابن عم الملك المعروف بميوله الشيوعية ، ومن ثم فتح البلاد على مصراعيها أمام الروس ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً ، وتدفق

تاخبراء الروس إلى البلاد ، وأرسلت أفغانستان مئات الطلاب إلى روسيا سنوياً ليتعلموا وخاصة في المجال العسكري الذي احتكره الروس في أفغانستان تدريباً وتسليحاً ، ومن هنا قويت أطماع الروس في البلاد ^(١) .

وقد قام جواسيس "محمد داود" بأنشطة واسعة النطاق وخاصة الشباب المستنير ، وفي أثناء هذه الأحداث نهضت جماعة من المستنيرين المحبين للوطن المتحمسين له ، فأقاموا الندوات والمحاضرات في كل مكان ، وأطلقوا على "محمود خان" رئيس الوزراء المخلوع "أبى الديمقراطية" .

وبدأ "محمد داود" يجمع الأفراد حوله خصوصاً الوجهاء وذوي النفوذ وكل من يتفق معه في آرائه ونظرياته ، وبذلك يستطيع أن يوطد روابطه بمؤسسات الدولة والبرلمان ، وأنشأ لهذا الغرض نادياً يسمى النادي الوطني وأعلن أن أهداف النادي الوطني ، وأعلن أن أهداف النادي المذكور هو تأمين الوحدة الوطنية .

ولم تكد تمضي ستة أشهر على وزارة "محمد داود" حتى أطلق الروس أيديهم في أعمال أساسية ومشروعات بنائية ، وأنجزوها في سرعة وعجلة عجيبة ، وتم توقيع بروتوكول التجارة بين البلدين لمدة ثلاث أعوام واستقبلته الجرائد استقبالاً لم يسبق له مثيل ، وفي سنة ١٩٥٤م تم إنشاء مخزين آليين بقرض من روسيا .

ولكن باكستان وأمريكا كانتا قلقتين من تغيير الأوضاع في أفغانستان ، والتقارب الزائد عن الحد بين "محمد داود" والروس ، وخصوصاً ما كان يتم في الخفاء من أحداث ، وقد أدى هذا إلى تصميم باكستان على طلب حماية أمريكا ، وكانت أمريكا أيضاً ترى أن مصالحها في خطر بالنسبة لنفوذ وتقدم الروس في المنطقة ، فكان لابد لها أن تساعد باكستان في المسائل العسكرية ، ومن ثم وقعت أمريكا معاهدة سنة ١٩٥٤م بينها وبين باكستان تعهدت فيها أمريكا بتدريب العسكريين الباكستانيين وتهيئة الوسائل الحربية لهم .

(١) انظر للمؤلف كتاب "المسلمون في آسيا الوسطى وإيران" ص ١٨٩-١٩٠ .

بداية التنظيمات الشيوعية في أفغانستان :

وبدأت التنظيمات الشيوعية تعمل في أفغانستان ، وكان "محمد داود" خير نصير لها ، ففي سنة ١٩٤٧م أسس الشيوعيون جماعة "ویش زلمیان" أي "جماعة الشباب اليقظ" ، ومارست نشاطها ، وأصبح لها وجود في البرلمان ، وأصدرت صحيفة "نداء خلق" أي "صوت الشعب" ، وعندما اشتد ساعدتهم قاومتهم الحكومة وعطلت صحيفتهم ، غير أنه عندما أصدرت الحكومة قانون الصحافة الحرة سنة ١٩٦٠م تشجعت الحركة الشيوعية ، وأخرجت صحيفة "خلق" أي "الشعب" . ورأس تحريرها "نوار محمد ترافي" ، الذي تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد ، وكانت هذه الصحيفة لسان حال الحزب الشيوعي في البلاد ، الذي عرف منذ ذلك الوقت باسم "حزب خلق" ، وعلى الرغم من أن الملك جرد "محمد داود" من منصبه سنة ١٩٦٤م ، عقب إجراء تعديل دستوري ، إلا أن سلطته ظلت قوية في البلاد لمنصرة الشيوعيين له وأخذ يعمل سرّاً من أجل قلب نظام الحكم .

الانقلاب الشيوعي في أفغانستان :

وفي ١٧ من يوليو عام ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ) قام "محمد داود خان" مع أنصاره بانقلاب أنهى به الحكم الملكي ، وأعلن الحكم الجمهوري ، وأصبح "محمد داود" أول رئيس للجمهورية الأفغانية ، التي أطلق عليها زوراً "جمهورية أفغانستان الإسلامية" ، وعلى إثر قيام هذا الانقلاب تولى الشيوعيون أهم المناصب ، وقاموا بالدعاية للنظام الجديد ، وتمكنوا من البلاد في عهد جمهورية محمد داود ، وخاصة في مجال الاستخبارات والجمال العسكري ، ولم يكن الشيوعيون مخلصين لمحمد داود بقدر إخلاصهم لموسكو^(١) .

وكان بالبلاد تنظيم إسلامي قوي لجماعة إسلامية ، استمدت تنظيمها من « جماعة الإخوان المسلمين المصرية ، وأطلقت على نفسها "الجمعية الإسلامية الأفغانية" ،

(١) جريدة الشرق الأوسط السعودية ، عدد ٤٥٧ بتاريخ ١/١/١٩٨٠م .

وأنشأها شاب من خريجي الأزهر هو "غلام محمد نيازي" ^(١) سنة ١٩٥٩م ، وآثرت هذه الجمعية أن تعمل في السر نحو عشر سنوات ، ونشط فرعها الطلابي في الجامعة باسم "الشبان المسلمون" ، واستطاعوا أن يخلصوا الجامعة من سيطرة الشيوعيين ، ومن ثم عمل "محمد داود" قبل قيامه بالثورة حسابهم ، فاستمال أنصارهم في الجيش والحياة المدنية ، وأغراهم بأنه سيقم حكماً إسلامياً إصلاحياً ، ولكن عندما بدأ يحس باستقرار وضعه ، ألغى من اسم جمهوريته عبارة "الإسلامية" ، واكتفى باسم "جمهورية أفغانستان" ، وبدأ يعين الشيوعيين في مواقع السلطة ، فعارضه زعماء الحركة الإسلامية ، وشنوا عليه هجوماً بلا هوادة ، وقالوا بأنه غير مؤهل لقيادة جمهورية إسلامية كما ادعى من قبل ، وقالوا بأنه تربى في فرنسا ، في أحضان الحاقدين على الإسلام ، وكان معروفاً بالظلم منذ تولى المناصب ، ومكن الشيوعيين بعد انقلابه على ابن عمه ، فأعلن داود أن زعماء الاتجاه الإسلامي أعداء للثورة ، وزج بهم في السجون ، وكانت هذه الردة هي التي مكنت للشيوعيين بدرجة أكثر من ذي قبل .

وخشيت روسيا من قوة الحركة الإسلامية على العودة . فعملت جادة بمعونة أنصارها في الداخل على الإطاحة بمحمد داود الذي أدى غرضه المحلي من وجهة نظرها .

وعلى الرغم من أن محمد داود تنبه لخطئه المميت ، إلا أن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فقد كان الشيوعيون قد رتبوا أمورهم مع موسكو للانقضاض عليه بزعامه "نور محمد تراقي" .

وفي ٢٧ من إبريل عام ١٩٧٨م أطاح الشيوعيون بنظام داود ، وهكذا خان الشيوعيون نصيرهم محمد داود ، الذي مكن لهم في البلاد ، وانقلبوا عليه وقتلوه ، وجميع أفراد أسرته وأقربائه دون رحمة ، حيث قتلوا في الساعات الأولى من الانقلاب

(١) عميد كلية الشريعة بجامعة كابل .

نحو ١٢٠٠ نسمة حسب ما يذكره المخللون ، وهناك من يذكر أضعاف هذا العدد من القتلى .

ولقد أعادت لنا هذه الانقلابات الشيوعية في العالم الإسلامي صورة ما كان يحدث في العصور القديمة والوسطى ، عندما يتخلص المنتصرون من خصومهم تخلصاً جسدياً بالجملة وبلا رحمة ، سواء منهم الصغير القاصر والكبير العجز ، سواء أكان رجلاً أو امرأة .

وقدم الشيوعيون كبش فداء لحركتهم خوفاً من فشلها ، وهو رجل غير معروف يسمى "الجنرال عبد القادر" ، ليعلن على الناس قيام الانقلاب على أساس الإسلام والعدالة والديمقراطية ، ورحب المغفلون بالانقلاب ، ولكن بعد يومين من وقوع الانقلاب ظهر قاداته الحقيقيون من الشيوعيين على مسرح الأحداث ، فأعلنوا عن قاداتهم ، وكان كلهم من الشيوعيين بزعامة "نور محمد تراقي" رئيس الحزب الشيوعي الذي أطلقوا عليه أبو الثورة الأفغانية .

وبعد عام ونصف من قيادة "نور محمد تراقي" تخلص الشيوعيون منه ، وذلك بعد عودته من موسكو في التاسع من أكتوبر عام ١٩٧٩ م ، وقيل "إنه استقال من منصبه بسبب فقدان عقله وجنونه" ، والواقع أنه قتل بعد توديع "بريجنيف" (الرئيس السوفيتي) له في مطار موسكو ، وطبع على جبينه قبلة وصفتها وكالات الأنباء والصحافة بأنها "قبلة الموت" التي تعود الروس أن يودعوا عملاءهم بها عندما يرغبون في التخلص منهم ، وفقاً لطبيعة الشيوعية التي لا تعرف خلقاً ولا جيلاً ولا وفاء .

وأتى الشيوعيون بعد تراقي بعميل آخر هو "حفيظ الله أمين" ، الذي اشتدت الثورة الإسلامية في فترته الوجيزة ، التي دامت نحو ثلاثة أشهر ، وعلى الرغم من كل ما قدم له من دعم روسي ، لم يستطع القضاء على الثورة الإسلامية في البلاد ، ولا الحد من توسعها وتقدمها إلى جهات جديدة ، ورأى الروس أنه فاشل تماماً .

وعند ذلك رأى الروس أنفسهم بين خيارين : إما التراجع ، أو التدخل المباشر ، فـرجحوا الخيار الثاني ، بعد أن جاءهم تقارير تشير إلى قتل كثير من المستشارين الروس ، وهروب بعض الجنود من الجندية ، وانضمامهم إلى الثوار بكامل أسلحتهم ، وتقدم الثوار فاستولوا على كميات كبيرة من السلاح الروسي ، واستيلاء الثوار على المناطق المتاحة للاتحاد السوفيتي ^(١) .

الاحتلال الروسي لأفغانستان :

وزحف الروس على أفغانستان في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩م بجيش قوامه مائة ألف جندي ، لسحق المقاومة الإسلامية التي اعتبروها خطراً على المناطق الإسلامية المتاحة لأفغانستان ، والخاضعة لروسيا في تركستان الغربية ، ونصب الروس عميلاً جديداً لهم ، بعد أن قتلوا "حفيظ الله أمين" ، وكان هذا العميل هو "بابرك كارمل" وهو زعيم حزب "برجم" ، وعين رفاقه في الحزب في مناصب الدولة ، وكان بابرك ورفاقه يعيشون في المنفى .

موقف العالم الإسلامي من غزو أفغانستان :

أدرك المسلمون في العالم بعد غزو أفغانستان أن روسيا ماضية في الزحف على بقية الدول المجاورة : باكستان ، وإيران ، وتركيا ، وأن أفغانستان مأخوذة في الطريق إلى غيرها ، فدعا المسلمون إلى مؤتمر إسلامي يعقد في "إسلام أباد" في الثامن من ربيع الأول سنة ١٤٠٠هـ (٢٦ من يناير عام ١٩٨٠م) .

وفي المؤتمر لم يستطع أن يفعلوا شيئاً لأفغانستان السليبة ، سوى إعلان الأسف لما حدث ، واستنكارهم للعدوان الأثيم الذي يعتبر خرقاً للقانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة ، ونادى المؤتمر بالانسحاب الفوري الروسي ، ولكن ذلك الطلب من مصدر ضعيف وتفرق في الكلمة ، لا من مصدر قوة ، لأن بعض الدول الإسلامية التي اجتمعت في المؤتمر ، والتي كانت تمشي في ركاب روسيا مثل سوريا

(١) جريدة الشرق الأوسط ، عدد ٤٦٩ بتاريخ ١٥/١/١٩٨٠م .

والسيمن الجنوبي وليبيا والجزائر لم تقبل حضور وفد رجال المقاومة الأفغانية للمؤتمر ، وكان هذا منتهى التخاذل والخوف من روسيا ، الذي أملاه الضعف ، ولم تكتف هذه المجموعة بهذا الموقف ، بل هددوا بإفشال المؤتمر إذا أقبل على إدانة روسيا ، وقال بعضهم إذا أدنا روسيا فيجب أن ندين أمريكا أيضاً ، ونتح عن هذا الموقف أن المشتركين في المؤتمر أخذوا يتضاربون بالأقوال لتجريح بعضهم بعضاً ، للتفريق لا للتجميع .

والمضحك المبكي أن المؤتمرين اختلفوا في بداية المؤتمر على اللغة التي تدار بها جلسات المؤتمر ، فالدول التي كانت في الماضي مستعمرات فرنسية طلبت بأن تكون لغة المؤتمر هي الفرنسية ، أما الدول التي كانت مستعمرة إنجليزية فقد أصرت هي الأخرى أن تكون لغة المؤتمر هي الإنجليزية ، ولذلك فإن دول العالم الإسلامي كان انقسامها في المؤتمر انقسام عرول إلى روسيا أو أمريكا ، وفي مسألة اللغة كان انقسامهم انقساماً استعمارياً ، وليس هذا في اللغة فقط ، وإنما في الاتجاهات السياسية، والمشارب الأيديولوجية والثقافية ^(١) .

موقف الدول الغربية من الغزو :

على الرغم من تضارب المصالح بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي ، إلا أنهم يتفقون بشأن كثير من القضايا التي تمس المصالح الإسلامية ، وهذا ما حدث إبان اجتياح روسيا لأفغانستان في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩ م ، فعلى الرغم من أن النفاق الأمريكي أدى إلى اعتراض أمريكا الظاهري على عملية الغزو الشيوعي لأفغانستان ، ومنع بعض شحنات القمح الأمريكي عن روسيا ، وقاطعت أمريكا دورة الألعاب الأولمبية في موسكو سنة ١٩٨٠ م ، وغير ذلك من المظاهر الشكلية ، إلا أن أمريكا لم تتحرك عملياً لمساندة أفغانستان ، وإحساس المسلمين الذي لا يخطئ يجعلهم

(١) انظر للمؤلف : "العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر" ، الجزء الأول ، ص ١٧٩-٨٠ .

يدركون بأن أمريكا متخوفة هي الأخرى من الصحوة الإسلامية ، التي بدأت في العالم الإسلامي ، وهي متأمرة سراً على ضرب الأمان الإسلامي في كل مكان في العالم .
وقد وصف "مايكل آدمز" رئيس تحرير مجلة "ميدل إيست انترناشيونال Middle East International" أي مجلة الشرق الأوسط العالمية ، وصف سياسة النفاق الأمريكي هذه بقوله : "إن رد الفعل الأمريكي يقتصر على سلسلة من البيانات المتضاربة التي يرفضها حتى حلفاء أمريكا ، بوصفها ضرباً من النفاق العديم المغزى" ^(١) .

وأيما كان تقديرنا لموقف العالم الإسلامي وأمريكا ، فإن المعول عليه هو جهاد الشعب الأفغاني وصلابته أمام الشيوعيين ، هذا الشعب الذي لم تفسده أمراض المدنية الحديثة ، وتمكن بهذا الجهاد البطولي من القضاء على هيبة الاتحاد السوفيتي ، حتى قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه "الفرصة السانحة The Moment Seize" : "تمكنت المقاومة الأفغانية رغم ضعف تسليحها من وقف النفوذ الشيوعي ، وأجبرت موسكو على الانسحاب المهين من البلاد" ^(٢) .

وعندما رأت أمريكا صلابة الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي ، وجدتها فرصتها التي لا تعوض ، فقامت بتشجيع هذا الجهاد ، وتسليح الأفغان ، بل وأوعزت لحلفائها في العالم الإسلامي ، وهم باكستان ومصر والسعودية ، بالسماح للمجاهدين المسلمين من بلادهم بالاشتراك في عملية الجهاد الإسلامي في أفغانستان ، وبدأت باكستان تستقبل الآلاف من المتطوعين وتدرهم على الحدود بينها وبين أفغانستان ، وبدأ العون من مصر أيام الرئيس الأسبق محمد أنور السادات ، والسعودية على أيام الملك خالد بن عبد العزيز ، وباكستان على أيام الرئيس الأسبق ضياء الحق ، إلى أن وصل عدد المجاهدين المتطوعين حوالي ربع مليون مجاهد ، إلى

(١) من مقال الكاتب الإنجليزي "مايكل آدمز" في جريدة الشرق الأوسط السعودية بعنوان : "أين تقف يا ريجان؟" ، عدد ١٩٨١/٩/٦ م .

(٢) ص ١٣ ، من الترجمة العربية لأحمد صدقي مراد ، نشر دار الهلال المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢ م .

جانب الأفغان، السجعان ، وانتهى الأمر إلى انسحاب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان انسحاباً مخزياً ، وانتهى به الأمر إلى الفقر واستجداء الغرب لقمة العيش ، ثم السقوط أخيراً ، كما سبق أن ذكرنا .

الموقف في أفغانستان بعد الانسحاب :

بعد انتصار الجهاد الإسلامي في أفغانستان ، بدأ الصراع الداخلي على السلطة ، وتفجرت الحرب الأهلية بين بقايا الشيوعيين بزعامة "عبد الرشيد دوستم"، ومن بقايا أنصار الرئيس الشيوعي المخلوع نجيب ، و "دوستم" من الأوزبك ، وهم طائفة قوية ولهم امتداد في دولة أوزبكستان ، ويأتيه الدعم من روسيا ، التي ما زالت مستواجدة في البلاد الإسلامية المستقلة في وسط آسيا ونظراً لأنه شيعي فيأتيه الدعم من إيران ، والجهة الثانية هي جهة رئيس الجمهورية "برهان الدين رباني" ، المتحالف مع أحمد شاه مسعود وزير الدفاع السابق ، وهو قائد القوات لبرهان الدين رباني ، والجهة الثالثة جهة "قلب الدين حكمت يار" ، وهو من الباشتون ، وهم يشكلون أغلبية الشعب الأفغاني ، ولهم امتداد في باكستان ، وتدعمهم باكستان ، وهو رئيس الوزراء ، أما (رباني) فهو من الطاجيك الذين لهم امتداد في طاجيكستان ^(١) .

ومن جهة أخرى فإن النظام الحاكم في أوزبكستان يخشى بدوره من الاستقرار في أفغانستان ، ولذلك يحرص على التحالف مع موسكو ، ومع الشيوعيين في طاجيكستان ، وموقف روسيا واضح لأن يلتصق نفسه يقول "إن حدود روسيا الاستراتيجية هي حدود الجمهوريات الأسيوية الإسلامية " ، ويزيد الآن من التأكيد على هذا الاتجاه ما يعلنه رئيس المعارضة (فلاديمير جرينوفسكي) ، الذي يتزعم الآن حركة التعصب القومي والعنصري الروسي ، ويطالب بإخضاع الجمهوريات الإسلامية لروسيا ، أو إعادة ضمها إليها .

(١) جريدة الوفد المصرية ، الأحد ١٩٩٤/١/٩ ، من مقال للسفير صلاح بسيوني بعنوان "أفغانستان

١٩٩٤ ، لا مجال للتنازل " .

وليت الأمر يقتصر على روسيا ، فهناك قوى إسلامية مجاورة ، كإيران وباكستان ، كل منهما تود أن تلعب دوراً في أفغانستان ، بحيث تصل القوى الموالية لها إلى الحكم ، كل هذا يؤجل من الاستقرار في البلاد ، ولا يجعلها تجني ثمرة جهادها الطويل ضد الشيوعية .

ويلوح في الأفق شبح التقسيم ، فقد أعلن عبد الرشيد دوستم رغبته في تقسيم البلاد إلى أربع ولايات على أساس عرقي ، فتكون هناك :

١- ولاية بشتونية في الشرق والجنوب ، والبشتون يشكلون ما يقرب من ٤٠% من السكان .

٢- ولاية شيعية في مناطق هزاجار في وسط البلاد .

٣- ولاية للطاجيك في الشمال الغربي .

٤- ولاية للأوزبك في الشمال (١) .

وعلي هذا ، فالأمر يحتاج إلى مبادرة إسلامية من الدول الإسلامية ، لكي تضغط على هؤلاء الزعماء ، لكي يجعلوا المصلحة القومية فوق كل اعتبار ، والبقاء على وحدة أفغانستان ، في وقت تربص فيه القوى لإفساد الأوضاع في هذه البلاد ، الذي قام بدور بطولي في إذلال الاتحاد السوفيتي ، واليوم تقوم روسيا بإعطاء السلاح لأنصارها لتطويل الصراع ، وجعل أفغانستان تشغل بنفسها ، بدلا من أن تشغل بالتدخل في الدول الإسلامية المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفيتي وما زالت روسيا تضغط عليها ، وتريد هيمنتها أن تستمر عليها .

العبرة المستفادة من جهاد الأفغان :

لقد أثبتت عملية الجهاد الإسلامي في أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتي قدرة المسلمين الكفاحية ، وأنهم ما زالوا قادرين أيضا على تجميع أنفسهم من العالم كله ،

(١) جريدة الوفد المصرية ، الأحد ١٩٩٤/١/٩ ، من مقال للسفير صلاح بسيوني بعنوان : "أفغانستان

١٩٩٤ ، لا مجال للتفاوض " .

لكي يواجهوا أعداء الإسلام بقوة وصلابة ، وهذه العملية كان يشاهدها الغرب بعين ملؤها التريبة والخوف ، وأدركوا أن الإسلام الذي هزمت دولة في كل مكان على يد الاستعمار الغربي لم يمت تماماً ، وأنه ما زال قوياً قادراً على الكفاح والنضال ، وأنها كامنة كالنار تحت الرماد ، تحتاج إلى من يشعلها من جديد ، ويدفعها إلى ساحات القتال .

ولقد أدركت أمريكا هذه الحقيقة المرعبة لها ، ولغيرها من الدول الاستعمارية ، ويشهد رئيسها الأسبق "نيكسون" بقوة النضال الإسلامي، التي ساعدت على قهر الاتحاد السوفيتي ، وقال ما معناه أن كفاح المسلمين للشيوعية كان أقوى من كفاح الغرب ، ذلك لأن المسلمين كافحوا الشيوعية من منطلق عقائدي ، ونحن حاربناها من منطلق اقتصادي ، فكانت حرب المسلمين لها أقوى ، "كان الدافع الغربي للمقاومة أكثر ميلاً إلى المصلحة النفعية " البراغماتية " (١) .

والملاحظة التي يجب علينا أن نعيها كما وعها الغرب ، هي أن المسلمين ما زالوا بخير ، لن تفر عزيمتهم ، ولن تضعف همتهم ، وأنهم قادرون على الانتصار إذا أتاحت لهم أسلحة يدوية بسيطة ، ليست في مستوى الأسلحة الغربية الالكترونية الحديثة ، ولقد استوعبت أمريكا الدرس تماماً ، وأرادت بعد ذلك ومن ورائها عملاؤها في العالم الإسلامي ، أن تشتت جميع المجاهدين المسلمين الذين تجمعوا في أفغانستان ، على الرغم من أنها هي التي ساعدت في تجميعهم لمنازلة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان ، إلا أنها أدركت في النهاية بعد أن أدوا دورهم في القضاء على الاتحاد السوفيتي ، أنهم خطر على النظم العميلة لها في العالم الإسلامي ، وبالتالي فهم خطر عليها في النهاية ، وبدأت تنعقبهم في كل مكان في أفغانستان وباكستان وطاجيكستان وإيران والصومال .

(١) نيكسون ، الفرصة السانحة . ترجمة أحمد صدقي مراد . دار انزال ١٩٩١ القاهرة ، ص ١٢٨ .

وعندما أرادت أن تسيطر على الصومال في عام ١٩٩٣م في حركة بهلوانية، أطلقت عليها "إعادة الأمل"، أي إنقاذ الصومال من المجاعة، فأرسلت إليها حوالي ثلاثين ألف جندي من قواتها، وقالت زوراً بأن مهمتهم القضاء على الفوضى في الصومال، وتوزيع المعونات الأمريكية للبؤساء والجوعى من الصوماليين، إلا أنها كانت في حقيقة الأمر تهدف إلى السيطرة على هذه البلد الاستراتيجي الذي يقع في مدخل البحر الأحمر، وتريد أن تأخذ منه رأس جسر إلى الدول الأفريقية، ولكنها فوجئت بحركة مقاومة صومالية قوية، لأن الشعب الصومالي كله يحمل السلاح، وفوجئت أيضاً بالجهاديين الأفغان الذين طاردتهم من قبل، يظهرون لها في الصومال، ويقضون على أمالها في هذه البلاد، وإذا بالجنود الأمريكيين يتساقطون على أيدي هذه المقاومة الشرسة، فأدركت أمريكا بسرعة ألا مقام لها في الصومال، وإلا تحولت إلى أفغانستان جديدة، أو فيتنام جديدة. فأعلنت بسرعة عن نيتها في الجلاء عن الصومال، قبل أن تنال هزيمة مروعة، في بلد تحاط بالبلاد الإسلامية في أفريقيا، ولا تملك أمريكا أن تحاصرها حتى ولو تم لها حصارها من ناحية البحر، فبقى حدودها مع الدول الأفريقية مفتوحة، لا سيطرة لدولة عليها.

إذن على العالم الإسلامي أن يدرك قوته، كما أدرك أعداؤه، وأن يجمع صفوفه، وأن يقضي على مرض الفرقة، ذلك المرض العضال الذي استشرى في العالم الإسلامي، بسبب هيمنة الزعماء العملاء على مقدراته، وعليهم أن يتخلصوا من هؤلاء العملاء، ويعينوا الأكفاء المنخلصين لأوطانهم بطريقة ديمقراطية بعيدة عن الاستبداد بالرأي، فليس أضر على العالم الإسلامي في زماننا هذا من الاستبداد والمستبدين، فهم الذين أضروا بمصالحه ضرراً بليغاً لأنهم يزيفون إرادة الشعب، ويكرهون الديمقراطية، ولا يحكمون صناديق الانتخاب لكي تأتي بالأكفاء، وكلما ذهب أمة منهم لعنتها أختها التي تأتي بعدها، ويفتعلون المعارك مع غيرهم من الزعماء الآخرين في العالم الإسلامي، هذه المعارك التي تقضي على الأخضر واليابس

في بلادهم ، وفي النهاية يلجأون إلى الغرب لكي يصلح أمرهم ، ويصلح بينهم ، وهيئات أن يأتي لهم الصلاح من هذا الغرب المتربص بهم ، فهو الخصم والحكم ، وهيئات أن يأتي الخير من هذا الخصم الماكر ، فهو لا يرتضي حكماً إلا لمصلحته .

وعلى الرغم من انتكاسة الجهاد الأفغاني ، كما سبق أن أوضحنا ، وانقلابه إلى حرب أهلية ، يتقاتل فيها المجاهدون على المناصب الحكومية وعلى الرئاسة ، إلا أنني أعتقد أنهم سيميلون في النهاية إلى تحكيم عقولهم ، وخاصة إذا أدركوا أن روسيا التي ورثت الاتحاد السوفيتي تربص بهم ، ومن ورائها الغرب الرأسمالي ، ونسمع في الآونة الأخيرة (منتصف عام ١٩٩٦) عن أصوات تنادي بالوحدة ، على كل حال فمن ثمن الله الكونية التي لا تتغير أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

حركة طالبان :

نشأت هذه الحركة في المنطقة الشرقية من أفغانستان على حدود باكستان وتكونت من شباب الطلاب المتحمسين للدفاع عن وحدة وحرية أفغانستان ، وكلمة طالبان جمع طاب على نحو الجمع في اللغة الفارسية بالآلف والنون .

وحققت هذه المنظمة العسكرية انتصارات سريعة في المنطقة الشرقية من أفغانستان ، وفي أواخر شهر سبتمبر من عام ١٩٩٦م أصبحت على مشارف مدينة "كابل" عاصمة أفغانستان وتمكنت من اقتحامها والقضاء على مقاومة الجيش الحكومي بزعامه رئيس أفغانستان "رباني" ورئيس الوزراء "حكمتيار" وقائد الجيش "أحمد شاه مسعود" ، ثم أخذت تتعقب جميع المتصارعين قبلها على أرض أفغانستان وهم : "حكمتيار" المتحالف مؤقتاً مع "رباني" ، والجنرال "دوستم" الذي يصارعهما في الشمال الغربي صاحب المعسكر الشيعي ، وأعلنت عن إعلان دولتها في "كابل" ذات الصبغة الإسلامية المتشددة التي منعت النساء من العمل في المصالح الحكومية والمدارس ، وفرضت عليهن الحجاب أو على الأصح النقاب الذي يغطي الوجه ، ومنعت الخمر ، وأغلقت حانات الخمر ، وشددت على إقامة الصلاة في أوقاتها في

المساجد ، وأوكلت إلى مراقبين من رجالها يُراقبون تنفيذ هذه الإجراءات ، وكل من يخالف يعاقب بشدة .

وصفوة القول أنها أعلنت تنفيذ قواعد الشريعة الإسلامية بقوة ، حين ذلك ارتج جيرانها وانزعجوا ، وعلى الأخص الجيران الشماليون ، وهم دول وسط آسيا جمهوريات "طاجيكستان" ، "أوزبكستان" ، "قيرغيزستان" ، و"قازاقستان" ، بل وانزعج الجار الجنب القديم وهو روسيا الاتحادية ، وحاولت جمع دول وسط آسيا في مؤتمر عقد في "آلماتا" عاصمة قازاقستان لتهديد حركة طالبان إذا ما هي اقتربت من حدود دول وسط آسيا ، ولكنها لم تنجح - أي روسيا - في جذب "تركمانستان" التي لها حدود طويلة مع أفغانستان في الجنوب الشرقي .

ومن العجب أن إيران هي الأخرى انزعجت من حركة طالبان ، وأعلن رئيسها "هاشمي رفسنجاني" أن حركة طالبان حركة رجعية ، مع أنها تطبق قواعد الشريعة الإسلامية مثل إيران ، ولكن "رفسنجاني" وصفها بأنها رجعية نظراً لأنها انبثقت من الحدود الشرقية من أفغانستان بتعاون مع باكستان ، ومن العجب أن تركمانستان الموجودة على حدود أفغانستان في الشمال رحبت بالتغيرات الجديدة في أفغانستان ، ولذلك فإنها لم تحضر مؤتمر دول الكومنولث الروسي في "آلماتا" التي سبق أن أشرنا إليها .

من ذلك نرى أن استيلاء حركة طالبان على السلطة في معظم مناطق أفغانستان قد حرك قادة آسيا الوسطى فيفي التوجه نحو روسيا ملء الفراغ خشية انتقال عدوى حركة طالبان إلى دول وسط آسيا .

وأول من أطلق صيحة التنبيه للخوف القادم في روسيا كان هو الجنرال "ألكسندر ليبيد" مستشار الأمن القومي الروسي ، فقد فاجأ ليبيد الساحة السياسية الروسية بقوله : "إن النجاحات العسكرية لجماعة طالبان ستشكل خطراً على أمن روسيا بقوله : "إن النجاحات العسكرية لجماعة طالبان ستشكل خطراً على أمن

روسيا ، وعلى روسيا أن تدعم مادياً القوى المناهضة لطالبان ، ومنها قوات : "أحمد شاه مسعود" ، والجنرال "رشيد دوستم" ، و "حكمتيار" رئيس وزراء أفغانستان وضرورة اتخاذ إجراءات دبلوماسية عاجلة ، وإلا فإن ما جرى في الشيشان سيكون بمثابة (دمل) صغير في مقابل (الخراج) المرتقب في أفغانستان إذا جازت المقارنة بين الشيشان في الماضي وأفغانستان في المستقبل وما حولها ، وتأثير هذه الأخيرة على أمن روسيا " .

وقد مضى ليبيد إلى حد القول بأنه إذا قامت جماعة الطالبان بدعم من باكستان بالاقتراب من حدود طاجيكستان وأوزبكستان فإنهم سيطالبون بانتزاع جزء من أرض أوزبكستان ومنها منطقة "بخارا" حيث يقع مزار وقبر الإمام البخاري وبذلك على حسب تشخيص "ليبيد" تستطيع حركة طالبان تدمير مواقع الحراسة الروسية بحيث تصبح الفرقة ٢٠١ الروسية الرابطة على الحدود بين أفغانستان وطاجيكستان صغيرة جداً في الدفاع عن دعم "رحمانوف" رئيس جمهورية طاجيكستان وهو الذي يواجه بمعارضة أصوابة طاجيكية داخلية تجد دعماً لها من قوى مناظرة لها من أفغانستان .

وعلى إثر تشخيص الجنرال "ألكسندر ليبيد" هذا اجتمع رئيس جمهورية روسيا الاتحادية "يلتسين" برئيس وزرائه "تشرنو ميردين" حيث كلفه بإجراء اتصالات مع قادة دول آسيا الوسطى لتنسيق المواقف إزاء الوضع المستجد في أفغانستان وتداعياته على الحدود الطاجيكية الأفغانية وعقد اجتماع قمة دول ستة في "آلما أتا" عاصمة "قازاقستان" يومي الجمعة والسبت الرابع والخامس من أكتوبر سنة ١٩٩٦ م .

وفسرت مبادرة روسيا بأنها تعبير عن الشعور بمكامن الخطر عن بعد ، وباقتراب هذا الخطر للمساس بمصالحها وميثاق طشقند الخاص بالدفاع المشترك

لرابطة كومنولث الدول المستقلة ، ويلاحظ أن الآسيويين من أعضاء الرابطة يطلبون من روسيا أن تكشف حضورها العسكري في "طاجيكستان" تجنباً للعدوى المحتملة .
والحقيقة أن الخطر لا يكمن في تقدم حركة طالبان إلى طاجيكستان أو اقتطاع أرض أوزبكية مثل منطقة بخاري كما يرى "أليكسندر ليبيد" بل إن المعضلة الأشد خطورة هي تغلغل نفوذ حركة طالبان في كل آسيا الوسطى ومشارف "قازقستان" وتخوم روسيا الاتحادية ، وإذا تم ذلك فإن الاضرابات لا محالة ناشبة وستعم المناطق المشار إليها بأسرها ، لأن دول وسط آسيا تمكنت الرجعية الشيوعية من السيطرة عليها على الرغم من رغبة المسلمين فيها من العودة إلى إسلامهم ، لكن روسيا ساعدت زعماء عملاء لها من الشيوعيين في السيطرة على هذه البلاد ، فهي ملغمة بالغام مثل البراكين ، وسيكون الانفجار مروعاً .

ولعل هذا هو الذي جعل "نور سلطان نزار باييف" زعيم "قازاقستان" يدعو إلى الوقوف بصرامة ضد انتشار نفوذ طالبان ، وطالب "إسلام كريموف" رئيس أوزبكستان بضرورة التحرك لدعم أنصار رباني وحكمتيار ودوستم^(١) .
بينما قال "صابر مراد نيازوف" رئيس جمهورية تركمانستان : "إن تركمانستان لا تنظر إلى طالبان كأعداء ، وهذا واضح أنه يريد أن يتقي شر طالبان .
ولكن روسيا لا تستطيع أن تقف عسكرياً أمام طالبان وتأمين حدود آسيا الوسطى ، لأن روسيا ما زالت تن من حرب الشيشان ؛ إضافة إلى أزمة الجيش الروسي وعجزه عن إطعام نفسه ، وصدق ليبيد حين قال : الجيش الجائع لا يستطيع أن يحارب"

(١) انظر: حديث عبد الملك خليل عز: مؤتمر "آلا أتا" في جريدة الأهرام ، عدد ٨ أكتوبر سنة ١٩٩٦م

تحت عنوان : "روسيا وأفغانستان والشعور بالخطر عن بعد"

وهذه التطورات هي التي جعلت رحمانوف رئيس جمهورية طاجيكستان يسارع إلى عقد هدنة مع المعارضة الإسلامية التي تناضل في الجبال بالمنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد ، ووعدها بالمشاركة في الحكم .

ترجع أصول حركة طالبان إلى قبائل الباشتو ، وهي القبائل المنتشرة في جنوب وشرق أفغانستان ، وعلى صلات عرقية بقبائل الباشتو في باكستان ، والذين انزعجوا من هيمنة الأوزبك والطاجيك في أفغانستان وكذلك بعض القبائل الشيعية على الحدود الغربية مع إيران ، وحركة طالبان مدعومة من باكستان والسعودية وأمريكا بالسلح والمال ، ومن هنا جاءت معرصة إيران لها ، وأمريكا تريد تأمين خطوط أنابيب للبترول تعبر أفغانستان وباكستان إلى الخليج العربي في طريقها إلى أمريكا والغرب ، وبذلك تكون بديلة للخطوط المقترحة عبر إيران ، وهكذا تلعب المصالح الأمريكية بمستقبل البلاد الإسلامية .

مشاكل أفغانستان الجغرافية :

لما كانت أفغانستان من الدول الداخلية في آسيا ، وكانت تحيط بها قوى ودول وإمبراطوريات أقوى منها مثل الدولة العثمانية وإيران في الغرب وروسيا في الشمال ، وإمبراطورية الإنجليز في الهند في الشرق ، فإن صراعاً دار بين هذه القوى، الخيطة بأفغانستان على النفوذ والطمع في أرض أفغانستان ، ولما كان أهل أفغانستان لا تلين لهم قناة فقد اشتركوا في الصراع الدائر على أرضهم ، وأحياناً كانوا ينتصرون فيتوغلون في أرض الهند قبل استيلاء الإنجليز عليها ويحكمون الأجزاء القريبة منها ، وأحياناً أخرى كانوا يتوغلون في المناطق الغربية في الأراضي الإيرانية ويستولون عليها ويحكمونها ، وهذا كما حدث أثناء فترة حكم "محمود الأفغاني" ابن مورويس الذي سبق أن أشرنا إليه .

وفي كثير من الأحيان كانت هذه القوى تتوغل في داخل أراضي أفغانستان ، وهذا ما حدث للإنجليز في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وحدث أيضاً

ذلك من الروس في ذلك القرن ، وحدث من الإيرانيين أيضاً ، ولكن تاريخ الصراع بين الأفغان وبين هذه القوى دل على أن الأفغان لا تلين لهم قناة ، ولا ينأمون على ضيم وظلم يلحق بهم ، وإنما يستيقظون لرد عادية الظالمين والمستعمرين لبلادهم ، ولا يهدأ لهم حال إلا إذا أخرجوا الغزاة من أرضهم ، وهذا ما حدث في تاريخنا المعاصر عندما دخل الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٨٠م غازياً لهذه البلاد ، فاستمر الأفغان في حربه نحو عشر سنوات متتالية تم فيها إخراج الروس - أي السوفييت - على أعقابهم خاسرين ، وتسببت هذه الحرب في انفراط عقد الاتحاد السوفيتي .

لكن تظل مشكلة الجغرافيا تحكم مصير هذا البلد المناضل لأنه يعتمد على اتصاله بالخارج على القوى المحيطة به ، وهي متقلبة النزعات والمصالح .

ومن هنا فإن عبر التاريخ تقول إن الجغرافيا مؤثرة في مصير أي منطقة ، وعبر التاريخ الوسيط والحديث لمنطقة وسط آسيا تقول إن منطقة أفغانستان لم تنعم بالاستقلال طويلاً وذلك بسبب أنها منطقة داخلية تحكمت فيها على مر الزمن قوى كبيرة كانت مجاورة لها كالفرس والعثمانيين والروس والمغول ، ونظراً لأنها داخلية فاتصلها بالخارج يكون صعباً وقت الأزمات الشديدة ، وهذا واضح في كثير من الأزمات العسكرية التي واجهت أفغانستان في العصور الوسطى والحديثة ، فإنها تقع فريسة لجيرانها الأقوياء أو المهيمنين على الأوضاع ، وهذا واضح الآن في الصراع الدائر في أفغانستان بعد إخراج الاتحاد السوفيتي وتدخل كل من إيران وروسيا وباكستان لنصرة فريق على آخر مما يؤثر في نتائج الصراع ، ولهذا يتحتم على أفغانستان أن تتحالف مع قوة عظمى من هذه القوى المحيطة بها ، ومع ذلك فإنها لا تسلم من الجيران الآخرين الأقوياء بسبب تغير الأوضاع السياسية وتطلعهم للنفوذ في أفغانستان .

إلا أن رلف^(١) كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" من عهد الأمير دوست محمد خان حتى برك ١٨٢٦-١٩٨٤م ، يذكر سبباً آخر غير متاعب الجغرافيا والموقع ويجعلها سبباً في شقاء الأفغان فيقول :

"إن الشقاء والتعاسة اللتين يشعر بهما الأفغان سببهما أن جميع زعمائهم والمالكيين لأزمة الأمور في بلادهم ، خصوصاً من بداية القرن التاسع عشر إلى الآن ، لم يتمتعوا بحرية الفكر والعمل ، وكانوا دائماً يقعون تحت تأثير بريطانيا أو روسيا ، وكان هذا الأمر سبباً في أن أفغانستان وحكامها منذ زمن بعيد حتى الآن مثل الدمى في أيدي الاستعمار ، ولم يستطيعوا مطلقاً أن يخطوا خطوة إلى الأمام مستنديين إلى قوتهم بعيداً عن حدود رغبات الاستعمار ، والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول : الأنانية وطلب الجاه للحكام وعدم الاعتماد على قدرة الشعب وشورته .

الثاني : المصلحة الشخصية والرغبة في البقاء في الحكم .

وكان إدراك ومعرفة هذا الضعف والذلة لأمرء بلادنا وسيلة فعالة لروسيا وبريطانيا ، فكان لهما في بلادنا موطئ دائم ، واجتهد كل منهما للحفاظ على منافعه أن يغير سير نهضتنا الاجتماعية والسياسية والوطنية ، وكان نتيجة هذه اللامبالاة وعدم الاكتراث أن فقدنا جزءاً من حدودنا الجغرافية ، بل انتهى بنا الأمر أن احتلت كل بلادنا جغرافياً وسياسياً بواسطة الاستعمار ، وكفار هذه الذنوب والأخطاء التي ارتكبها هؤلاء الحكام الذين لم يتبصروا العواقب تدفعها دولة أفغانستان المظلومة من

(١) تذكر الدكتورة : عفاف زيدان مترجمة هذا الكتاب من الفارسية إلى العربية أن مؤلف هذا الكتاب أحد المجاهدين بالقلم ، ولم يشأ أن يذكر اسمه ، وإنما استعار له اسماً هو : "حق شناس" ، ربما لظروف اقتضتها طبيعة الجهاد الأفغاني ، ورغم معرفة الدكتورة عفاف بالمؤلف فإنها احترمت رغبته في عدم ذكر اسمه ، والكتاب مطبوع بالعربية في القاهرة سنة ١٩٩٢م ، ونشرته "دار الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة" ، انظر مقدمة المترجم لهذا الكتاب .

دمائها ، وقد ذهب ملايين الناس فيها ضحية لهذه السياسات غير الوطنية ،
والقرارات الشخصية غير الواعية التي قام بها حكامنا قرونًا وأعواناً^(١) .

(١) حسي شناس ، العلاقات الأنغانية الروسية ، ترجمة الدكتور عفاف زيدان ، نشر دار الزهراء للإعلام
نوعي - القاهرة ، ص ٧١-٧٢ .

الدولة الخوارزمية

نشأت الدولة الخوارزمية في إقليم خوارزم الذي يقع تانى الطرف الشمالى الغربى لإقليم ما وراء النهر ، وعاصمة خوارزم هى (الجرجانية) وأهل خوارزم يسمونها بلغتهم (كركانج) فعربت الى الجرجانية وكانت عاصمتهم في الأصل تسمى المنصورة فجرفها نهر جيحون ، فأخذت الجرجانية مكانها ، وقد أطلق المؤرخون على العاصمة بعد أن اكتسحها المغول وقتلوا جميع من فيها ولم يبق من معالمها شئ أطلقوا على العاصمة الجديدة مدينة خوارزم ، ومن المحتمل على ما يظهر أن خوارزم الجديدة قد أختير لها موضع جديد وسرعان ما صارت خوارزم الجديدة قصبة الإقليم ، وقد وصفها ابن بطوطة في المثلثة الثامنة للهجرة (٤١٤م) ^(١) .

وبلاد خوارزم كما وصفها ياقوت شتاؤها شديد بحيث أن نهر جيحون يتجمد في الشتاء والقواثل والعربات تسير عليه ، والنهر لا يتجمد كله وإنما الطبقة العلوية من الماء وأسفله جارٍ ، ويحفر أهل خوارزم في الطبقة الجليدية العلوية ويستخرجون منه الماء لشربهم وأعمالهم .

ويذكر ياقوت أيضا أن أبنيتهم ليس لها أساسات إنما يقيمون أحشاب مقفصة ثم يسدونها بالبن والغالب على أهلها الطول والضخامة وفي رؤوسهم عرض ، وضم جباه واسعة ، وطباع أهلها مثل طباع البربر .

وسكان خوارزم في الأصل شعوب آرية لم تلبث أن تسربت إليهم أعداد غفيرة من العنصر التركى الذى بدأ يزحف على شرقى العالم الاسلامى في بداية القرن الثالث الهجرى بصورة أصبح معها المتكلمين باللغة التركية أو اللهجات التركية الشطر الأكبر من سكان البلاد (خوارزم) ، ولم يكن في مقدور ملوك خوارزم الدخول في قتال دون الاعتماد على المرتزقة من الأتراك .

^(١) كي لستنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٩٢ .

ولعب أهل خوارزم دورا كبيرا في مجال العلاقات بين الجماعات البدوية التي تقع على حدود ما وراء النهر وبين النفوذ الإسلامي الذي بدأ يتدفق على إقليم خوارزم ولم يجد الخوارزميون بداً من أن يذعنوا بالطاعة للمسلمين حرصاً على تجارتهم ويذكر (البلاذري) أن بعض ملوكهم كاتب (قتيبة بن مسلم) بعد توغله في البلاد ليستعين به على بعض المشاكل في داخل خوارزم ، وتم فتح خوارزم على يد قتيبة بن مسلم في سنة ٩٣ هـ .

ونمت العلاقات بين المسلمين والخوارزميين وأثمرت وانتهت بإسلامهم ويذكر الدكتور حسن محمود أنه لا يستطيع أن يحدد بالضبط الفترة التي شهدت هذا التطور الخطير وإن كان يرجح أن ذلك تم في أيام السامانيين وأصبحت خوارزم بلداً إسلامية، بل شهدت قيام دولة إسلامية مستقلة فقد حكمتها أسرة مسلمة في الفترة الممتدة من سنة ٣٤٠ هـ إلى سنة ٤٠٧ هـ^(١)

وكان للتجار الخوارزميين الذين اعتنقوا الإسلام نشاط كبير في نشر الإسلام في حوض الفولجا والقوقاز واستغلوا صلاحهم القوية بشعوب حوض الفولجا والقوقاز في نشر الإسلام ، والمؤرخ الروسي (بارتولد) يرى أن الحركة الإسلامية بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري الذي شهد توطد الصلات بين خوارزم والخزر .

كانت بداية دولة خوارزم شاه سنة ٤٩١ هـ ، وأول ملك منهم هو "محمد بن أنوشتكين" ، وكان والده "أنوشتكين" مملوكاً لأمير السلاجقة ملكشاه فترقى في بلاط ملك شاه وتم تعيينه في وظيفة (الطشتدار) أي المشرف على الأواني السلطانية ، وكانت نفقات إدارة الطشتدار من ميزانية خراج خوارزم ، لذا فإن (أنوشتكين) قد حمل أيضاً لقب حاكم خوارزم على الرغم من أنه لما يكن في واقع الأمر قد تولى الحكم في خوارزم .

(١) الإسلام في آسيا الوسطى ، ص ١٩٠ .

وفي سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) تم تعيين قطب الدين محمد بن أنوشكين حاكماً على خوارزم بأمر السلطان (سنجر) السلجوقي بعد اغتيال حاكمها عقب ثورة عليه ، ويذكر ابن الأثير أن قطب الدين أشتهر بالعدل وبتقريبه لأهل العلم ، وظل قطب الدين تابعا مخلصا لسنجر السلجوقي ، ولقب بلقب خوارزم شاه وبقي هذا اللقب بعد ذلك علما على الأسرة .

ولما توفي قطب الدين خلفه ابنه (أتسز) عام ٥٢٢هـ (١١٢٧م) ويعد هو المؤسس الحقيقي لأسرة شاهات (ملوك) خوارزم ، وكان أتسز في الأعوام الأولى من ولايته التابع المخلص للسلطان سنجر السلجوقي ، وظل يعمل على تدعيم سلطانه في خوارزم ، غير أن السلطان سنجر لم يزل أن تغير عليه بفعل حاسديه فقام بحملة عليه في خريف سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) واجتاح خوارزم بحجة أن (أتسز) أراق دماء المسلمين في (جند) رهى ثغر من ثغور الإسلام وأهلها يدافعون عن ثغور الإسلام ، غير أنه كان في واقع الأمر يريد السيطرة على جند الواقعة على ثغر سيحون لإخضاع الرحل المجاورين ^(١) .

وكان عصر أتسز امتداداً لقوة أبيه لأنه كان يقود الجيوش في أيام أبيه فقربه السلطان "سنجر" وعظمه وتقوى به في حروبه فظهرت كفاءته وشهامته فزاده علواً وتقدماً ، ويعتبره البعض بداية لتوارث ملك خوارزم شاه ، وفي سنة ٥٣٣هـ وقع الخلاف السابق بينه وبين السلطان "سنجر" فسار السلطان لمحاربه فاهزم خوارزم شاه وملك السلطان "سنجر" خوارزم وأقطعها إلى ابن أخيه سليمان شاه ، ورجع "سنجر" إلى (مرو) .

فانتهاز أتسز خوارزم شاه الفرصة وعاد يستولى على خوارزم ومدن كثيرة من (خراسان) كانت تحت سيطرة السلطان "سنجر" ، وتسببت هذه الحروب في

(١) بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٤٧٣-٤٧٤ .

زيمادة النزعة الإستقلالية لدى آتسر عن السلاجقة وقد نجحت جهوده بعد صراع طويل ، واستطاع أن يمد نفوذه حتى مدينة (جند) على نهر سيحون سنة ٥٥٢هـ .
ولما آل الأمر إلى ابنه علاء الدين تكش (٥٦٨-٥٩٦هـ) حقق نصرا عظيما حين قضى على ملك السلاجقة في إيران وحل محلهم ، وهذا الانتصار وضع الدولة الخوارزمية في مواجهة الخلافة العباسية ، فطالب خوارزمشاه بامتيازات السلاجقة في دولة الخلافة وهي : ذكر اسمه في الخطبة وفرض نفوذه السياسي على بغداد مثل ما كان يفعل الأتراك والبويهيون والسلاجقة الذين حرصوا على هذه الامتيازات التي لم يطالب بها حكام الولايات الغربية في الشام ومصر ؛ إذ كانوا يحافظون على هبة الخلافة .

وتوفي السلطان "آتسر خوارزم شاه" في سنة ٥٥١هـ وترك ابنه "أرسلان" الذي استمر في الحكم حتى سنة ٥٦٨هـ .

وتنازع على الملك بعده ابنه "سلطان" وأخيه "علاء الدين" وكثرت الحروب بينهما وظلت حتى ظهر ابن علاء الدين الذي يسمى "قطب الدين خوارزم شاه" سنة ٥٩٦-٦١٧هـ الذي أخذ لقب أبيه علاء الدين ، واستطاع أن يوسع رقعة مملكته فوصلت إلى ما وراء النهر حيث هزم ملوك ماوراء النهر وضم بلادهم إلى سلطنته سنة ٦٠٧هـ وانتصر على الغوريين في إقليم الغور واحتل (غزنة) سنة ٦١١هـ^(١) فوصلت مملكة خوارزم إلى أقصى اتساعها .

صراعهم مع الخلافة :

لم يكد الخليفة العباسي يستريح من نفوذ السلاجقة حتى جوبه بمطالب علاء الدين وكان يريد أن ينعم بالاستقلال ولما لم يجبه الخليفة إلى تحقيق مطالبه شن حملة دعائية ضد الخلافة العباسية واعتبرها غير شرعية واستصدر فتوى شرعية بأن خلافة بني العباس غير شرعية وأن العلويين من نسل الحسين أولى بها ، وطالبه بإعادة الخلافة

(١) لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ، ج٢ ص٣٧٥ ، وأحمد شليبي ج٧ ص٧٤٠-٧٤١

إلى هؤلاء ، ر سادى في عدائه وحاول العثور على شخص من نسل الحسين لكي ينصبه خليفة ولكنه جوبه بالغزو المغولي لدولته .

غارات المغول :

كان ابتداء خروج المغول على أيام علاء الدين سنة ٥٩٦-٦١٧هـ (١٢٢٠-١٢٣١م) ، له معهم وقائع كثيرة ، وكانت حدود مملكته قد اتسعت من حدود العراق الى تركستان فكان تحت ملكه بلاد "غزنة" و "سنجستان" و "كرمان" و "طبرستان" و "جرجان" و "خراسان" وبلاد فارس .

وفي هذه الأثناء كان المغول الضاربون في شمال آسيا الغربي يزداد عددهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه وكانوا يعيشون في الخيام أو في العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراعى جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها ، وكانوا بارعين في استعمال الخناجر والسيوف و أسهم يطلقونها من فوق جيادهم التي تسابق الريح ، وكانوا يأكلون كل ما يستطيعون أكله مثل الفئران والقطط والكلاب ودم الآدميين حتى القمل نفسه ، ونظمهم جنكيز خان (ومعناه الملك العظيم) بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس وقادهم لفتح آسيا الوسطى الممتدة من نهر الفلجا إلى صور الصين العظيم .

والمغول شعب كبير موطنه منغوليا وهم من الأمة الطورانية ومنه تنفرع معظم بطونهم وأفخاذها ، واسم التتر مرادف للترك في كتب التاريخ الأوروبية والأدبيات الأوروبية ، حتى أن الأوروبيين يعدون قبائل الترك كافة تترا ، ومنهم العثمانيون والتركمان وغيرهم ^(١) ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون إن (تتارخان) و(مغل خان) مثل (ربيعه) و(مضر) في الأمة العربية العدنانية ، وعلى ذلك فإن (مغل) و(تتار) من الأتراك ، ولا فرق بين مغل وتتار لأن الكل أتراك ، ويقولون بأن (النجيه خان) أحد

(١) محمد الحضري ، الدولة العباسية ، ص ٤٦٧ .

ملوك الترك في الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما (مغل خان) و(تار خان) وقد كان بين أبنائهما حروب طويلة انتصر فيها المغول في النهاية ووجدوا الشعبين على يد (جنكيز خان) المغولي^(١).

وحاول جنكيز خان أن يلم شعث قومه وفكر في ترقية هذا المجتمع بوضع قانون ليكون لهم ديناً يسرون عليه فوضع لهم (اليساق) أو ما يسمى أحياناً (الياسة) وهى كتابهم الذى إليه يرجعون في معاملاتهم مع بعضهم وكانت عندهم أحكامه صارمه على الجميع لا يستجيزون أن يخلوا بشئ منها .

وقد ذكر المقرئى طرفاً من هذه القوانين في كتابه الخطط فقال: "إن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق ، لما غلب الملك (أونك خان) ، وصارت له الدولة ، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه (ياسه) ، ومن الناس من يسميه (يسق) ، والأصل في اسمه (ياسه) ، ولما تم وضعه ، كتب ذلك نقشا في صفائح النولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم : وكان (جنكيز خان) لا يستدين بشيء من أديان أهل الأرض ، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره ، فصار الياسه حكماً باتاً بقي في أعقابه لا يخرجون عن شئ من حكمه".

"وأخبرني العبد الصالح الداعي الى الله أبر هاشم أحمد بن البرهان - رحمه الله - أنه رأى نسخة من الياسه بمخزاة المدرسة المستنصرية ببغداد ومن جملة ما شرعه (جنكيزخان) في الياسه أن : من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحسن وغير المحسن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ون بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخرس فيها ، فإنه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنه قتل ، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويُمرَس قلبه الى أن يموت ، ثم يؤكل

"

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦٨

لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحه المسلمين ذبح ، ومن وقع حملة أو قوسه أو أى شئ من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال ، وكان وراءه أحد ، فإنه يتزل ويناول صاحبه ما سقط منه ، فإن لم يتزل ولم يناوله قتل " .

" وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبي طالب - رضى الله عنه - مؤنة ولا كلفة ، وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قرينة الى الله تعالى ، وألزم قومه ألا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ، ولو أنه أمير ، ومن يناوله أسير ، ألزمهم ألا يتخصص أحد بأكل شئ وغيره يراه بل يشركه معه في أكله ، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بشئ على أصحابه ، ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه ، وأن من مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذفهم ، وليس لأحد منعه " .

" وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشئ يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم ، بل يلبسونها حتى تبلى ومنع أن يقال لشئ إنه نجس ، وقال : جميع الأشياء طاهرة ، ولم يفرق بين طاهر ونجس ، وألزمهم أن لا يتعصبوا لشئ من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ، ويدعى باسمه فقط ، وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال ، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط ، فمن وجده قد قصر في شئ مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه " .

" ألزم نساء العساكر بما بالقيام بما على الرجال من السخرة والتكاليف في مسدة غيبتهم في القتال ، وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ، ويؤدونها إليه ، وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناهم الأبنكار

على السلطان ليختار منهم لنفسه وأولاده ، ورتب لعساكره أمراء ، وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئات وأمراء عشرات ، وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليهم ملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يُلقى نفسه الى الأرض بين الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ، ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل ، ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل ، وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة" .

" وجعل حكم الياسه لولده جغطاي بن جنكيزخان فلما مات إلزم من بعده أولاده وأتباعه حكم الياسه ، كالإزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك ديناً ، لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه " (١) .

هذه خلاصة ما أورده المقرئ (ت ٨٤٥هـ) عن قوانين المغول (الياسه) وهى خلاصة وافيه ، وبعد المقرئ جاء المؤرخ الفارسي (عطا ملك الجويني) (ت ٦٨١هـ) فأعطانا معلومات أزيد في ناحية هامة لها أكبر الأثر في حياة المغول العسكرية هي مباريات الصيد التي كانوا يهتمون بها اهتماما كبيرا كلما فرغوا من القتال وكانت هذه المباريات هي رياضة الخبيبة إلى نفوسهم وكانوا يأخذونها وسيلة لتمرين أنفسهم على حمل السلاح وخوض المعارك ، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما يفعلونه وقت الحرب ، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يفعلون في ميادين القتال ، وكان يشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يصطحبون معهم النساء والسراري ، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات ، وتمتد هذه المباريات من شهر إلى ثلاثة أشهر ، ولا يسمحون بالإهمال أثناء هذه التدريبات ، ويعتبرون الصيد جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ويحرصون على ممارسته منذ الصغر (٢) .

(١) المقرئ ، الخطط ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ص ١٤٦-١٤٧ .

(٢) د. فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ، طبعة دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠م ، الجزء

والملاحظ على هذه القوانين أنها حافظت على حقوق الأفراد بين المغول ومنعت من الطغيان والاستبداد وساعدتهم على التماسك والاتحاد أثناء حروبهم وهذا مما سنشاهده من سلوكهم أثناء حروبهم . غير أنها تلغي شخصية الفرد وتحجر على حريته .

واندفع المغول ناحية الغرب إلى الشغور الإسلامية لا يصددهم أحد ، وعلى الرغم من قيام الدولة الخوارزمية وقوتها إلا أنها لم تستطع أن تسد مسد السلاجقة في مجال حماية الخلافة العباسية عندما ضعف السلاجقة ، وذلك في مواجهة العناصر الشرقية التركية والمغولية بل على العكس ناوأت دولة الخلافة العباسية وكانت في نزاع دائم معها في وقت انفتح فيه ذلك السد العظيم الذي كان بينها وبين العناصر الشرقية التركية والمغولية ، واندفعت تلك العناصر كأنها السيل الآتي المندفِع لا يردّه عن مقصده شيء يقودهم (جنكيز خان) موحد التتار والمغول ، وأزاحوا من أمامهم كل من يقف في سبيلهم ، وذلك في أوائل القرن السابع الهجري .

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الإسلامي بل بالإنسانية كما قرر تلك الحقيقة المؤرخ غز الدين بن الأثير في لهجة باكية مؤثرة في معرض كتابته عن تلك الأحداث سنة ٦١٧هـ (١٢٣٠م) فيقول : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا . فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقرت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها " .

وواتت جنكيز خان الفرضة للهجوم على خوارزم ، فقد أرسل في سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) قافلة تجارية من المسلمين الموجودين تحت حكمه تحمل أسلعا تجارية وعند وصولها إلى مدينة (أترار) الواقعة في حكم خوارزم شاه على الساحل الغربي لنهر سيحون وهي ملتقى طرق التجارة بين شرق آسيا وغربها ، وكان واليها يسمى (قادر خان) وهو ابن خال السلطان محمد خوارزم شاه فتصرف تصرفا أحقا حيث قتل تاجرين من تجار المغول فيما وراء نهر جيحون وطلب جنكيز خان من علاء الدين أن يسلم إليه الوالي لمحاكمته فرفض علاء الدين هذا الطلب وقتل رئيس البعثة المغولية ورد ببقية أعضائها مخلوقى اللحى ، فلم يكن من جنكيز خان إلا أن أعلن الحرب على خوارزم شاه وبدأ بذلك تهجوم المغول على بلاد الإسلام سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) .

وهناك قول يذهب إلى أن الخليفة العباسي (الناصر ٥٧٥-٦٢٢هـ) هو الذي أغرى المغول بالهجوم على علاء الدين لتمرده عليه ، وإذا صح هذا فيكون الخليفة هو الذي جلب على المسلمين أعظم كارثة حلت بالمسلمين في التاريخ ، وعلى العموم فإن الخلافة العباسية لها سوابق في هذا المجال فهي التي سبق لها استدعاء البويهيين والسلاجقة ، قبل للاستعانة بهم على تثبيت ملكها ضد المخالفين لها .

وقد استعد السلطان علاء الدين لمجابهة المغول بجيش قوامه ٤٠٠ ألف جندي انتظر بهم عند (جند) ، أما المغول فقد قسموا قواتهم إلى أربعة جيوش ووضع جنكيز خان على كل جيش أحد أبنائه وقاد هو جيشا .

وكان الجيش الأول بقيادة جوجى ابن جنكيز خان وتقابل هذا الجيش مع جيش علاء الدين عند جند وهزمه وفر علاء الدين على إثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك وراءه ١٦٠ ألف جندي قتلى في ساحة المعركة .

أما الجيش الثانى فكان بقيادة أجتاي ابن الخان الذي توجه نحو أترار التي كان واليها سببا مباشرا في هذه الحرب واستولى عليها ونهبها .

أما الجيش الثالث فكان بقيادة تولوى ابن الخان يبلغ عدده ٧٠ ألفا توجه به نحو خراسان وخرب كل ما مر به من المدن وكان المغول يضعون الأسرى في مقدمة جيوشهم ويخبرونهم بين قتال مواطنيهم من أمامهم أو قتلهم من خلفهم ، وفتحت (مرو) خيانة وأحرقت عن آخرها ودمرت مكتبتها التي كانت مفخرة الإسلام .

أما الجيش الرابع فكان بقيادة جنكيز خان نفسه والذي توجه به إلى بخاري وحرقها عن آخرها وسبي آلاف من نساها ، وذبح ثلاثين ألفا من رجالها واستسلمت له سمرقند وبلغ حين وصل إلى أبوابها ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة .^(١) ويذكر ابن الأثير أن عساكر علاء الدين الذين كانوا معه قد خذلوه عند ملاقة المغول لهم فكانوا قد ملئوا رعباً وخوفاً من المغول ففرقوا عنه عند أول التحام بالمغول ، فقد كان جيش المغول متماسكا من جنس واحد بينما جيش علاء الدين من أصناف شتى من الترك والفرس والبدو وغيرهم فلم يكن مترابطا مثل جيش المغول وهذا مما كان له أكبر الأثر في هزيمة جيش خوارزم .

ولما ملك المغول سمرقند سير ملك المغول الى علاء الدين جيشا في نحو ٢٠ ألف فارس وقال لهم : " اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسما حتى تدركوه وتأخذوه " ، وهؤلاء العساكر يسمون بالتر المغربة لأنهم ساروا نحو غرب خراسان للتفريق بينهم وبين غيرهم ، فلما عبروا نهر جيحون وأصبحوا في مواجهة عساكر خوارزم شاه ، تفرق عساكر خوارزم شاه وطلبت كل طائفة منهم جهة وفر أيضا خوارزم شاه لا يلوى على شئ .

ولما ينس المغربة من إدراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وقتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران اتجهوا نحو (الري) فرأوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه ومعهم أموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها أحد ، وكان

سبب ذلك أن والده خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الري لتصل إلى أصفهان وهمدان وبلاد الجبل لكي تمتنع بها ، فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها إلى الري ، ونهبوا ما معهم من غريب المتاع ونفيس الجواهر وسيروا الجميع إلى جنكيز خان بسمرقند .^(١)

في الوقت الذي كان علاء الدين يهرب سريعا في نفر من خاصته وقصدوا "نيسابور" ولكنه ما كاد يصلها حتى وصل الخبر أنهم في أثره فانتقل إلى بحر طبرستان ومنها إلى بخارى ومنها إلى سمرقند وغيرها ، حتى توفي في قلعة بـ "همدان" سنة ٦١٧ هـ^(٢) ويذكر "لين بول" أنه توفي في إحدى جزر بحر الخزر (بحر قزوين) .

وأثناء زحف المغول على دولة خورزم تم تحطيم أعظم المدن في مجال الحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها من المدن التي كانت عامرة بالعلماء والكتب ودور العلم التي كانت زاخرة ومزدهرة بالحركة العلمية فحطم المغول كل هذا فأصبح أثرا بعد عين فسبحان من له الدوام .

وكان علاء الدين قد دخل المذهب الشيعي سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) وكان يتأهب قبل احتكاكه بالمغول لمحاربة الدولة العباسية ، لكن ظهور المغول بغتة على حدود بلاده الشمالية جعله لا يستطيع تنفيذ مقصده وتوفي^(٣) .

ويذكر المؤرخون عن علاء الدين أنه كان عالما يحترم العلماء ويكرمهم ويحبهم ويحسن إليهم وكان صبرا على التعب وادمان السير غير متنع ولا مقبل على اللذات كما يقول عنه "ابن زيني دحلان"^(٤) ، وإنما كان همه في الملك وتدبيره وحفظ رعاياه ، وكان معظما لرجال الدين مقبلا عليهم متبركا بهم ، ونقل عنه في

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣٥ ، حدث سنة ٦١٧ هـ ، طعة دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٨٣ م .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٣٤ .

(٣) "لين بول" تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

(٤) قديب تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ، ص ٩٥ .

ذلك حكايات كثيرة منها : أنه دخل عليه رجل من خدام حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فعظمه تعظيما كثيرا وأجلسه بجانبه وصار يأخذ يده ويتبرك به ويمر بها على وجهه كما يذكر "ابن الأثير" ^(١) ، وتولى الحكم بعده ابنه جلال الدين .

جلال الدين خوارزم شاه :

تولى جلال الدين الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦١٧هـ ، و لجلال الدين هذا وقائع كثيرة مع المغول فقد تغلبوا عليه كما تغلبوا على والده من قبل فصاروا يطلبونه من كل ناحية حتى أنه فر إلى الهند وظل بها حوالي ثلاث سنوات وكانت له في هذه المدة عدة مغامرات عجيبة مع حكام الهند .

وكان يجب على جلال الدين أن يتعلم من الدروس التي خاضها أبوه فيما يتعلق بنزاعه مع الخليفة هذا النزاع الذي كان سببا في ضعف الدولة ، فكان يجب عليه أن يقوى ارتباطه بالخليفة وجيرانه من حكام المسلمين ليتقوى بهم ولكنه لم يفعل ذلك بل كرر إخطاء أبيه كما سنرى .

ففى سنة ٦٢٨هـ وصل إلى العراق ثم إلى ديار بكر حيث كان يحكم أخوه غياث الدين ، ووجد غياث الدين نفسه مضطرا للخضوع لأخيه جلال الدين وكانت هناك فرصة لكي يقوم بتعمير ما خربه المغول وإعادة الأمن والسلام للبلاد التي حكمها آباؤه من قبل .

بل إنه على العكس من ذلك تنازع مع الخليفة العباسي (الناصر) وهذا ما أضعفه وأضعف الخلافة أمام الزحف المغولي ، وعاد المغول للظهور في بلاد الإسلام إبان هذه الصراعات الداخلية المتلاحقة، وبينما كان جلال الدين يتأهب لملاقمهم إذ شب النزاع بينه وبين أخيه غياث الدين فتركه غياث الدين وسط جنده وعاد إلى كرمان) عام ٦٢٥هـ وفيها لقي حتفه نتيجة لبعض المكائد ^(٢) .

(١) عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص ٣٣٤-٣٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جلال الدين خوارزم شاه .

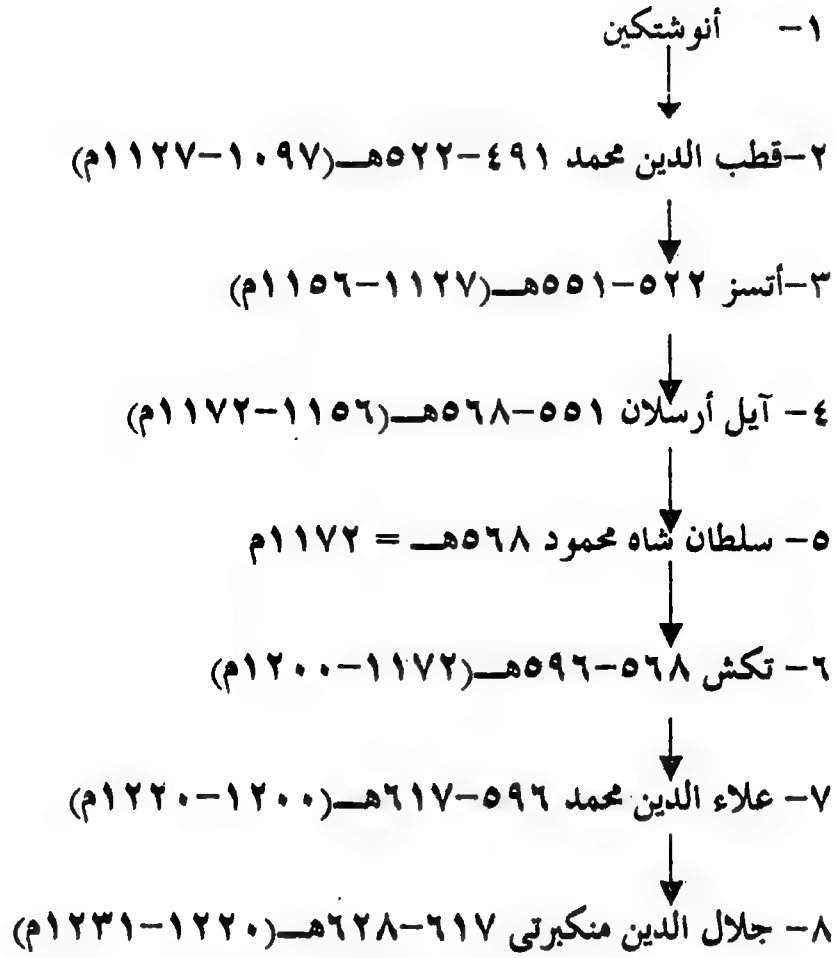
وتقابل جلال الدين مع المغول وظل الصراع سجّالا بينه وبينهم وتفرقت
عساكره وظل ينتقل من "الموصل" الى "سنجار" و "أربل" وغير ذلك من البلاد ،
فسبحان من بدل الأمن خوفاً والعز ذلاً والكثرة قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما
يشاء .

وينقل "أحمد بن زيني دحلان" عن "ابن الوردي" أن جلال الدين خوارزم
شاه انتهت به المطاردة إلى بيت بعض الأكراد ليختفى عنده فلما عرف الكردي أنه
السلطان قتله وقال الكردي أن ذلك بسبب أنه قتل أخا له وذلك في ٦ من شوال
سنة ٦٢٨هـ ، وكان جلال الدين آخر الملوك الذين تسموا (خوارزم شاه) ومدة
ملكهم ١٣٨ سنة تقريباً^(١) من سنة ٤٩٠هـ حتى سنة ٦٢٨هـ .

وهكذا نرى أن عامل الفرقة بين المسلمين هو المرض العضال الذي يقضى
على قوتهم ، وهو الذي ساعد المغول في اجتياح بلاد المسلمين والقضاء على حضارة
الجزء الشرقي منها ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك . في وقت تمكن فيه الصليبيون من
بلاد الشام وعانوا فيها فساداً .

(١) أحمد بن زيني دحلان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

شجرة نسب ملوك خوارزم شاه



الدولة العثمانية

الظروف والملابسات السياسية التي ظهر فيها العثمانيون :
كانت العناصر التركية والمغولية تعمّر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس والصين القديمتين ولم يكن في استطاعتها أن تتخطى أسوار إحدى هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ولكنها ظلت تقوم بدور الوسيط في نقل الحضارة بينهما ، وكانت قوة الإمبراطورية الفارسية تحول بينهم وبين التدفق غرباً إلى بلاد الشرق الأدنى .

وبعد أن احترقت الجيوش الإسلامية حزام فارس إلى موطن الأتراك فيما وراء النهر وبلاد خوارزم ، أقبل الأتراك يدخلون في رحاب الإسلام ، وعندما أخذت الدولة الإسلامية في الضعف في العصر العباسي الثاني ، أحست العناصر التركية بضعف السلطة المركزية بدأت تحاول إنشاء دولة تركية إسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنهارة ، (ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية في ظل الخلافة العباسية وهي الدولة السامانية^(١)) "٢٦١-٣٨٩هـ" وعاصمتها بخارى .

وكان قيام هذه الدولة حافزاً لكثير من القبائل التركية على الزحف إلى منطقة الشرق الأدنى في أوائل القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) وكان من أهمها عناصر القبائل السلجوقية في القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) وعلى أثر ذلك زاد النفوذ التركي السلجوقي في البلاط العباسي واستبد السلاجقة بالخلفاء في بغداد وكان للسلاجقة فضل في توحيد الدولة الإسلامية وقاموا بتوسيع أملاكها على حساب الإمبراطورية البيزنطية ، وتمكنوا من هزيمة الدولة البيزنطية في موقعة ملاذكرد في سنة ٤٦٢هـ (١٠٧١م) ووصلت أملاكهم إلى بحر مرمرة وسيطر

(١) حسن مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، ص ١٨-١٩ .

السلاجقة بعدها تماماً على آسيا الصغرى (الأناضول) وصار الأناضول مهجراً تقصده العناصر التركية زاحفة من وسط آسيا^(١).

غير أن ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الأتراك السلاجقة ما لبث أن انهار بعد وفاة (ملك شاه) السلجوقي سنة ١٠٩٢م فقد انقسمت الدولة السلجوقية بعده إلى دويلات صغيرة مزقت الكيان السلجوقي، وعرفت هذه الدويلات بدويلات الأتابكة، وفقد أمراء السلاجقة سلطانهم بعد أن استبد بهم الأوصياء عليهم المعروفون بالأتابكة.

وشهدت أحداث القرن الثاني عشر الميلادي (٦هـ) ظهور عماد الدين زنكي أتابك الموصل، ومن بعده ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي الذين حاولوا توحيد الشرق العربي ضد الزحف الصليبي، كما شهد هذا القرن أيضاً سقوط الدولة الفاطمية الشيعية في مصر، واستيلاء صلاح الدين الأيوبي على التركة الفاطمية في مصر.

وفي أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر (٧هـ) دخل في الأناضول عنصر جديد هو العنصر المغولي، إذ لم يكد المغول ينتصرون على السلاجقة في معركة (كوسة طاغ) الجبل الأقرع سنة ١٢٤٣م حتى أخذوا يوطنون قبائلهم وجيوشهم في الأناضول^(٢).

وكان يقابل هذا التكاثر المستمر في الجانب الإسلامي نقص مستمر في الجانب المسيحي في الأناضول، حتى صار المسيحيون منذ القرن الثالث عشر (عناصر تذكارية) في جنوب الأناضول^(٣) بسبب إسلام بعضهم وهجرة البعض الآخر.

وقد تركزت العناصر المغولية وسط الأغلبية التركية بالأناضول، حتى إذا ما دالت دولة (الإيلخانيين) المغولية التي أسسها (هولاكو) في الأناضول سنة

(١) محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص (ط).

(٢) المرجع السابق، ص (ي).

(٣) المرجع السابق، ص (ل)، (م).

١٢٥٣هـ^(١) : خلت العناصر المغولية بحسب أماكنها الجغرافية في خدمة الإمارات المختلفة التي تمخض عنها الوضع السياسي في نهاية القرن الثالث عشر ، وتقدر تلك الولايات بنحو ست عشر ولاية (أو دويلة) على الأقل وكان من بينها ولاية آل عثمان .

ولا زالت هناك بعض المشكلات التي تتصل بقيام الدولة العثمانية وتحتاج من الباحثين إلى كثرة التوفر على دراستها لحلها أو الإجابة عليها إجابة معقولة ، ولعل من أهم هذه الأسئلة : في أي زمان اعتنق العثمانيون الإسلام ؟ .

وتجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذي أنجب أسرة عثمان والذي يعتبر - بالضرورة - النواة الأولى للدولة العثمانية ، عنصر غزي أي تركي لا يفترق في ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة^(٢) ، وتنتمي أسرة عثمان إلى قبيلة (قاي خان) التي تنقلت روحاً من الزمن إبان القرن الثالث عشر في الأناضول بقيادة زعيمها سليمان جد عثمان ثم بقيادة ابنه ارطغرل من بعده ثم بقيادة عثمان وكانت هذه القبيلة تخضع نظرياً لا عملياً لسلطين (قونية) .

وشهدت العناصر التركية بآسيا الصغرى فترة من الاضطراب بسبب الزحف المغولي على الأناضول مما سبب لها كثيراً من التنقل والترحال الإجباري من مكان إلى آخر ، وبعد موت (جنكيز خان) فكر سليمان شاه جد عثمان في العودة بقبيلته إلى موطنه الأصلي بآسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية ، بيد أنه غرق عند فخاضة على نهر الفرات قرب حلب ، ودفته أبنائه بجوار قلعة جعبر داخل الحدود السورية الحالية عام ٦٢٦هـ (١٢٣١م) وما زال قبره هناك معروف باسم (ترك مزارى) أي مزار الترك^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣-٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) انظر : ساطع الحصري ، الدولة العثمانية والبلاد العربية ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٦٠ ، ص ١٣-١٤ .

وبعد موت سليمان انقسم بنوه من بعده ، فمنهم من فضل مواصلة المسير إلى مقصد أبيهم ، ومنهم من آثر البقاء في تلك النواحي ، وكان على رأس الفريق الثاني ارطغول بن سليمان الذي قاد رجاله متوغلاً في آسيا الصغرى .

وتروي الحوليات العثمانية أنه بينما كان ارطغول يسير بمن تبعه من قبيلته في وهاد الأناضول شاهد جيشين يقتتلان أحدهما من المغول بقيادة (أوكتاي بن جنكيز خان) والآخر بقيادة علاء الدين السلجوقي (١٢١٩-١٢٣٥م) (سليمان قونيد) . فدفعته غريزته الحربية للتوقف لمشاهدة هذا المنظر المألوف لدى القبائل الحربية ، وظل يرقب الموقف حتى تحقق من انكسار الجيش السلجوقي وعندئذ أسرع بالانضمام إليه وهاجم جيش المغول بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوبهم وأعمل فيهم السيف ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغولي ^(١) وكان ذلك في عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) وبعد المعركة عقدت أواصر الصداقة والمحبة بين علاء الدين السلجوقي وأرطغول ، وكافأه علاء الدين على مساعدته له باقطاعه قطعة من الأرض على حدود الدولة البيزنطية قرب مدينة (بروسه) تسمى (اسكيشهر) ومنحه لقب (سلطان أوني) أي مقدمة السلطان لوجود قبيلته في مقدمة جيوشه واتخذ ارطغول الهلال - شارة السلاجقة - شعاراً له على أعلامه وبيارقه ، هو الرسم الذي لا تزال ترفرف به أعلام الأتراك حتى الآن ^(٢) .

وصار علاء الدين يعتمد في حروبه مع مجاوريه وخاصة الدولة البيزنطية ، على أرطغول ورجاله ، وكان عقب كل انتصار يمنحه أرضاً جديدة ، وكانت هذه الإمارة الصغيرة (اسكيشهر) هي مهد الدولة العثمانية ، ففيها ولد عثمان بن أرطغول سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) الذي ينتسب إليه الدولة العثمانية ، وفيها دعم ارطغول إعدام قبيلته في الأناضول وفيها تمكن من تحويل قومه من نظام القبيلة المتقلة إلى نظام

(١) انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٩-٤٠ .

(٢) انظر : د. عبد السلام عبد العزيز فيسي . السلطان محمد محمد الفاتح ، دمشق ١٣٩٥هـ ، ص ١٢ .

الدولة المستقرة التي بدأت تنمو، وتتسع بالتدريج على حساب الإمبراطورية البيزنطية بالأناضول حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدتها التاريخ .

ولما توفي أرطغول سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) خلفه في حكم الإمارة ابنه عثمان ، فسار على نهج والده في تدعيم سلطانه في إمارته الناشئة باتصاله الوثيق بخلفاء علاء الدين السلجوقي وواتته الفرصة عندما تمطمت هبة سلاجقة الروم أمام غارات المغول وفر آخرهم سنة ٦٩٩هـ (١٣٠٠م) هارباً ولجأ إلى الإمبراطور البيزنطي الذي غدر به وقتله ، فاستقل بإمارته ، ولم يلبث أن ضم إليها بقية الإمارات التركية الأخرى التي قامت بالأناضول بعد الغزو المغولي ، واندجت هذه الإمارات التركية في إمارة عثمان على توالي الأيام وسموا أنفسهم عثمانيين أيضاً ، وبذلك ورث العثمانيون سلاجقة الروم متوسلين في سبيل ذلك حيناً بالمصاهرة وحيناً بالمال ، وحيناً بالقهر والغلبة .

وتدعمت حركة عثمان دينياً عندما اتصل بشيخ الطرق الصوفية في الأناضول ، وهو الشيخ (أدبالي) أدب عالي وأكثر من التردد عليه ، وكان رجلاً صالحاً من العلماء المسلمين والمتعمقين في الدراسات الدينية ، وكان هذا العالم يقيم في قرية مجاورة لمدينة (اسكيشهر) وفي خلال زيارته له تعمقت أواصر المحبة بينهما ، وتوجت هذه الصلة بأن تزوج عثمان ابنة هذا الشيخ واسمها (مال خاتون) ثم قلده الشيخ سيف الجهاد في سبيل الله ، وبذلك قويت حركة العثمانيين روحياً وأصبح لها دعاة يقوون من روح جنودهم المعنوية الأمر الذي يجعلهم يستبسلون في الجهاد ويحتقرون الموت في ساحات القتال .

وإذا كان أرطغول والد عثمان قد بني أساس الدولة العثمانية ودعمها سياسياً باتصاله بعلاء الدين السلجوقي ، فإن عثمان قد دعم الدولة بروح الجهاد الديني عندما اتصل بشيخه ووالد زوجته الشيخ أدب عالي ، وتحمس عثمان لعقيدته الدينية

وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين وصارت تلك السمة الدينية وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين ، وصارت تلك السمة الدينية من الصفات البارزة الملزمة لسلاطين آل عثمان فيما بعد ، وصار من رسومهم بإستانبول أن يتقلدوا سيف عثمان من أمام جامع أبي أيوب الأنصاري حيث تتم البيعة لهم .

ومن ناحية أخرى أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة ، مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك .

وأخذ عثمان يوسع أراضيه بالتدريج مستغلاً الفوضى والإهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول ، وكان أول صدام بينه وبين البيزنطيين في معركة (قوين حصار سنة ١٣٠١م) ولم تستطع بيزنطة لمدة طويلة أن تتحرك ضد عثمان ، فقد كانت مشغولة بالقلقل والفن في العاصمة وفي البلقان ، وسقطت في يد العثمانيين أماكن كثيرة كان عايتها أن تدافع عن نفسها بقراها المحلية ، فسقطت (بروسه) في سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) وفي هذه السنة توفي عثمان في بروسه ودفنه بنوه فيها بعد تدعيم مركز دولته في الأناضول ، وولى الحكم بعده ابنه (أورخان) .

وقد وجد آل عثمان هناك مجالاً واسعاً لتوجيه نشاط عشيرتهم الفتية نحو الحرب والجهاد لفتح الأقاليم البيزنطية وادخالها في حوزة الإسلام وإقدامهم على الجهاد بهذه الصورة صار يجذب إليهم عدداً غير قليل من المتطوعين من مختلف الإمارات التركية الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية^(١) .

وسار العثمانيون في حكمهم على هدي الإسلام ، وكانوا متحمسين له ، وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في مستقبل عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون ، فقد عبأهم الإسلام

(١) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٦ .

بشعور إسلامي دافق جعلهم متحمسين للإسلام ، واجتمع لهم إلى جانب العاطفة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين ، وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون ^(١) .

وقد استفاد العثمانيون عندما اجتازوا الدردنيل سنة ١٣٤٥م في عهد (أورخان) وأخذوا يتغلغلون في القارة الأوروبية في البلاد التي اسموها "روم ايلي" (روملى في المراجع العربية) أي ديار الروم ، فقد كانت تلك البلاد تعتبر من الوجهة الشرعية دار حرب وجهاد ، فيسوغ فيها الاسترقاق ، ولذلك ابتكر آل عثمان في عهد أورخان ، طريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد (فأخذوا يقومون من وقت لآخر ، بعادات على ما وراء حدودهم ، في البلاد "النصرانية" بقصد استرقاق الأطفال ، وكانوا يعودون من تلك الغارات بعدد كبير من الأطفال الصغار المدين كانوا يودعونهم في مؤسسات خاصة لتنشئهم نشأة إسلامية عسكرية ، وكان هذا الجيش هو الذي عرف بالإنكشارية (وهذه الكلمة محرفة من التركية "ين تشري" بمعنى النوع الجديد أو النظام الجديد) ^(٢) وكان أفراد هذه الطائفة لا يعرفون - بطبيعة الحال - شيئاً عن أصلهم ونسبهم ، فما كانوا يشعرون بارتباط نحو أسرة غير أسرة الجيش الذي ينتسبون إليه ، وكانوا ينشأون على الديانة الإسلامية ويتشبعون بفكرة الجهاد منذ نعومة أظفارهم ، يؤمنون بأن الجهاد من فرائض الإسلام ، فيذهبون إلى ساحات القتال وهم يقولون في قرارة أنفسهم : "إما غازي وإما شهيد" بمعنى أن عليهم إما أن ينتصروا على الأعداء فيكونوا من الغزاة ، وإما أن يموتوا خلال الحرب ، فيدخلون في زمرة الشهداء الأبرار .

(١) د. عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٣٩ .

(٢) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦-١٧ .

وصفوة القول أن هذا الجيش كان ينشأ للحرب والجهاد ويستعد لذلك من كل الوجوه المادية والمعنوية ، ويعتبر هذا الجيش في نظر بعض المؤرخين أول "جيش دائم" عرفه التاريخ^(١) .

وبعد أن عبر العثمانيون الدردنيل واستولوا على (غاليبولي) استوفدوا كثيراً من أتراك الأناضول وكذلك بعض العشائر التركمانية فوطنهم هناك ، وفر قسم من أهل (تراقيا) أمام الزحف العثماني وعمر الأتراك القادمون من الأناضول أماكنهم الخالية .

وبدأت بيزنطة التي احتفظت بمركزها كعاصمة قروناً طويلة تحس بالخطر العثماني بأوسع معانیه ، ولما ولي (مراد الأول) العرش في سنة ١٣٥٩م (٧٦١هـ) كان الأتراك قد استقروا نهائياً على ساحل أوروبا متخذين من (غاليبولي) نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية وتقدمت الفتوحات في (تراقيا) ووفق مراد في مدة سلطنته التي استمرت حتى سنة ١٣٨٩م (٧٩٢هـ) في تحقيق غايته وهي بسط سلطان العثمانيين بصورة ثابتة على البلقان .

وسارت فتوحات الدولة العثمانية بسرعة حتى عهد السلطان الرابع بايزيد الأول (٧٩٢-٨٠٥هـ) (١٣٨٩-١٤٠٢م) ويمكن لنا أن نقرر أن الدولة في عهده صارت إمبراطورية راسية القواعد في الأناضول والبلقان بيد أن الدولة اعترها في عهده التوقف مدة من الزمن بسبب الحرب التي قامت بينها وبين (تيمور لنك) الذي انتصر على بايزيد في معركة (أنقرة) وأسره سنة ١٤٠٢م وعلى أثر هذه الموقعة تنازع أولاد بايزيد السلطان فاستقل كل واحد منهم بجزء من أجزاء المملكة ، ثم انتهى هذا النزاع بانتصار السلطان محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) (١٤٠٢-١٤٢١م) على أخوته .

(١) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

وفي عهد السلطان (محمد الأول) بدأ عهد جديد من الفتح فقد تغلغل العثمانيون في شبه جزيرة البلقان حتى أقموا فتح جميع أقسامها ، ثم توسعوا في الأناضول حتى أوصلوا حدودهم إلى جبال طوروس ، وأصبحوا متآخين لدولة المماليك .

وقد توج العثمانيون هذه الانتصارات بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م على يد السلطان محمد الثاني (٨٥٥-٨٨٦ هـ) (١٤٥١-١٤٨١ م) الذي استحق لقب الفاتح منذ ذلك التاريخ ، ولما شاع خبر فتح القسطنطينية في الآفاق فرح المسلمون وأرسل يلبطان المماليك إلى السلطان العثماني بالتهنئة والحق أن محمد الفاتح حقق بفتح القسطنطينية أمنية ظلت تراود المسلمين منذ صدر الإسلام وكان من أول الأعمال التي قام بإنجازها محمد الفاتح بعد فتحها عمل يرمز إلى هذه الحقيقة ويمثل كفاح المسلمين الأوائل الذين حاولوا فتح عاصمة الدولة البيزنطية ، إذ بادر الفاتح إلى تشييد مسجد للصحابي الجليل (أبو أيوب الأنصاري) الذي استشهد عند أسوار القسطنطينية في أوائل المحاولات الإسلامية لفتحها في القرن الأول الهجري ثم دفن أمام أسوارها (سنة ٥٠ هـ / ٦٦٩ م) .

ويذكر القرماني المؤرخ في كتابه "أخبار الدول وآثار الأول" بصدد التعرف على قبر أبي أيوب الأنصاري : أن السلطان محمد الفاتح التمس معرفة القبر باجتهاد أحد الصالحين الذين رافقوا محمد الفاتح في حملته الموفقة ويدعى (الشيخ شمس الدين) فأمر السلطان بأن تبنى قبة فوق القبر وألحق بها جامعاً فخماً هو من أهم المساجد الإسلامية الآن في استانبول .

والحق أن السلاطين العثمانيين قلموا بفتوحاتهم في أوروبا تحذوهم إلى ذلك عاطفة دينية جياشة تتأجج بها صدورهم ، ولما يروى عن السلطان (بايزيد الثاني) ٨٨٦-٩١٨ هـ — (١٤٨١-١٥١٢ م) إنه كان إذا انتهى من غزوة من غزواته جمع ما على ثيابه من غبار واحتفظ به ، ولما أحس بدنوا أجله أمر بأن تصنع من هذا الغبار

الذي دأب على جمعه لبنة فضربوا له به لبنة صغيرة أوصى السلطان بأن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن ، وكأنه أراد أن يستأنس بالحديث القائل "من أغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار" .

سرعة المد العثماني :

اكتسح الغزو العسكري العثماني العالي العربي في سرعة غير عادية ، ففي فترة وجيزة من الزمن كان قد غطى الجزء الأكبر منه فلم يترك سوى جيبيين رئيسيين لم يخضعا له لا اسماً ولا فعلاً وهما المغرب الأقصى في أقصى الغرب وساحل الخليج العربي ابتداء من الحسا والكويت حتى عمان في أقصى الشرق .

فقد ترتب على خضوع مصر والقسام للعثمانيين وزوال دولة المماليك أن دخل (الحجاز) تلقائياً وسلمياً ضمن الدولة العثمانية ، ذلك أن الحجاز كان تحت السيادة الاسمية للمماليك وكان الحجاز يتلقى من مصر كل عام كميات من الغلال علاوة على الأموال المخصصة لأهالي الحرمين الشريفين ، ومرتبات إشراف الحجاز وكانت قافلة الحج المصري تذهب كل عام إلى الحجاز ومعها المحمل المصري وتحمل معها الخير والرخاء لأهل الحجاز .

وبعد انهيار دولة المماليك أمام الزحف العثماني رأى (الشريف بركات) شريف مكة أنه لا ضير عليه من أن يتجه بولائه إلى العثمانيين وخاصة أنه سيكون لهذا الاتجاه فائدة في استمرار تدفق الخيرات من مصر على الحجاز ، ولذلك فإنه عندما دعاه السلطان سليم للدخول في طاعة العثمانيين استجاب على الفور لهذه الدعوة ، وأوفد ابنه وشريكه في الولاية (أبوغنى) يحمل مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم في القاهرة تعبيراً عن الولاء ، فمنحه السلطان سليم تفويضاً بحكم مكة حيث صارت الخطبة باسم سليم ، وأمر بقتل (حسين الكردي) وإلى جدة من قبل السلطان الغوزي ، وبذلك حظيت الدولة العثمانية بشرف حماية الحرمين الشريفين وأضيف لقب السلطان (حامي الحرمين الشريفين) وهذا الأمر كان من

الأمر التي تحافظ الدولة العثمانية عليه وعلى بقاء الحرمين الشريفين في حوزتها ، وأصبح تعيين شريف مكة من مهام الدولة العثمانية .

ودخلت (بلاد اليمن) تحت السيادة العثمانية سلمياً في بادئ الأمر كما حدث بالنسبة للحجاز ، وذلك عندما أصدر السلطان سليم أمراً سلطانياً بتثبيت (اسكندر الجركسي) أو المخضرم المملوكي والياً على اليمن مثلما كان في عهد المماليك إلا أن النزاع استمر بين القواد الجراكسة في اليمن الأمر الذي أدى إلى زعزعة النفوذ العثماني مما دفع العثمانيين إلى إرسال حملة بقيادة (سليمان باشا الخارم) سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م فكانت أول حملة حقيقية على اليمن ودخلت عدن بترحيب حاكمها (عامر بن داود) الظاهري الذي كان في نزاع مع إمام اليمن إلا أن الجنود العثمانيين أعملوا فيها النهب والسلب ، كما غدر سليمان باشا بأمير عدن الذي ساعدهم على دخولها مما كان له أسوأ الأثر على سمعة العثمانيين في بلاد اليمن، ولكن سليمان باشا فشل في استدراج الإمام (شرف الدين) إمام اليمن ، وظل النزاع قائماً في اليمن بين الزيدية والعثمانيين وظلت الاضطرابات والثورات تعم اليمن بلا هوادة حتى عام ١٦٣٥م.

وظل العراق مجال الصراع بين العثمانيين والصفويين حتى قام السلطان (سليمان المشرع) على رأس حملة على العراق عام ١٥٣٤ دخل بغداد وحاول الحرص على عدم الإساءة إلى مشاهد الشيعة بالعراق ولذلك زار الكثير من مزاراتهم والوقف عليها الكثير من الأوقاف كما بنى سد السيمانية على الفرات الأوسط لحماية العتبات المقدسة في (كربلاء) من مياه الفيضان في الربيع وزار قبر (الإمام عني) رضي الله عنه في النجف ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن إرضاء السنة كذلك ، وقبل أن يغادر سليمان العراق بعث إليه (حاكم البصرة) العربي بابنه راشد يحمل إليه مفاتيح البصرة رمزاً للخضوع وبذلك خضعت البصرة أيضاً للنفوذ العثماني ودخلت في حوزة الدولة العثمانية وهكذا أخضع العراق من شماله إلى جنوبه

للحكم العثماني على الرغم من عودة الإيرانيين إلى محاولة استرداد المرة بعد الأخرى ولم ينته الصراع بين إيران والدولة العثمانية إلا في عام ١٧٤٧م حيث خضع العراق نهائياً للحكم العثماني .

العثمانيون والمغرب العربي :

وإذا كان العثمانيون قد استخدموا السيف وسيلة في ضم المشرق الأدنى إليهم فإن طريقتهم لضم شمال أفريقيا قد تمت بوسائل أخرى ، ويرجع ذلك إلى ظروف المغرب العربي ، في ذلك الوقت كان المغرب العربي يشن في نفس الفترة التي اشتدت فيها انتصارات العثمانيين في البلقان والمشرق العربي من هزات واضحة أصابته في الأندلس ، وأصابته على سواحل الطويلة الممتدة جنوب الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد أن كان سقوط (غرناطة) في يد المسيحيين سنة ١٤٩٢ نقطة تحول خطيرة في تاريخ هذا الإقليم الإسلامي ، واضطر بعدها الأندلس إلى الاختيار بين القتل والتعميد ، (كانت معظم معاقل المسلمين في الأندلس قد سقطت ، الواحدة تلو الأخرى في أيدي الأسبان) وأسرع عدد كبير من العرب بالخروج من الأندلس فراراً بما تمكن من حمله ملتجئاً إلى موانئ شمال أفريقيا ، وكانت خطة الأسبان تلتخص في القضاء نهائياً على الحكم الإسلامي في الأندلس بل حتى القضاء على الأهالي المسلمين هناك تمهيداً لإقامة دولة تعتمد قبل كل شيء على مواطنين أسبانيين مسيحيين ، وتشمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب العربي واحتلال موانئه المطلة على البحر المتوسط ، واحتلال أقاليم أفريقيا السوداء الواقعة إلى جنوبه ، إن لم تتمكن الدولة الكاثوليكية من احتلال المغرب العربي نفسه وتحويله إلى المسيحية .

ولقد حاول أبناء المغرب العربي الدفاع عن سفن المهاجرين ووقف هجمات سفن المسيحيين على أساطيلهم وموانئهم وعملوا أكثر من ذلك على الثأر والانتقام من المسيحيين وسفنهم بعد كل حادثة تقع للمسلمين الفارين من وجه الأسبان ، وقد

أطلق الأوروبيون في كتبهم على أعمال المسلمين المغاربة في الدفاع عن الأندلسيين اسم القرصنة ولكن اسمها الحقيقي هو الجهاد البحري .

واحتل البرتغاليون بعض الموانئ في المغرب الأقصى وبدأ الأسبانيون في احتلال طرابلس الغرب وكان البرتغاليون قد احتلوا (سبتة) سنة ١٤١٦م واحتل الأسبان المرسى الكبير سنة ١٥٠٥م ثم هجموا على (وهران) سنة ١٥٠٩م حيث قتلوا ٤٠٠٠ مسلم وأسروا ٨٠٠٠ واحتلوا إحدى الجزر الصغيرة المواجهة للشاطئ ولضربه منها بالقنابل ولم تكن هذه الجزيرة تبعد عن الساحل إلا بمسافة ٣٠٠ متر وهي الجزيرة التي أصبحت فيما بعد نواة لبناء مدينة الجزائر عاصمة الجزائر الحالية.

وبان هذا الصراع بين المسلمين والأسبان والبرتغاليون في المغرب تطلعت أنظار المغرب العربي إلى إخوانهم المسلمين في المشرق العربي من أجل توحيد صفوفهم في كفاحهم المصري أمام الخطر الأوروبي المتزايد ، وقد كان من أبرز الأسماء التي لمست في تاريخ المغرب العربي في تلك الفترة هما الأخوان (عروج) و (خير الدين بربروسا) اللذين دافعا عن المغرب العربي دفاعاً مستميتاً أمام المد المسيحي ، ولما وجد (خير الدين بربروسا) صعوبة مقاومة الأسبان وجد من الأفضل أن يدخل في خدمة السلطان العثماني ويعمل باسمه ومن ثم طلب حماية السلطان (سليم) وقد منحه السلطان سليم لقب (بك بكوات أفريقية) وأرسل إليه عدداً من الجنود الانكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالي في الدولة العثمانية نفسها لمساعدته في عملياته الحربية في غرب البحر المتوسط ، وقد تمكن (خير الدين) من أن يستولي على المنطقة الساحلية من الجزائر واستولى على القلعة التي بناها الأسبانيون على جزيرة مواجهة للساحل الجزائري ووصل هذه الجزيرة بالبلاد سنة ١٥٢٩م ، وأصبحت نواة لمدينة الجزائر الحالية ، وقد عمل خير الدين على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة وأصبح أسطوله مرهوب الجانب في الخوض الغربي للبحر المتوسط ومنحه السلطان العثماني لقب (قيودان باشا) وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية ،

وقام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال أفريقية فاحتل (تونس) وطرد منها مولاي الحسن حليف الأسبان ، وأصبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد أصبح رئيساً لدولة كبيرة وإن كانت متحدة مع الإمبراطورية العثمانية وأصبح الحارس الأمامي للإمبراطورية العثمانية في غرب البحر المتوسط وكانت تسنده جميع قوات هذه الإمبراطورية في صراعه مع المغرب ، وهكذا بدأ ظهور الأتراك العثمانيين في شمال أفريقيا.

أما مراکش فقد نجحت في صد كلا من الضغطين الأسباني والعثماني وكانت هي الدولة العربية الوحيدة في المغرب العربي التي لم تخضع للحكم العثماني واستطاعت دولة (الأشراف السعديين) في مراکش الاحتفاظ باستقلالها واعتزازها بترعتها الإقليمية واتخذت من حدودها الطبيعية حاجزاً يفصلها عن جيرانها وبخاصة في الشرق وأصبح المغرب الأقصى هو القطر الوحيد الذي لم يتحد مع بقية الأقاليم العربية والإسلامية رغم استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح ووحدة التاريخ بين شعوب المنطقة كلها .

والواقع أن الأشراف السعديين في مراکش قاموا بدورهم في الجهاد الديني ضد الأسبان والبرتغال غير أنهم لم يقتنعوا بالانضمام إلى الدولة العثمانية والانضواء تحت لوائها لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق من العثمانيين بزعامة العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، وإذا كانت الظروف تفرض على أحد القوتين الخضوع للقوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل في أحقية الأشراف في السيادة ، ومن ثم وقع صدام مؤسف بين الأشراف السعديين في مراکش وبين الجزائريين وحاولت كل دولة منها النيل من الأخرى وكان الموقف يقتضي وحدتهما أمام الزحف الأوروبي على العالم الإسلامي .

وصفوة القول أن الدولة العثمانية قد تمكنت من السيطرة على غالبية العالم العربي في سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة نتيجة عدة عوامل في مقدمتها

الضعف الداخلي والخطر الخارجي ثم التجاوب الديني أو الرشيحة الدينية التي لولاها
لكان مصير الغزو العثماني منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والمسيحية
السابقة كالمغول والصليبيين وبسبب هذه الرشيحة الدينية وخطورة المد الأوروبي
كان التجاوب وكانت السرعة .

المراجع والمصادر

- ١- إبراهيم باشا رفعت (ت ١٩٣٥م) ، مرآة الحرمين .
- ٢- ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء .
- ٣- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، طبعة بيروت .
- ٤- أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة .
- ٥- إحسان الهي ظهير ، الإسماعيلية .
- ٦- أحمد أمين (ت ١٩٥٤م) ، (فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام) .
- ٧- أحمد بن إياس (ت ٩٢٩هـ) ، بدائع الزهور .
- ٨- أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ .
- ٩- أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام .
- ١٠- د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي .
- ١١- أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦م .
- ١٢- أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٦٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب .
- ١٣- أحمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد .
- ١٤- أحمد بن علي المقرئ (ت ١٤٤٢م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
- ١٥- أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ) وفيات الأعيان .
- ١٦- أحمد مجاهد مصباح ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ١٩٧١م .
- ١٧- أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي .

- ١٨ -- أرمنيوس ، تاريخ بخارى .
- ١٩ - د. السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن .
- ٢٠ - بارثولد ، تلاكستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي .
- ٢١ - بانيكار ، آسيا الوسطى والسيطرة الغربية .
- ٢٢ - بديع جمعة وأحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم .
- ٢٣ - البغدادي (عبد القاهر بن طاهر ت ٤٢٩ هـ) ، الفرق بين الفرق .
- ٢٤ - توماس أرنولد (ت ١٩٣٠ م) ، الدعوة إلى الإسلام .
- ٢٥ - جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) " نهاية الأرب في فنون الأدب " .
- ٢٦ - د. جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا .
- ٢٧ - حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين .
- ٢٨ - د. حسن إبراهيم حسن ، وأخيه علي ، (النظم الإسلامية - تاريخ الإسلامي السياسي)
- ٢٩ - حسن أحمد محمود وأحمد الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي .
- ٣٠ - د. حسين مؤنس ، الأطلس الإسلامي .
- ٣١ - خير الدين الزركلي ، الأعلام .
- ٣٢ - الخطيب البغدادي (أحمد بن علي ت ٤٦٣ هـ) ، تاريخ بغداد .
- ٣٣ - دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية .
- ٣٤ - د. رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر .
- ٣٥ - ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية .
- ٣٦ - السالمي ، تحفة الأعيان .
- ٣٧ - ستانلي لين بول ، معجم الأسر الحاكمة الإسلامية ، ترجمة أحمد السعيد ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ م .

- ٣٨- سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي .
- ٣٩- شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي .
- ٤٠- الشهرستاني ، الملل والنحل .
- ٤١- د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي .
- ٤٢- صالح مسعود أبو يصير ، جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٩ م .
- ٤٣- عادل خفاجة، الأثر العربي في اللغة السواحلية ، مجلة الأزهر، عدد شعبان ١٤١٥هـ - يناير ١٩٩٥ .
- ٤٤- عبد الحفي ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب .
- ٤٥- عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .
- ٤٦- عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- ٤٧- عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ جدة .
- ٤٨- عبد القادر محمد بن عبد القادر الجزيري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ .
- ٤٩- عبد الهادي التازي ، جامع القرويين .
- ٥٠- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية .
- ٥١- عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ .
- ٥٢- عفاف زيدان ، (ترجمة) العلاقات الأفغانية الروسية ، مؤلف مجهول ، نشر دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة سنة ١٩٩٢ م .
- ٥٣- علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، الفصل في الملل والنحل .

- ٥٤- علي عبد الواحد وافي ، شرح مقدمة ابن خلدون .
- ٥٥- عمر الدسوقي ، إخوان الصفا وخلان الوفا .
- ٥٦- عمر رضا كحالة ، (جغرافية شبه جزيرة العرب - معجم قبائل العرب)
- ٥٧- عيسى بن لطف الله ، روح الروح (مخطوطة) .
- ٥٨- د. فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، طبعة دار النهضة العربية بيروت ، سنة ١٩٨٠ م .
- ٥٩- القزويني ، آثار البلاد .
- ٦٠- قطب الدين النهروالي ، [البرق اليماني في الفتح العثماني - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام] .
- ٦١- القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا .
- ٦٢- كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية .
- ٦٣- لوثرروب ، حاضر العالم الإسلامي ، والأمير شكيب أرسلان بعنوان شرقي أفريقيا .
- ٦٤- محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية .
- ٦٥- محمد اسماعيل الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية .
- ٦٦- محمد إسماعيل جمال الدين ، دولة الإسماعيلية في إيران .
- ٦٧- د. محمد السيد غلاب و د. حسن عبد القادر صالح و د. محمود شاكر ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٩٧٩ م .
- ٦٨- محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك
- ٦٩- محمد الخضري ، الدولة العباسية .

- ٧٠- محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين .
- ٧١- محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .
- ٧٢- الضوء الالامع في أعيان القرن التاسع .
- ٧٣- محمود حسن صالح منسي ، معالم تاريخ الشرق الإسلامي في العصور الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٧٧م .
- ٧٤- مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية .
- ٧٥- المؤلف د. مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر في الحياة المصرية .
- ٧٦- ، العالم الإسلامي في العصر العباسي .
- ٧٧- ، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر .
- ٧٨- ، اليقظة الإسلامية في العالم الإسلامي .
- ٧٩- ، المسلمون في آسيا الوسطى وإيران .
- ٨٠- ، الدولة العثمانية وعلاقتها بالعالم الإسلامي وأوروبا .
- ٨١- المقرئ ، (نفع الطيب - أزهار الرياض) .
- ٨٢- المقرئ ، الخطوط .
- ٨٣- موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، من الترجمة العربية لعبد الرحمن حميدة .
- ٨٤- ناصر خسرو ، سفرنامه .
- ٨٥- نظام الملك ، سياسة نامه ، ترجمة د. السيد محمد العزاوي .
- ٨٦- نيكسون ، الفرصة السانحة ، ترجمة أحمد صدقي مراد ، دار الهلال ، ١٩٩٢م بالقاهرة .

- ٨٧- - ياقوت الحموي ، معجم البلدان .
- ٨٨- - يحيى بن الحسين ، أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن .
- ٨٩- - جريدة الأهرام المصرية
- ٩٠- - جريدة الشرق الأوسط السعودية .
- ٩١- - جريدة الوفد المصرية .
- ٩٢- - مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٨٧ م .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	- المقدمة.....
٦	- الباب الأول - الحركات الانفصالية فى الجزيرة العربية.....
٧	- الفصل الأول: الوضع فى الجزيرة العربية بعد تغلب الاتراك على الدولة العباسية.....
١٧	- الفصل الثانى: نسان.....
٣٩	- البحرين.....
٤٧	- حركة القرامطة فى البحرين.....
٦٢	- اليمن.....
٩٤	- أشراف الحجاز.....
١٠٥	- الحركات الانفصالية فى المغرب والأندلس.....
١٠٨	- الدولة الأموية بالأندلس.....
١١٣	- دولة الأغالبة.....
١١٦	- دولة المرابطين.....
١٢٥	- المهحدون.....
١٣٠	- الفصل الثانى - الدول التى نشأت فى مصر والشام.....
١٣١	- الدولة الطولوبية.....
١٣٤	- الدولة الأخشيدية.....
١٣٧	- الدولة الفاطمية.....
١٥٦	- الدولة الحمدانية.....
١٦٤	- دولة مصر والشام فى العصر الأيوبنى.....
١٦٦	- دولة مصر والشام فى عصر المماليك.....
١٧٦	- الباب الثالث - الحركات الانفصالية فى المشرق.....
١٧٧	- الفصل الأول - الدويلات التى نشأت فى فارس، والمشرق.....
١٩١	- الدولة السامانية.....
٢٠١	- الدولة الطبرية السزيدية.....
٢٠٧	- المغول فى فارس والعراق.....
٢٢١	- الفصل الثانى - الدويلات فى آسيا الصغرى وما وراء النهر.....
٢٢٢	- الدولة الغزنوية.....
٢٢٩	- أفغانستان.....
٢٧٠	- الدولة الخوارزمية.....
٢٨٥	- الدولة العثمانية.....

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٩/١٠١٩٥

I.S.B.N

977 - 19 - 9367 - 4